روايات مصرية للجيب

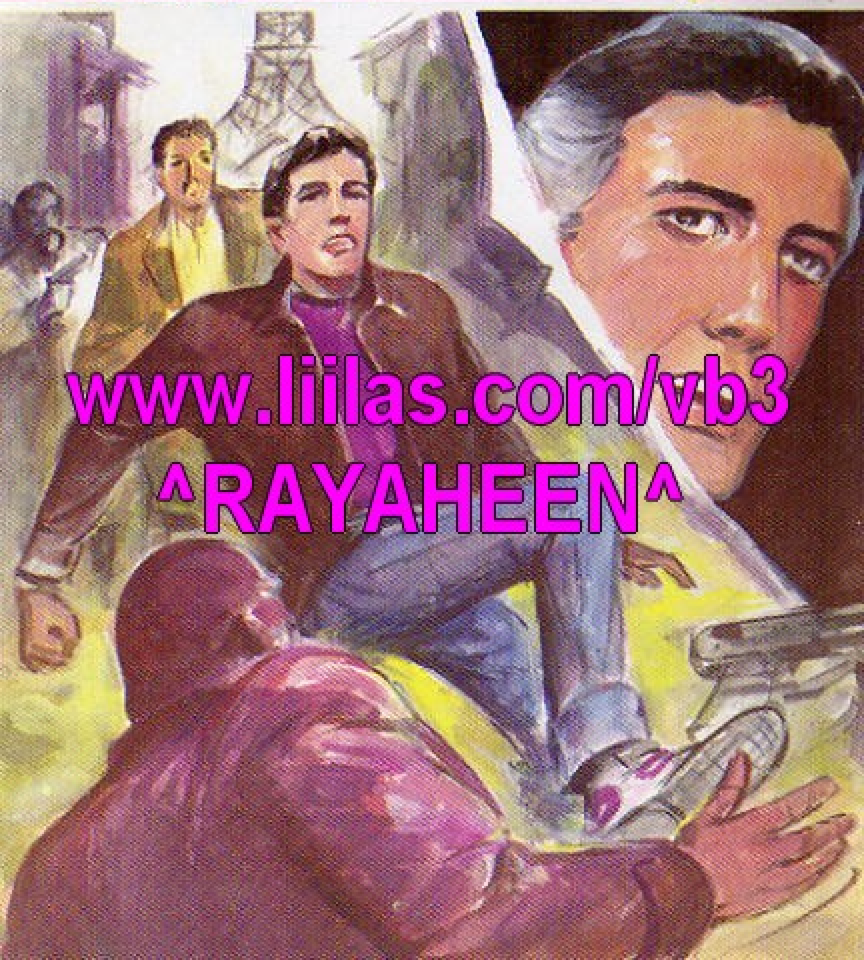
9

سلسلة الأعداد الخاصة

رجل المستحيل

المواجهة الأولى

د. نبيل فاروق






سلسلة
الأعداد
الخاصة

المواجهة الأولى



د. نبيل فاروق

المواجهة الأولى

- ما تلك الذكريات القديمة ، التى رواها (أدهم) لصديقه (قدرى) ، بصفة خاصة جداً ؟!
- متى كانت مواجهة (أدهم) الأولى مع (الموساد) الإسرائيلى ؟! وأين ؟!
- تُرى هل يتمكَّن (أدهم) الشاب من الانتصار على قتلة (الموساد) المحترفين فى (المواجهة الأولى) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) .

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

هـذا العـدد

مرة أخرى نلتقى ، فى أحد الأعداد الخاصة ..

الخاصة جدًا ..

والعدد فى هذه المرة ، يختلف عن كل أعداد السلسلة السابقة ..

هذا لأنه يحمل ، بالنسبة لى على الأقل ، رائحة خاصة للغاية ..

رائحة الذكريات ..

وأجمل ذكريات ، يحظى بها أى كاتب فى الدنيا ، هى ذكرياته مع القلم والأوراق ..

مع خياله ..

وأحلامه ..

وتاريخه ..

فمنذ ما يقرب من عشر سنوات ، كنت أبتكر عددًا من الشخصيات ، فى بعض المجلات العربية .. ولأن عمر المجلة محدود بفترة إصدارها ، فقد غابت تلك الشخصيات واندثرت ، بعد أن طواها الزمن ، وابتعد بها الوقت ، وانزوت فى ظلام النسيان ..

وليس أمرّ عند أى كاتب ، من اندثار كتاباته وانزوائها فى ركن مظلم من تاريخه ، بعد أن طالعها عدد محدود من قرّائه ..

لذا ، فقد حلمت ، منذ فترة طويلة ، بأن تخرج تلك الأعمال مرة أخرى إلى النور ، عبر مطبوعة أطول عمرًا ، وأكثر استقرارًا ..

الكتاب ..

والكتاب ، على عكس المجلة ، غير محدود ، ما دام هناك من يسعى لاقتنائه ، وهذا ما يصرّ عليه دائمًا ناشرى ومعلّمى الأستاذ / حمدى مصطفى ، وما أعترف بحكمته بشأنه ..

وفى هذا العدد ، الخاص جدًا ، أقدّم لكم ـ بالإضافة إلى العمل الرئيسى ـ مجموعة منتقاة ، من بعض الأعمال والشخصيات ، التى من المؤكّد أن معظمكم يجهل الكثير عنها ..

ولنعتبرها تجربة ..

مجرّد تجربة ..

ومن يدرى ؟! ربما خرجت فى المستقبل أعمال أكثر ، لتنضم إلى قائمة الخلود ، بين غلافى أعداد أخرى قادمة ..

أعداد خاصة ..

جدًا .

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

رجل العدالة

نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

اللعبـــــة ..

شعر (هاشم همام) رجل الأمن العربى ، بقلق حقيقى ، لأول مرة فى حياته ، وهو يقف أمام ذلك المسئول الكبير الذى استدعاه من إدارة الأمن ، لمقابلته شخصيًا ..

كانت أوّل مرة يلتقى فيها (هاشم) بشخصية لها كل هذه الأهمية ، من خلال عمله ، لذا فقد أصبح عصبيًا بعض الشىء ، وهو ينتظر فى مكتب السكرتير ، وتحوّلت عصبيته إلى توتر حقيقى ، عندما انتقل إلى حجرة المسئول نفسه ، فوقف صامتًا تمامًا ، يستمع إلى المسئول ، وهو يقول فى حزم :

ـ إذن فأنت (هاشم همام) ! أتعلم أنّ الكمبيوتر قد انتخبك من بين ستة آلاف رجل أمن عربى ، لهذه المهمة ؟

أراد (هاشم) أن يسأله عن طبيعة هذه المهمة ، ليشبع ذلك الفضول المشتعل فى أعماقه ، إلا أنه آثر الصمت ، واكتفى بأن يغمغم فى خفوت :

ـ هذا من حسن حظّى يا سيدى .

ابتسم المسئول ، وقال :

ـ لا أحد يدرى ما إذا كان ذلك لحسن حظك أم لسوء حظك .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى حيث يقف (هاشم) ، وتطلع إلى عينى هذا الأخير مباشرة ، وهو يقول فى حزم أكبر :

ـ لقد أسندنا إليك مهمّة بالغة الحساسية والخطورة ، حتى إنه لن يعلم بها سوانا ، أنت وأنا ، بالإضافة إلى فريق أمن خاص للغاية ، يتكون من أربعة أفراد فحسب .

لم يستطع (هاشم) كتمان فضوله هذه المرّة ، فسأل :

ـ وما طبيعة هذه المهمة يا سيّدى ؟

أجابه المسئول على الفور :

ـ سنقوم على حراسة وحماية شخصية كبيرة للغاية .

شعر (هاشم) بشىء من خيبة الأمل فى أعماقه ؛ فقد بدت له المهمة تقليدية نوعًا ما ، على الرّغم من حساسيتها ، لولا أن أضاف المسئول فى صرامة :

ـ ودون أن يعلم هو نفسه بهذا .

هنا فقط شعر (هاشم) بالدهشة وسأل :

ـ ماذا يعنى هذا يا سيّدى ؟

تنهّد المسئول ، وقال :

ـ اسمع جيّدًا يا (هاشم) .. هناك مؤتمرٌ سيقام فى واحدةٍ من دول (أوروبا) غدًا ، وسيكون شخص عربى كبير هو أهمُ شخصيةٍ يعتمد عليها المؤتمر ، ولقد علمنا ، بوسيلة خاصة ، أن هناك مؤامرة أجنبية لاغتيال هذا العربى ، ولكننا لا نستطيع إعلان هذا ، لأننا لا نملك أدلّة مادية كافية ، ثمّ إن هذا الشخص العربى ليس من مواطنينا .

قال (هاشم) :

- ولكنه عربى على أية حال .

ابتسم المسئول وقال :

- هذا صحيح ، ولهذا نسعى لحمايته .

ثم عقد حاجبيه ، مستطردًا فى حزم :

- هناك بالطبع طاقم حراسة تقليدى ، يعمل على حماية الشخصية العربية ، ولكننا لا نمنح ثقتنا لهذا الطاقم ، لأن أفراده كلهم من الأجانب ، والدولة التى سيقام فيها المؤتمر ترفض أن يقوم طاقم أمن عربى بحماية العرب ، ولهذا فستقوم بمهمتك سرًا .. هل فهمت ؟

أجابه (هاشم) فى حزم :

- فهمت يا سيدى .

استعاد (هاشم) تفاصيل ذلك اللقاء كله ، وهو يقف فوق سطح بناية مرتفعة ، يراقب مدخل قاعة المؤتمرات الأوروبية بمنظاره المقرّب ، وصديقه (يحيى) يسأله فى اهتمام :

- هل وصل الضيف العربى ؟

هزّ (هاشم) رأسه ، وغمغم :

- ليس بعد .

ثم أزاح منظاره عن عينيه ، والتفت إلى (يحيى) يقول :

- من يُصدق هذا ؟ كنا نشكو من رتابة العمل ، فإذا بنا نواجه خطرًا غامضًا مجهولاً ، فى قلب (أوروبا) .

هزّ (يحيى) كتفيه ، وقال :

- من يدرى ؟ ربما كانت المعلومات خاطئة ، أو .....

جذب اهتمامه ذلك الانتباه الشديد ، الذى بدا فى وجه (هاشم) وملامحه ، وهو يتطلّع إلى نقطة ما ، على سطح المبنى الملاصق لمبناهما ، والذى يعلو سطحه ذلك السطح ، الذى يقفان عليه بطابق واحد تقريبًا ، فسأله فى قلق :

- ماذا هناك ؟

أشار (هاشم) إلى السطح الآخر ، وهو يقول :

- لقد لمحت بريقًا سريعًا هناك ، كما لو كان انعكاسًا لضوء الشمس على جسم معدنى ، أو .....

بتر عبارته بغتة ، فهبّ (يحيى) من مكانه ، وتطلّع فى قلق متزايد إلى سطح المبنى المجاور ، وهو يسأله :

- أو ماذا ؟

تردّد (هاشم) لحظة ، ثم أجاب فى حسم :

- أو على منظار بندقية بعيدة المدى .

قالها وهو يتجه نحو سلم معدنى صغير ، يقود إلى سطح المبنى المجاور ، فسأله (يحيى) فى حذر ، يمتزج ببعض القلق :

- هل ستصعد إلى هناك ؟

أجابه (هاشم) فى حزم ، وقد بدأ الصعود بالفعل :

- بالطبع .

همّ (يحيى) بالصعود خلفه ، ولكن (هاشم) قال فى صرامة :

- ابق أنت ، لا بدَّ أن يواصل أحدُنا مراقبة الضيف العربى .

بقى (يحيى) متوترًا ، فى حين صعد (هاشم) فى سرعة إلى السطح الآخر ، ووقف يدير عينيه فيه فى حيرة ، فقد كان السطح خاليًا تمامًا ، إلا أن عينى (هاشم) توقَّفتا عند حجرة صغيرة مفتوحة ، فى ركن السطح ، وغمغم :

- مكانٌ رائعٌ للاختباء .

اتجه إلى الحجرة فى حذر ، وأخرج مسدَّسه وبلغ الحجرة ، فتوقَّف عند بابها المفتوح ، ورفع مسدسه إلى جوار وجهه ، و ....

وفجأة انقضَّ عليه رجل ضخم من فوق الحجرة ، وأسقطه أرضًا ، وسمعه (هاشم) يقول ساخرًا ، بلغته الأوروبية :

- كنت تظن نفسك ذكيًا أيها العربى .. أليسَ كذلك ؟

كانت المفاجأة كفيلة بتحطيم أعصاب أى رجل ، إلا أن (هاشم) لم يكن بالرجل العادى ..

لقد كان عربيًا ..

ومقاتلًا ..

وبسرعة لم يتصوَّرها ذلك الأوروبى الضخم ، انثنى جسد (هاشم) ثم قفز واقفًا على قدميه ، وقفزت قدمه تركل وجه مهاجمه ، وهو يقول فى سخرية مماثلة :

- بلى ، ومازلت أصرُّ على أننى كذلك يا رجل .

تراجع الضخم من أثر الركلة ، ثم اعتدل وأنفه ينزف دمًا ، وصاح فى غضب :

- حسنًا أيها العربى .. أنت أردت هذا .

وأطلق النار ..

وفى هذه المرَّة ، أبرز (هاشم) موهبته وقدراته بالفعل ..

لقد انحنى فى سرعة مدهشة ، وسمع أزيز الرصاصة ، وهى تمرق على بعد سنتيمتر واحد من رأسه ، قبل أن يعتدل ، وينقض على الرجل ، هاتفًا :

- لا تبع فراءَ الذئب قبل صيده يا رجل .

وبكل ما تحمله قبضته من قوة وصرامة ، هوى (هاشم) على فك الرجل بلكمة كالقنبلة ، ترنح لها الرجل فى شدَّة ، إلا أنه لم يسقط ، بل صرخ ، وقد سقطت بندقيته أيضًا :

- لن تهزمنى أيها العربى .. أبدًا .

وانقضَّ على (هاشم) ، الذى كال له لكمة أخرى ، لم يسقط لها الرجل أيضًا ، وإنما أطلق زمجرة مخيفة ، وخار كثور جريح ، ثم أحاط وسط (هاشم) بساعديه ، وصرخ :

- ستندم أيها العربى .. ستندم .

اندفع بحمله نحو حافة السطح ، و (هاشم) يكيل له اللكمة تلو الأخرى ، والأوروبى يهتف فى جذل وحشى :

- ستعرف مصير من يجرؤ على مواجهتى .. ستعرفه بعد أن يكون أوان الإفادة من المعرفة قد فات .

حاول (هاشم) أن يتملَّص من ذراعى خصمه ، الشبيهتين بكلاَّبتين من الفولاذ ، ولكنه عجز عن هذا تمامًا ، حتى بلغ الضخم حافة السطح ، وصرخ :

- اذهب أيها العربى .. اذهب .
وألقى (هاشم) من فوق السطح ..
من ارتفاع عشرة طوابق ..

★ ★ ★

كان الموقف كفيلاً بتحطيم شجاعة أقوى الرجال ، ومن المفزع حقًا أن يجد المرء نفسه يهوى ، من ارتفاع عشرة طوابق .

ولكن (هاشم) رجل من طراز نادر ..

من ذلك الطراز ، الذى لا يفقد سيطرته على أعصابه ، ولا قدرته على التفكير ، حتى فى أحلك المواقف .

لقد وجد (هاشم) جسده يسقط من حالق ، ولكن عينيه اختبرتا المكان كله فى جزء من الثانية ، ثم اتخذ عقله رد الفعل المناسب ، فى الجزء الثانى من الثانية .

فاندفعت يداه تتشبثان بحافة إعلان ضوئى كبير ، يبرز من السطح .

وتوقَّف جسده بغتة ..

وشعر بآلام عنيفة فى عضلات ذراعيه وكتفيه ..

ولكن لم يتخلَّ عن الإعلان .

ومن فوق رأسه ، سمع القاتل الضخم يقول فى شراسة :

- إذن فأنت ترفض أن تلقى مصرعك بالسقوط من علٍ .. ما رأيك برصاصة ؟

قالها وهو يصوِّب فوهة بندقيته إلى رأس (هاشم) ..

ولم يكن هناك مهرب هذه المرة ..

وتعلقت عينا (هاشم) بفوهة البندقية ، وبسبابة القاتل ، التى تضغط الزناد فى بطء وبرود ..

ثم سمع صوت (يحيى) يقول :

- ماذا تفعل يا رجل ؟

ورأى القاتل يستدير فى سرعة ، ويصوِّب مسدسه إلى ناحية من السطح ، لا يسمح موقع (هاشم) برؤيتها ..

وتحرك (هاشم) فى سرعة ، وخفة ، ومرونة ..

وكان مدهشًا بحق ..

لقد جمع كل قوته ورشاقته ، واسترجع كل دروس الرياضة القديمة ، ثم دفع جسده إلى أعلى وانقلبت ساقاه فى مرونة ، ودار حول جسده كله ، وضرب ظهر القاتل بقدميه فى قوة ، قبل أن يسقط على ظهره فوق السطح ..

وانطلقت رصاصة القاتل ، ولكنها لم تصب (يحيى) بل أصابت أرض السطح ، وانحرفت فى عنف ، فى نفس اللحظة التى انتزع فيها (يحيى) مسدسه ، وهتف :

- قف يا رجل .. أو .....

ولكن القاتل اعتدل وهو يطلق زمجرة رهيبة ، ورفع بندقيته مرة أخرى نحو (يحيى) ..

وفى هذه المرة قفز (هاشم) نحو الرجل ، وضم قبضتيه ،

وهو يهوى على مؤخرة عنقه بضربة كالقنبلة ، أودعها كل قوته وغضبه .

وخار القاتل كثور ذبيح ، ثم سقط على وجهه فاقد الوعى ..

ولهث (هاشم) من فرط الانفعال ، وهو يسأل (يحيى) :

ـ أأنت بخير ؟

نقل (يحيى) بصره بين (هاشم) ، والقاتل الفاقد الوعى ، ثم قال :

ـ المفترض أن ألقى أنا هذا السؤال .

سأله (هاشم) فى توتر :

ـ لماذا غادرت موقعك ؟

ابتسم (يحيى) وقال :

ـ أظن أنه ينبغى مكافأتى ، لمخالفتى الأوامر هذه المرة .

فوجئ بـ (هاشم) يهتف فجأة :

ـ يا إلهى ! انظر .

التفت (يحيى) فى سرعة ، إلى حيث يشير (هاشم) ، وأطلق شهقة دهشة وذعر ، فقد كان هناك رجل آخر .. نحيل حاد الملامح ، يرقد على سطح مبنى آخر ، ويصوب بندقية ذات منظار مقرب إلى باب قاعة المؤتمرات ..

وهتف (هاشم) ، وهو ينتزع مسدسه :

ـ لقد خدعونا .

قبل أن يرفع مسدسه ، كان القاتل النحيل قد ضغط زناد بندقيته .

وانطلقت الرصاصة .

والتفت (هاشم) فى ذعر إلى أسفل ، وهوى قلبه بين قدميه ، عندما رأى تلك الشخصية العربية ، التى انتقل خصيصًا لحمايتها ، وقد أمسك صاحبها رأسه فى ألم ، وترنح ، ثم سقط أرضًا ، فى حين انتزع رجال الحراسة المحيطون به مسدساتهم ، وراحوا يصوبونها إلى كل الاتجاهات فى ارتباك .

واستدار (هاشم) فى سرعة إلى حيث القاتل النحيل ، وامتلأت نفسه بغيظ لا حدود له ، فقد اختفى القاتل ، وترك خلفه بندقيته ، وكأنما لم يعد بحاجة إليها ، بعد أن أنهى مهمته ..

وبعد أن فشل (هاشم) ..

لأول مرة فى حياته .

★ ★ ★

وقف (هاشم) محنقًا ، يزخر قلبه بالمرارة والضيق ، وهو يستمع إلى طبيب ذلك المستشفى الأوروبى ، وهو يقول :

ـ لقد نجا بأعجوبة ، فالرصاصة أصابت طرف أنفه فحسب وجرحت وجنته جرحًا سطحيًا .

سأله (يحيى) :

ـ لماذا تحتجزونه هنا إذن ؟

هز الطبيب كتفيه ، وقال :

ـ مجرد إجراء روتينى .. إننا نضع كل مصاب تحت الملاحظة ، لأربع وعشرين ساعة فحسب ، يمكنه أن ينصرف بعدها .

أومأ (هاشم) برأسه متفهمًا ، دون أن يلفظ حرفًا واحدًا ، حتى انصرف الطبيب ، فالتفت إليه (يحيى) ، وسأله :

ـ لماذا تبدو مكتئبًا هكذا ؟

غمغم (هاشم) :

ـ إنها مرارة الفشل .

ربَّت (يحيى) على كتفه ، وقال :

ـ لقد نجا الرجل .

قال (هاشم) فى مرارة :

ـ وكان من الممكن أن يلقى حتفه .

ارتفع من خلفه صوت خشن يقول :

ـ يدهشنى أن هذا لم يحدث فى الواقع .

التفت الاثنان إليه ، وسأله (هاشم) :

ـ هل تتحدَّث العربية ؟

لوَّح الرجل بذراعه ، وقال :

ـ لقد قضيت فترة كبيرة من شبابى فى دولة عربيَّة .

ثم أضاف فى حنق :

ـ أنتما تعلمان طبعًا أننى مفتش شرطة هنا ، ولكنكما لم تحاولا أبدًا إبلاغى أنكما تقومان على حراسة العربى ، وكان يمكننا تنسيق العمل معًا .. أو .....

قاطعه (هاشم) فى حزم :

ـ دعك من الحديث عما مضى ، وأخبرنى هل توصلتم إلى شخصية القاتل ؟

أخرج المفتش الأوروبى من جيب معطفه صورة مرسومة ، وهو يقول :

ـ لقد استعان رجالنا بالأوصاف الدقيقة التى أدليت أنت بها إلينا ، ووضعوا هذا الرسم .

تطلَّع (هاشم) إلى رسم جيد لوجه القاتل ، وقال فى حسم :

ـ إنه هو .

مط المفتش شفتيه ، وقال :

ـ عجبًا ! هذا الرجل هو أبرع قاتل محترف فى (أوروبا) كلها ، وهو لم يخطئ إصابة هدفه أبدًا ، ولا ريب أن رجلكم محظوظ للغاية ، لنجاته من رصاصته .

قال (يحيى) فى هدوء :

ـ فى عقيدتنا لا نؤمن بكلمة الحظ هذه أيُّها المفتش ، وإنَّما نقول إنها الإرادة الإلهيَّة .

أومأ المفتش برأسه متفهمًا فى احترام ، فى حين سأله (هاشم) فى اهتمام :

ـ قلْ لى أيُّها المفتش : أهذا القاتل دقيق فى تصويبه إلى هذا الحدّ ؟

أجابه المفتش :

ـ بل أكثر من هذا .. إنه قادر على إصابة ذبابة فوق أنف هرَّة ، من مسافة نصف كيلو متر ، دون أن تستيقظ الهرَّة من نومها .

عقد (هاشم) حاجبيه ، وراح يحكّ أرنبة أنفه ، فابتسم (يحيى) وقال :

ـ لا يوجد لغز هذه المرة .

غمغم (هاشم) :

ـ ربما .

وفجأة تركزت عيناه على شخص يرتدى معطف الأطباء فى نهاية ممر المستشفى ، وهتف :

ـ ها هو ذا .

ثم اندفع بغتة نحو ذلك القاتل النحيل ، الذى يتخفى فى زى الأطباء ، صائحًا :

ـ أمسكوا هذا الرجل .

وتراجع القاتل فى حركة حادة ، ثم انتزع مسدسه من أسفل معطفه الطبى ، ورفعه فى وجه (هاشم) ، و .....

وأطلق النار .

* * *

ليس من السهل أن يتفادى المرء رصاصة ، انطلقت من مسدس محترف ..

بل هذا مستحيل تقريبًا ..

ولكن (هاشم) فعلها ..

لقد انحنى على نحو غريزى ، عندما ارتفعت فوهة مسدس القاتل نحوه ، ومال برأسه جانبًا ، فى نفس اللحظة التى ضغط

فيها المجرم الزناد ، وسمع أزيز الرصاصة ، وهى تعبر فوق رأسه ، قريبًا من أذنه اليسرى ، ولكنه لم يتوقف ، بل واصل اندفاعه نحو المجرم الذى تراجع فى سرعة ، وانطلق يعدو فى ممرات المستشفى و (هاشم) خلفه ، فى حين استلّ (يحيى) مسدسه ، وهمّ بالانطلاق خلفهما ، ومفتش الشرطة الأوروبى ، يهتف :

ـ ما هذا بالضبط ؟

صاح به (يحيى) :

ـ لا تسأل الآن يا رجل .. فقط اعمل على الإيقاع بمن يطارده (هاشم) وستربح حتمًا .

كانت مطاردة عنيفة مثيرة ، فى أروقة المستشفى ، الذى ساده الذعر والتوتر والخوف ، وانطلقت فى ممراته صرخات العاملين والمرضى وهم يشاهدون رجلين ، يحمل كل منهما مسدسه ، وتدور بينهما مطاردة حاسمة ..

وكان من الواضح أن القاتل يعلم جيدًا أين ينطلق ، وفى أى اتجاه يهرب ، كما لو كان قد أعدّ خطة فراره مسبقًا ، حتى انتهت المطاردة إلى قبو المستشفى ، حيث قاعة انتظار السيارات . وهنا استدار المجرم نحو (هاشم) وأطلق ضحكة ساخرة عالية ، وهو يرفع مسدسه فى وجهه ، هاتفًا :

ـ وقعت فى الفخ أيها العربى .

صوّب إليه (هاشم) مسدسه بدوره ، وهو يقول :

- مَنْ أدراك أن الفخ لا يُحيط بك أنت أيُّها القاتل ؟
أطلق المجرم ضحكة ساخرة أخرى وقال :
تسألنى مَن أدرانى ؟ سأجيبك يا رجُل .. إنهم هؤلاء .
لم يكد يتمّ عبارته ، حتّى برز من أركان القاعة ثلاثة رجال آخرون ، يحمل كل منهم مسدسه ، وصوّبوا جميعهم مسدساتهم نحو (هاشم) والمجرم يتابع فى سخرية وشماتة :
- والآن قل لى أيُّها العربى : لمن هذا الفخ ؟
لم يجب (هاشم) وإنما تحرّك ..
تحرّك فى سرعة ، فمال جانبًا ، وقفز خلف إحدى السيارات ثم أطلق رصاصة محكمة من مسدسه ، أطاحت بمسدس المجرمُ ، الذى أطلق شهقة ذعر وذهول ، ثم صرخ فى غضب :
- اقتلوه يا رجال .
وهنا انهالت الرصاصات كالمطر على (هاشم) ، من كل جانب ، فاحتمى بجسم السيارة ، التى انتشرت فيها ثقوب الرصاصات ، وصوت المجرم يرتفع ساخطًا :
- أطلقوا النار على خزّان السيارة .. انسفوا ما يحتمى به نسفًا .
راح الرجال يطلقون رصاصاتهم على خزّان وقود السيّارة وأدرك (هاشم) أنها لن تلبث أن تنفجر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وشعر بالقلق ، وهو يغمغم :
- لا فائدة يا (هاشم) .. لا بُد وأن تُغادر مخبأك .. أو تشتعل معه .

حسم أمره فى سرعة ، وقفز من خلف السيّارة ، هاتفًا :
- هيَّا .. اسع يا عَبْد .
لم يكد المجرم يلمحه حتى صرخ :
- اطلقوا النار .. أطلقوا عليه النار .
رفع المجرمون فوهات مسدساتهم نحو (هاشم) الذى صار هدفًا واضحًا مكشوفًا لهم ، وهمّت سباباتهم بضغط أزندة مسدساتهم ، ولكن ..
فجأة ، انهال سيل آخر من الرصاصات ، نحو المجرمين هذه المرة ، عندما بلغ (يحيى) والمفتش الأوروبى القاعة .. وأصبح تراشق النيران عنيفًا ، مخيفًا .
فصاح المجرم برجاله :
- انسحبوا .. لقد انتهى عملنا .
قفز ورجاله داخل سيارة كبيرة .. انطلقت بهم كالصاروخ ، محطّمة بوّابة قاعة انتظار السيارات ومنطلقة إلى المجهول ..
وهتف المفتش الأوروبى :
- لقد نجوت منهم بأعجوبة أيُّها العربى .
توقّف (هاشم) يحك أرنبة أنفه فى توتر ، وهو يقول :
- ولكن لماذا ؟
سأله المفتش الأوروبى فى دهشة :
- لماذا ؟ ألا يروق لك أنك قد نجوت ؟
أما (يحيى) فقد سأل زميله فى اهتمام :

- ما الذى يقلقك هذه المرة ؟
أشار (هاشم) إلى حيث اختفى المجرمون ، وغمغم :
- لماذا قال ذلك المجرم إنهم قد انتهوا من عملهم ؟
قال (يحيى) فى تردّد :
- ربما تعنى أن المهمة قد انتهت ، و ...
قاطعه (هاشم) فى توتر :
- أية مهمّة ؟ إنه لم ينجز شيئًا ، فلقد كشفنا أمره فى ممر المستشفى وطاردناه إلى هنا ، حيث أجبرناه على الفرار ، و ......
بتر عبارته ، وهو يعقد حاجبيه ، مفكرًا فى عمق ، فسأله (هاشم) فى لهفة :
- وماذا ؟
هتف (هاشم) :
- يا إلهى ! ماذا لو أن كلّ هذا مجرّد ......
بتر عبارته مرة أخرى ، والتفت إلى المفتش الأوروبى ، صائحًا :
- مَنْ يقوم على حراسة المسئول العربى الآن ؟
ارتبك المفتش الأوروبى ، وهو يقول :
- مَنْ ماذا ؟ لست أدرى .. لقد انطلقنا كلّنا خلفَ المجرم و ......
صاح (هاشم) :

- يا إلهى .. لقد وقعنا فى الفخ .
انطلق يعدو عائدًا إلى حيث حجرة المسئول العربى ، وخلفه (يحيى) يقول فى توتر بالغ :
- أرجو أن تكون على خطإٍ يا (هاشم) .. لن يغفروا لنا أبدًا لو ......
قاطعه (هاشم) :
- ادع الله (سبحانه وتعالى) أن أكون على خطأ .
بلغ الثلاثة حجرة المسئول العربى ، وصاح (هاشم) وهو يشير إلى ممرضة تدفع أمامها منضدة إسعاف استلقى فوقها رجل ، وقد أخفت أقنعة الهواء وجهه :
- ما تفعل هذه الممرضة ؟
التفتت إليه الممرضة فى فزع ، فى حين أسرع المفتش الأوروبى يفتح باب حجرة المسئول العربى ، وهو يقول :
- لعلها تمارس عملها .. دعنا نطمئن على رجلكم أولاً .
ثم تنهّد فى ارتياح ، قائلاً :
- ها هو ذا يغط فى سباتٍ عميق .
رمق (هاشم) الممرضة بنظرة شك ، ثم تطلّع داخل الحجرة ، قائلاً :
- أأنت واثق بأنّه حىّ ؟
أومأ المفتش برأسه إيجابًا ، وقال :
- تمام الثقة ، إنه يتنفس على نحو منتظم .. إنه نائم على الأرجح .

أسرع (هاشم) يقيس نبض المسئول العربى ، الذى فتح عينيه مغمغمًا فى ضيق :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (هاشم) :

ـ لا شىء يا سيدى .. معذرة .

تراجع إلى خارج الحجرة ، فى حين أسرعت الممرضة تدفع مريضها إلى المصعد و (يحيى) يقول :

ـ منْ حسن الحظ أنك قد أخطأت هذه المرة .

حكّ (هاشم) أرنبة أنفه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ ولكن الأمور لا تبدو طبيعية هكذا .. هناك أمرٌ غامض ، أعجز عن فهمه أو تفسيره .

ابتسم المفتش الأوروبى فى سخرية ، وهو يقول :

ـ هل ترغب فى منح نفسك مظهر الرجل المهم أيها العربى ؟

التفت إليه (يحيى) وقال فى حزم :

ـ لو أنك تعرف (هاشم) كما أعرفه ، لأدركت أنه بالفعل رجل مهم أيها المفتش ، وأنه من العسير أن تجد منْ يحل محله أو .....

أدهشه بريق عينى (هاشم) فى هذه اللحظة ، فبتر عبارته هاتفًا :

ـ (هاشم) .. هلْ ؟

أمسك (هاشم) يد (يحيى) فى قوة وهو يهتف فى انفعال :

ـ أشكرك يا صديقى .. أنت أوضحت لى كل شىء .. أنت كشفت لى اللعبة .

غمغم (يحيى) فى دهشة :

ـ أنا ؟!

هتف (هاشم) وهو ينتزع مسدسه :

ـ نعم يا صديقى .. أنت أوضحت لى سرّ اللعبة .. اللعبة الرهيبة .

واندفع نحو المصعد ..

وازداد الأمر غموضًا .

★ ★ ★

لم تكد الممرضة تهبط إلى الطابق الأرضى من المستشفى ، حتى بدت شديدة التوتر والعجلة ، وهى تدفع منضدة الطوارئ ، بالمريض الراقد فوقها ، أمامها ، وتسرع بمغادرة المصعد ، ومتجهة إلى الباب الخارجى ..

وفجأة ظهر (هاشم) عند قاعدة سلم المستشفى ..

وبصوت جهورى حازم حاسم صارم ، صاح بها :

ـ توقفى .

استدارت إليه الممرضة فى حركة حادة ، واستدارت معها عيون كل من يعبرون المكان فى هذه اللحظة .

وتطلّع إليه الجميع فى حيرة ، لم تلبث أن انقلبت إلى ذعر ، عندما انتزع مسدسه وصوبه إلى الممرضة ، مكررًا فى غضب :

ـ قلت توقفى .

وفجأة نفضت الممرضة عن نفسها إطار الرحمة والبراءة ، وزمجرت فى شراسة ، وهى تخرج من طيات ثيابها مسدسًا ، وترفعه فى وجه (هاشم) ..

وانطلقت رصاصة (هاشم) أولاً ..

وصرخت الممرضة ، ولكنها لم تصب بأذى ..

ليس هناك عربى يطلق النار على امرأة ..

لقد أصابت رصاصة (هاشم) مسدسها فقط ، وأطاحت به بعيدًا ، قبل أن يقول (هاشم) فى صرامة :

ـ انتهت اللعبة وانكشف الأمر كله ..

حدقت فيه الممرضة فى ذهول ، ثم لم تلبث أن ألقت ذهولها جانبًا ، واستلت خنجرًا بغتة ، أمام العيون الذاهلة ، ووضعته على رقبة المريض ، الراقد على منضدة الطوارئ .

وقالت فى وحشية :

ـ ابتعدْ أو أذبحه .

انعقد حاجبا (هاشم) وهو يقول :

ـ لا تجبرينى على إطلاق النار عليك .

صاحت به :

ـ لن تفعل .. إننى أفهمكم جيدًا أيها العرب .. شهامتكم تمنعكم دائمًا من إيذاء النساء .. حتى ولو .....

قاطعها صوت بارد يقول :

ـ وماذا عنىَّ أنا ؟

كان صوت المفتش الأوروبى ، الذى لحق بـ (هاشم) مع (يحيى) وشاهد الموقف ، وقرّر الأوروبى التدخل ، على الرغم من أنه لم يفهم ما يحدث تمامًا ، ولكن صوته البارد ، ومسدسه المصوَّب إلى الممرضة جعلاها ترتجف وتقول فى توتر بالغ :

ـ هل ستطلق علىَّ النار ؟

أجابها فى حزم ، وهو يسحب إبرة مسدسه بالفعل :

ـ ألديك اقتراح آخر ؟

ترددت لحظة ، ثم ألقت خنجرها فى سخط ، ورفعت ذراعيها مستسلمة فاندفع (هاشم) نحو منضدة الطوارئ ، وكشف وجه المريض الراقد عليها وتنهّد فى ارتياح هامسًا :

ـ حمدًا لله .

لحق به (يحيى) فى هذه اللحظة ، وحدّق ذاهلاً فى وجه المريض ، قبل أن يهتف :

ـ ولكن هذا مستحيل !! إنه المسئول العربى !! كيف هذا ؟ وقد تركناه فى حجرته منذُ لحظات !!

ابتسم (هاشم) وهو يقول :

ـ هذه هى اللعبة يا صديقى .. لقد تصورنا جميعًا أن تلك المنظمة الإجرامية تهدف إلى اغتيال المسئول العربى ، ولكن هذا لم يكن الغرض الحقيقى ، وإنما كان هدفها استبداله .

هتف المفتش الأوروبى فى دهشة :

- استبداله ؟!

أجابه (هاشم) :

- نعم .. كان هدفهم الحقيقى اختطاف المسئول العربى ، ووضع آخر فى موضعه ، بعد إجراء جراحة تجميل له ، وتدريبه على التحدُث والتحرك والأداء بنفس صوت وأسلوب مسئولنا ، وهكذا يصبح لهم جاسوس فى موضع شديد القوة والحساسية فى قلب الأمة العربية ..

غمغم (يحيى) مشدوهًا :

- يا إلهى !!

أما المفتش ، فقد سأل (هاشم) فى لهفة :

- وكيف أدركتَ هذا ؟

أجابه (هاشم) :

- كان الأمر منذ البداية يبدو لى عجيبًا .. فالقاتل الذى لا يخطئ ذبابة على أنف هرّة ، من مسافة نصف كيلو متر ، أخطأ رجلاً ممشوق القوام ، منْ نصف هذه المسافة فكيف حدث هذا ؟

صمت لحظة ، إلا أنه لم يحظ بجواب لسؤاله ، فاستطرد :

- الواقع أن ذلك القاتل لم يكن يهدف إلى قتل المسئول العربى ، وإنما كان يهدف إلى إصابته فحسب ، حتى يتمَ احتجازه هنا فى المستشفى ، وتضميد وجهه بضمادات تخفى جزءًا من ملامحه بعض الوقت ، ولقد نجح فى هذا ، ثمَّ تعمَّد الظهور أمامنا

واستفزازنا ، ودفعنا إلى التخلّى عن حراسة مسئولنا ، والانطلاق خلفه ، حيث ينتظره رجاله ، وبعدها كان الفرار سهلاً ، وعندما قال لرجاله إن مهمتهم قد انتهت ، كان يقصد أن زميلتهم قد تسللت فى زى الممرضة إلى حجرة المسئول العربى ، وخدّرته بحقنة مخدرة ، ونقلته بمعاونة شبيهه إلى منضدة الطوارئ ، فى حين رقد الشبيه مكانه ، وكان المتوقع أن تغادر هى المستشفى إلى سيارة إسعاف زائفة على الأرجح ، حيث يتمُ اختطاف المسئول العربى . أمام أعين الجميع ، وبعدها يحضر الشبيه المؤتمر ، ويدلى بآراء تخالفُ الموقف العربى كلّه ، فيغضب العالم ، وينقلبُ على العرب ، أو يكتفى الشبيه باحتلال موقع المسئول العربى ، وتخريب القضية العربية من الداخل .

استمع إليه (يحيى) والمفتش مشدوهين ، ثم لم يلبث المفتش أن اعتدل مغمغمًا فى غيظ :

- يا للدهاء !

- ثم اندفع فجأة إلى الطابق العلوى ، فهتف (يحيى) :

- إلى أين ؟

أجابه (هاشم) فى هدوء :

- أظنّه سيعتقل شبيه المسئول العربى .

سأله (يحيى) :

- وهل سنكتفى نحنُ بالمراقبة ؟

ابتسم (هاشم) وقال :

- لقد انتهت اللعبة يا صديقى ، ولقد ربحنا ما نريد ، و .....

هتف صوت من خلفه فى غضب :

- أخطأت أيها العربى ..

استدار (هاشم) فى سرعة إلى مصدر الصوت ، ورأى القاتل النحيل يصوب إليه مسدسه ، و .....

ويطلق النار ..

ولم يدر (هاشم) ماذا فعل ، ولا كيف فعل ما فعل ..

لقد رأى المسدس مصوبًا إليه ، وسبّابة القاتل تعتصر الزناد ، فانحنى ، ومال ، وانثنى ، وانقضّ ..

ودوت الرصاصة فى قلب المستشفى ، وصرخ روّاد المكان فى رعب ، فى نفس اللحظة التى ارتطم فيها (هاشم) بخصمه وأمسك معصمه فى قوة . ورفع يده الممسكة بالمسدس عاليًا ، ثم هوى على فكه بلكمة كالقنبلة ..

وتأوّه الرجل فى ألم ..

وتفجّرت الدماء من فكه ، مع سنين مكسورتين ، ورفع (هاشم) قبضته ليهوى على فك الرجل بلكمة أخرى ، تحمل كل غضبه وكراهيته لعالم الجريمة والمجرمين ، ولكن القاتل هتف منهارًا :

- الرحمة .. الرحمة .

وتوقّفت قبضة (هاشم) فى الهواء ، ثم تراخت ، وانخفضت تستقر إلى جواره ، وسمع المفتش الأوروبى يهتف فى دهشة :

- لماذا لم تلكمه ؟

أجابه (هاشم) وهو يدفع القاتل إلى رجال الشرطة فى ازدراء :

- لقد ناشدنى الرحمة !

ردّ الأوروبى ، وقد تعاظمت دهشته :

- ناشدك الرحمةَ ؟!

ثم هزّ رأسه فى حيرة ، مغمغمًا :

- كمْ يدهشنى أسلوبكم أيها العرب .

إلا أنه لم يلبث أن ابتسم مستطردًا :

- وكم يثير إعجابى .

ابتسم (هاشم) وسأله :

- قل لى أولاً : هل ألقيت القبض على الشبيه ؟

أومأ المفتش برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. لقد انتهى الأمر بالنسبة له .

قال (هاشم) فى ارتياح :

- نعم .. لقد انتهى الأمر .

وربّت على كتف زميله (يحيى) قبل أن يستطرد فى حزم :

وانتهت اللعبة .. لصالحنا .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

الرقم صفر..

أوقف (يحيى) سيارته أمام مبنى حديث الطراز يحتلَ مساحة واسعة ، عند أطراف المدينة ، وابتسم ابتسامة هادئة ، وهو يلتفت إلى الرجل الذى يجلس إلى جواره فى استرخاء تام ، وقال :

ـ لقد وصلنا يا (هاشم) .

فتح (هاشم همام) أشهر رجل أمن فى المنطقة العربية عينيه ، وألقى نظرة كسولة على المبنى ، وهو يغمغم فى استهتار واضح :

ـ أهذه مدرستُنا الجديدة ؟

أجابه (يحيى) ، وهما يغادران السيارة ، ويتجهان إلى المبنى :

ـ حتى رجال الأمن يحتاجون إلى دوراتٍ تنشيطية يا صديقى .. أليسَ كذلك ؟

أبرز الاثنان هويتيهما لحارس البوَّابة ، الذى راجع بيانات الهويتين جيدًا ، ثم سمح لهما بالدخول .

وعبر الاثنان ممرًا طويلاً ، استقبلهما فى نهايته المفتش (رضوان) ، رئيس مركز تدريبات الأمن ، وصافحهما فى ترحاب ، وهو يقول :

ـ مرحبًا بكما فى مركز التدريب الخاص .. أنتُما أوَّل رجلَى أمن ، يتلقيان تدريباتِنا المتطوِّرة .

قال (هاشم) فى ضيق واضح :

ـ أتعشَّم أن يضيف هذا إلى خبراتنا الكثير .

رمقه المفتش (رضوان) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ لا أحد يبلغ قمَّة الخبرة أبدًا .

ثم قادهما إلى الداخل ، وهو يستطرد :

ـ فى هذا المركز ستتلقَّيان أحدث علُوم ووسائل الأمن ، وأكثرها قوة وخطورة .

غمغم (هاشم) :

ـ لا يُوجد جهاز أمنى كامل .

أجابه المفتش (رضوان) فى حزم :

ـ بل يوجَد بالتأكيد .. نحنُ نملك هنا أكثر أجهزة الأمن كمَالاً وإحكامًا .

ابتسم (هاشم) ، قائلاً فى برود :

ـ مستحيل .. لا يُوجد جهاز أمن يخلُو من الثغرات ، مهما بلغت دقَّته .

هتف به المفتش (رضوان) :

ـ هكذا ؟! دعنى إذن أريك الآن أحكم جهاز أمنٍ فى القرن العشرين .

واندفع نحو حجرة جانبية يتوسط بابها مستطيل أحمر .

فى هذه الحجرة نحتفظ بأخطر ملفاتنا ، وأكثرها سرية .

وأخرج من جيبه بطاقة مغناطيسية خاصة ، دسَّها فى ثقب يحاكى سمكها الرقيق ، متابعًا :

- والوسيلة الوحيدة لدخول مثل هذه الحجرة هىَ استخدام البطاقة المغناطيسية الخاصة .

قال (هاشم) مبتسمًا :

- مِنَ السَّهل تزوير البطاقات المغناطيسية هذه الأيام .

أجابه المفتش (رضوان) فى عصبية :

- إنما هىَ وسيلة لدخول الحجرة فحسب .

دفع باب الحجرة ، التى بدت خالية ، إلا من عدة خزائن فى الحائط ، يحمل كل منها رقمًا خاصًا ، أشار إليها المفتش (رضوان) قائلاً :

- هذه هى خزائنُ الأسرار .

تأمل (هاشم) الخزائن بعين فاحصة خبيرة ، ووجد أنها خزائن من نوع خاص ، فقال فى هدوء :

- خزائن رائعة ، من الفولاذ الدمشقى الشديد الصلابة ، ومزوَّدة بأقفال ذات أرقام سريَّة سداسيَّة ، ورتاج مغناطيسى .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

- وهناك خبراء للتعامل مع مثل هذه الخزائن .

أجابه المفتش (رضوان) فى حدة :

- ليس فى هذه الحجرة ، فلو أنك تطلَّعت إلى الأركان لرأيت أربع آلات تصوير تليفزيونية ، تعمل تلقائيًا ، فور فتح باب الحجرة ، وتلتقط صورًا واضحة لكل زاوية منْ زوايا الحجرة ، وعلى من يرغب فى سرقة واحدة من هذه الخزائن أن يتجه مباشرة إلى الخزانة التى ينوى سرقتها ، فالكمبيوتر المتصل بآلات التصوير يلتقط أىَّ تردُّد واضح ، وينسبه إلى محاولة سرقة ، والأمر نفسه يحدُث مع أى ارتباك أو جهل للأرقام السرية ، التى تفتح بها الخزائن ، أضف إلى هذا صعوبة التوصُّل إلى الأرقام السرية المعقَّدة ، ووجود آلة تصوير سريَّة داخل كلِّ خزانة ، تلتقط صورة مَنْ يفتحها .

هتف (يحيى) مبهورًا :

- إنها وسائل شديدة التعقيد بالفعل .

ابتسم المفتش (رضوان) ، وكأنما راق له تعليق (يحيى) ، وقال متابعًا حديثه :

- والأرقام السريَّة لفتح الخزائن تزداد تعقيدًا ، مع ازدياد أهمية وخطورة الخزانة ، وأخطر خزائننا السريَّة ، هىَ تلك التى تحمل الرقم (صفر) .

قال هذا ، وهو يشير إلى خزانة فى المواجهة ، انتقلت إليها أبصار (هاشم) و (يحيى) على الفور ، فى حين اتجه المفتش (رضوان) نحوها ، وهو يقول :

- فى هذه الخزانة نحتفظ بكتاب الشفرة السرِّى ، لهذا فهى أخطر خزائننا .

وراح يضغط الأرقام السرية فى سرعة ، مستطردًا :

ـ وكما تريان ، يحتاج فتح الخزانة رقم (صفر) إلى تسعة أرقام شفرية ، فى تتابع منتظم ، و .....

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق داخل الخزانة فى ذهول ، وهتف (يحيى) فى دهشة بالغة :

ـ إنها خالية .

قفز (هاشم) يحدّق داخل الخزانة الخاوية ، ثم التفت إلى المفتش (رضوان) ، ليسأله فى انفعال :

ـ هل كان كتاب الشفرة هنا ؟

أجابه المفتش (رضوان) ، ولم يفارق ذهوله بعد :

ـ نعم .. إنه لم يغادر هذه الخزانة أبدًا .

متى رأيته فيها آخر مرة ؟

أدار الرجل عينيه إليه ، مغمغمًا كالمصعوق :

ـ منذ ساعة واحدة .

سأله (هاشم) :

ـ مَنْ يملك غيرك أرقام فتح الخزانة ؟

ـ اثنان فقط ، (عادل) و (فائز) .

ـ من منهما يمكنك الشك فى إخلاصه ؟

ـ لا هذا ولا ذاك .. أيهما مَنْ أنزه وأشرف رجال الأمن .

عقد (هاشم) حاجبيه فى حزم ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن رأيك هذا خاطئ ، بالنسبة لأحدهما يا سيّدى .

ردّد الرجل مشدوهًا :

ـ مستحيل !

وهنا هتف (يحيى) :

ـ ولكنْ ألم تلتقط آلة التصوير السريّة فى الخزانة ، صورة السارق ؟

ضرب المفتش (رضوان) جبهته براحته ، وهو يهتف :

ـ بالطبع .. هكذا تعمل .

ثم انحنى داخل الخزانة ، وضغط زرًا خاصًا فى قاعها ، فانبعث من داخلها أزيز خافت ، وبرزت صورة ضوئية ملوّنة ، انتزعها فى اهتمام ، وألقى عليها نظرة ملؤها اللهفة ، ثم مطّ شفتيه فى خيبة أمل ، وهو يقول :

ـ لا .. لم تفعلْ .

التقط من (هاشم) الصورة ، التى بدا فيها المفتش (رضوان) ، وهو يحدّق داخل الخزانة فى ذهول ، وقال :

ـ إنها الصورة الأخيرة ، ولكن ألا توجد صور سابقة ؟

هزّ المفتش رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لو كانت هناك صورٌ سابقةٌ ، لأخرجتها الآلة مع هذه الصورة .

بدت الحيرة على وجه (هاشم) لحظات ، ثم سأل المفتش :

ـ أأنت واثقٌ بأن كتاب الشفرة كان هنا ، منذ ساعة واحدة ؟

أجابه المفتش :

ـ تمامَ الثقة .

قال (هاشم) :

ـ أليسَ منَ المحتمل أنْ .....

قطع حديثه فجأة ، وهو يلتفت إلى الباب في حركة حادة ، فهمس به (يحيى) في انفعال :

ـ ماذا حدث ؟

أشار إليه (هاشم) أن يصمت ، ثم ..

وفجأة قفز (هاشم) خارج الحجرة ، وهتف :

ـ ماذا تفعلُ هنا ؟

انتفض الشخص الذى يقف خارج الحجرة ، وقفزت يده على نحو غريزى إلى مسدسه ، وانتزعه ، وصوّبه إلى رأس (هاشم) و .....

وأطلق النار .

★ ★ ★

كان من الطبيعي أن تصيب الرصاصة (هاشم) في مقتل ، لولا أن مال هذا الأخير جانبًا وانحنى ، ثم هبَّ واقفًا ، وهوى بقبضته على فك المعتدى كالقنبلة في نفس الوقت الذى اندفع فيه (يحيى) خارج الحجرة ، وهو يشهر مسدسه ولحق به المفتش (رضوان) الذى هتف في دهشة ، عندما وقع بصره على وجه المعتدى (فائز) ؟! ماذا حدث ؟

نهض (فائز) ، وهو يقول في حنق :

ـ المفترض أن ألقى أنا هذا السؤال يا سيِّدى .

أشار إليه (هاشم) في صرامة ، وهو يقول :

ـ لقدْ حاولت قتلى .

هتف المفتش (رضوان) :

ـ قتلك ؟! لا ريب أنك قد أخطأت الفهم .

قال (هاشم) ، في حدة :

ـ هكذا ؟! ماذا تطلقون إذن على ناتج إطلاق الرصاص على رأس رجل ؟

التفت المفتش (رضوان) إلى (فائز) ، وسأله :

ـ هلْ حاولت إطلاق النار على رأسه حقًا ؟

أجابه (فائز) دون موارية :

ـ كان هذا رد فعل طبيعيًا يا سيِّدى ، فلقد رأيتُ هذا الشخص يُغادر حجرة الخزائن السريَّة ، التى لا يحق دخولها إلا لك و لـ (عادل) ولى ، وعندما رفعت مسدسى في وجهه ، كاد يهاجمنى ، فلم يكن أمامى سوى .....

قاطعه المفتش (رضوان) في حدة :

ـ هذا يكفى .

ثم التفت إلى (هاشم) ، وقال :

ـ هأنتذا ترى أنه أمرٌ غير مقصود .

رمق (هاشم) (فائز) بنظرة صارمة ، وهو يقول في غموض :

- ربما .

تجاهل (فائز) مغزى نبرة (هاشم) ، والتفت إلى رئيسه ، يسأله :

- ماذا حدث بالضبط ؟

جفف المفتش (رضوان) عرقًا وهميًا عن جبينه ، وهو يقول :

- لقد سرق أحدهم محتويات الخزانة رقم (صفر) .

هتف به (فائز) :

- سرق ماذا ؟ إنها تحوى كتاب الشفرة السريّة .. أخطر أسرارنا .

وعلى الرغم من الدهشة التى تملأ كل سنتيمتر من وجه (فائز) ، إلا أن موقف هذا الأخير بدا لـ (هاشم) مفتعلاً ، حتى إنه قال فى برود :

- هل أدهشك هذا حقًا ؟

استدار إليه (فائز) فى غضب ، هو يقول :

- هل تتهمنى بخيانة شرف منصبى ؟

قال (هاشم) بنفس البرود :

- إننى لم أتهم أحدًا بعد .

عقد (فائز) حاجبيه فى غضب ، ثم أدار وجهه إلى رئيسه ، وقال :

- وأين ذهبت أجهزة الإنذار ؟ كان ينبغى أن تعمل كلها ،

فتغلق أبواب الحجرة على السارق ، وتطلق صفارات الإنذار ، و ......

قاطعه رئيسه :

- لم يحدث شيء من هذا .

هتف (فائز) :

- لماذا ؟

أجابه (هاشم) فى صرامة :

- لأن السارق واحد من الثلاثة ، الذين يحق لهم دخول حجرة الأسرار .

صاح به (فائز) فى غضب :

- اسمع يا رجل .. لو أنك تظن نفسك أذكى رجل أمن فى الشرق الأوسط ، فأنت واهم ، ولن نسمح لك بتوجيه الاتهامات إلينا أبدًا .

سأله (هاشم) بغتة :

- أخبرنى أولاً : أين كنت ، خلال الساعة الماضية ؟

صاح (فائز) فى حدة :

- ومَنْ أعطاك الحق فى استجوابى ؟

أجابه المفتش (رضوان) فى توتر :

- أجب عن سؤاله يا (فائز) .. لقد كلفته بالتحقيق فى اختفاء محتويات الخزانة رقم (صفر) .

بدأ الغضب على وجه (فائز) ، ولكنه أجاب :

ـ حسن .. لقد قضيت الساعة الماضية فى حجرتى .. أراجع بعض الملفات القديمة .

سأله (هاشم) :

ـ وأين كان زميلك (عادل) ؟

أجابه على الفور :

ـ يراجع وسائل الأمن .

ابتسم (هاشم) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ كيف عرفت هذا ؟

انتفض (فائز) فى شدّة ، وحدّق فى وجه (هاشم) ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟

ابتسم (هاشم) أكثر ، وهو يقول :

ـ أعنى كيف علمت أن زميلك (عادل) قضى الساعة كلها ، فى مراجعة وسائل الأمن ، فى حين أنك لم تغادر مكتبك طيلة الوقت .

ارتبك (فائز) ، وراح ينقل بصره بين الوجوه ، وكأنما يبحث عن جواب مناسب ، حتى ارتفع صوت (حازم) فى نهاية الممر، يقول :

ـ أنا أخبرته .

التفت الجميع إلى شاب وسيم ، يتجه نحوهم من نهاية الممر ، مستطردًا :

ـ لقد اتصلت به ، بوساطة الهاتف الداخلى ، من حجرة وسائل الأمن ، ووجدته فى حجرته .

هتف (فائز) فى لهفة ، وكأنما أسعده أن يجد هذا الجواب :

ـ هذا ما حدث بالفعل .

نقل (يحيى) بصره بينهما فى شك ، وقد بدا له أنهما يكذبان كذبة واضحة مفضوحة ، فى حين لم يبد (هاشم) اهتمامًا بهذا ، وهو يسأل القادم :

ـ من الواضح أنك (عادل) .. أليس كذلك ؟

أجابه القادم فى برود :

ـ بلى .. هو أنا .

تبادلا نظرة تحد لحظات ، ثم سأله (هاشم) :

ـ هل تعلم أن محتويات الخزانة رقم (صفر) قد سُرقت ؟

عقد (عادل) حاجبيه فى شدّة ، وهتف :

ـ كيف ؟

انفعال (عادل) أيضًا بدا مفتعلاً ، حتى إن (يحيى) شعر ـ فى هذه المرّة ـ أنه ليس من العسير عليه أن يستنتج حل اللغز ، ولقد شعر بمزيج من الدهشة والحيرة ، لأن (هاشم) لم يعلن الحل حتى هذه اللحظة ، ولكنه التزم الصمت ، وسمع (هاشم) يسأل (عادل) :

ـ أأنت خبير بوسائل الأمن هنا ؟

هزّ (عادل) رأسه نفيًا ، وقال :

- لا .. ولكننى المسئول عن فحصها ومتابعتها .

صمت وهلة ، ثم أضاف فى حزم :

- ويمكننى أن أؤكد استحالة سرقة محتويات أية خزانة سريَّة ، وبالذات الرقم (صفر) ، دون تشغيل أجهزة الإنذار ، والتقاط صورة السارق .

قال (هاشم) فى اهتمام :

- ولكن هذا لم يحدُث .

بدا الارتياح بغتة على وجه المفتش (رضوان) ، مما أثار دهشة (يحيى) الذى أدار الأمر فى ذهنه بسرعة ، ثم اتسعت عيناه ، وبرقتا ببريق الظفر ، وعجز عن التزام الصمت هذه المرة ، وهو يهتف :

- ولكنها فعلت .

التفت إليه الجميع فى دهشة ، وسأله المفتش (رضوان) :

- مَنْ هى تلك التى فعلت ؟ وفعلت ماذا ؟

أشار إلى حجرة الخزائن السريَّة ، وهو يقول فى انفعال :

- الخزانة فعلتها ، والتقطت صورة السارق ، ولكننا لم ننتبه إلى هذا .

وعقد (هاشم) حاجبيه ، وهو يقول فى حزم :

- حذار أن تتورَّط فى الخطأ يا (يحيى) .

إلا أن (يحيى) واصل هتافه فى انفعال :

- لقد كشفت الخزانة صورة السارق ، وتصورّنا نحن أنُّها لم تفعل .

هتف به المفتش (رضوان) فى توتر :

- ماذا تقصد ؟

التفت إليه (يحيى) فى حزم ، وهو يقول :

- أقصدُ أن الحقيقة كانت واضحة منذ البداية يا كبير المفتشين .. إن سارق كتاب الشفرة ، منَ الخزانة رقم (صفر) هو .....

وأشار إلى المفتش (رضوان) نفسه ، مستطردًا فى صرامة :

- أنت .

واتسعت العيون كلها فى دهشة ..

★ ★ ★

حدَّق الجميع فى وجه (يحيى) فى دهشة واستنكار ، فيما عدا (هاشم) ، الذى اكتفى بمط شفتيه ، وهو يقول فى خفوت :

- يا له من استنتاج !

أما المفتش (رضوان) فقد صاح فى وجه (يحيى) فى غضب :

- كيف تتهمنى بأمر كهذا أيُّها الشرطى ؟! أتجهل مَنْ أنا ؟

اندفع (يحيى) يقول :

- أنا لا أتهم أحدًا .. الدلائل هِىَ التى تتهم .. راجع معى الموقف كله ، وستجد أننى على حق .. لقد سرق شخصٌ ما محتويات الخزانة رقم (صفر) ، دون أن تعمل ، أو تنطلق

أجهزة الإنذار ، مما يؤكّد أن السارق هو شخص معروف للكمبيوتر الأمنى ، ويتحرك فى ثقة ، بحيث لا يثير انتباه إليكترونيات الحراسة ، بل ويحفظ الأرقام السريّة لفتح الخزانة ، دون أن يتردّد فى رقم واحد ، من تسعة أرقام ، ولا يوجد فى الكون كله سوى ثلاثة ، يمكنهم فعل هذا ، وعندما فحصنا آلة التصوير السريّة داخل الخزانة ، وجدناها قد التقطت صورة واحدٍ منهم ، وهو أنت يا سيّدى ، ولقد حاولت إيهامنا بأن هذه الصورة قد التقطت لك ، وأنت تفتح الخزانة فى وجودنا ، فى حين أنها صورتك وأنت تسرق الوثائق السرية ، و .....

قاطعه (هاشم) فى هدوء :

ـ وأين ذهبت صورته الثانية ؟

التفت إليه (يحيى) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ ماذا تقصد ؟

هزّ (هاشم) رأسه ، وقال :

ـ أقصد أنه ما دامت الخزانة تلتقط صورة لكل مَنْ يفتحها ، فقد كان من المحتّم أن تلتقط الخزانة صورة المفتش (رضوان) مرتين .. مرة وهو يسرق الخزانة ـ حسب قولك ـ والأخرى وهو يفتحها فى وجودنا .

هتف (يحيى) فى غضب ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجه المفتش (رضوان) :

ـ ماذا تعنى بهدمك نظريتى يا (هاشم) ؟ أنت تعلم مثلى أن هذا الرجل هو السارق وأنّ .....

قاطعه (فائز) فى غضب :

ـ يبدو أنك تحتاج إلى درس قاس يا رجل .

ولم يكد يتمّ جملته ، حتى اندفعت قبضته تلكم (يحيى) فى أنفه ، ولكن قبضته استقرّت فى راحة (هاشم) ، الذى هتف فى غضب صارم :

ـ لن أسمح لك بلكم زميلى .

انقضّ عليه (عادل) بغتة ، صائحًا :

ـ ولا أنا .

كان من الواضح أن الأمر سيتحوّل إلى قتال يدوى ، فى قلب مركز تدريب رجال الأمن ، إلا أن (هاشم) لم يكن يرغب فى هذا ، لذا فقد مال جانبًا فى رشاقة ، وترك (عادل) يتجاوزه فى انقضاضه ، ثم دفعه بمرفقه ، ليختل توازن (عادل) ، ويسقط أرضًا ، فى حين قبض على قبضة (فائز) المضمومة ، ولوى ذراع هذا الأخير خلف ظهره ، ثم انتزع مسدس (فائز) فى حركة سريعة ، ودفع (فائز) نفسه بعيدًا ، فهتف به المفتش (رضوان) :

ـ حذار يا (هاشم) .. إنك بهذا تخل بنظم الأمن .

ابتسم (هاشم) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟!

ثم رفع مسدس (فائز) فى وجه المفتش (رضوان) مستطردًا :

- ما رأيك برصاصة واحدة ؟

عقد المفتش (رضوان) حاجبيه ، وهو يتطلَّع إلى (هاشم) فى صمت فى حين وقف (فائز) حائرًا ينقل بصره بين وجهى (هاشم) والمفتش (رضوان) ، ونهض (عادل) من سقطته ، يقول فى توتر عصبى :

- هل أصابك الجنون يا (هاشم) ؟ إنك تصوِّب مسدسك إلى كبير المفتشين !!

ابتسم (هاشم) فى استهتار ، وهو يقول :

- هل سيختلف الأمر كثيرًا ، لو أطلقت النَّار على رأسه ؟

سرت ارتجافة قويَّة فى جسد (يحيى) ، وتطلَّع إلى زميله (هاشم) فى حيرة ، وهو يتساءل عما أصاب هذا الأخير ، فى حين ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى المفتش (رضوان) وهو يقول :

- هل تجرؤ حقًّا على إطلاق النار ؟

قال (هاشم) فى هدوء :

- وبلا تردُّد .

هتف به (يحيى) :

- (هاشم) !! إنها أول مرة أراك فيها .....

قاطعه المفتش (رضوان) ، وهو يسأل (هاشم) فى اهتمام :

- هل تثق بهذا تمامًا ؟

أجابه (هاشم) بكل الحسم :

- تمام الثقة .

ثم أشار إلى الحائط المجاور له ، مستطردًا :

- وهذا هو الدليل .

بدت الحيرة على وجه (يحيى) ، وهو يتابع هذا الحوار الغامض ، وخاصة عندما ابتسم المفتش (رضوان) ، وقال فى هدوء :

- حسن .. أطلق النَّار .

وفى هدوء أكثر ، رفع (هاشم) مسدس (فائز) وصوَّبه إلى جبهة المفتش (رضوان) ..

وأطلق النَّار ..

وانتفض جسد (يحيى) فى قوَّة ، مع دوى الرصاصة ، واتسعت عيناه فى رعب ، وهو يحدِّق فى وجه المفتش (رضوان) ، الذى حافظ على ابتسامته الهادئة ، دون أن يبدو أدنى أثر للإصابة فى جبهته ، وهو يقول :

- رائع يا (هاشم) .. أهنئك .

وهنا تضاعفت حيرة (يحيى) ودهشته ، عندما أطلق (عادل) ضحكة عالية ، وقال :

- تمامًا كما أخبرتنا عنه يا سيِّدى .

هتف (يحيى) فى حنق :

ـ هل لأحدكم أن يخبرنى ماذا يحدث هنا ؟

التفت إليه (هاشم) ، وقال مبتسمًا ، وهو يعيد المسدس إلى (فائز) :

ـ (صفر) يا صديقى العزيز .. كل شىء فى هذه القضية يساوى صفرًا .. الرصاصات الفارغة ، الخزانة الخاوية .. وكذلك القضية نفسها .

هتف (يحيى) فى توتر عصبى :

ـ رائع .. والآن ما معنى كل هذا ؟

ابتسم (هاشم) ، وهو يربت على كتفه ، قائلاً :

ـ سأشرح لك كل شىء يا صديقى .. الواقع أن هذه القضية تبدو محيِّرة منذ البداية ، فالشىء المسروق عبارة عن شفرة سريَّة ، المفترض ألا يعلم بوجودها سوى ثلاثة ، هم فى الواقع موضع ثقة ، على نحو لا ينبغى أن يتطرَّق إليه الشك .. ووسائل الأمن تؤكد أنه من المحتم أن يكون السَّارق أحدهم ، وفى الوقت ذاته يبدى اثنان منهما عدم اهتمام مناسبًا بالحدث ، أو باختفاء الوثائق ممَّا يضع أمامنا احتمالين لا ثالث لهما .. إما أن الثلاثة قد اشتركوا فى سرقة محتويات الخزانة رقم (صفر) ، أو أن كل القضية عبارة عن لعبة .

هتف (يحيى) فى دهشة :

ـ لعبة ؟!

أجابه (هاشم) مبتسمًا :

ـ نعم يا صديقى .. فلو أنه من غير المقبول أن يُقدم رجل أمن ، تم اختباره ودراسة شخصيَّته جيِّدًا ، على سرقة شفرة تهدِّد أمن الجهة التى ينتمى إليها ، فمن المستحيل أن يتفق ثلاثة من أخطر رجال الأمن على هذا ، ممَّا يضع أمامنا الاحتمال الثانى ، وهو أن الأمر كله عبارة عن اختبار ، أو لعبة جديدة ، يتمّ وضعها أمام كل قادم إلى مركز التدريب .

قال المفتش (رضوان) فى هدوء :

ـ بل أمام من نتوسَّم فيهم خيرًا فحسب .

أكمل (هاشم) :

ـ النقطة الوحيدة التى لم تكن تتفق مع هذا ، هى أن (فائزًا) قد أطلق النار علىَّ ، ممَّا أثار حيرتى ، حتَّى انتبهت إلى أن رصاصته ، التى تجاوزتنى ، لم تترك أثرًا فى الحائط ، كما ينبغى أن يحدث ، وهنا استقامت الأمور كلها فى ذهنى ، وأدركت حلّ لغزِ الرقم (صفر) كلّه .

ابتسم (فائز) فى إعجاب ، وقال :

ـ عبقرى .. تمامًا كما أخبرونا عنك .

احتقن وجه (يحيى) خجلاً ، وهو يغمغم :

ـ إذن فقد أخطأت أنا ، عندما اتهمت المفتش ..

قهقه المفتش ضاحكًا ، وهو يقول :

- اطمئن .. هذا لن يمنعنا من إلحاقك بمركز التدريب كدارس ، ولكنه قد يصنع فارقًا كبيرًا مع (هاشم) ..

ثم التفت إلى (هاشم) وابتسم مستطردًا :

- فمستقبله لدينا معلمًا .

مدّ (هاشم) يده يصافحه ، قائلاً :

- اتفقنا .

وربح مركز تدريب رجال الأمن أستاذًا قديرًا .. وعبقريًا ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

اختطـــاف ..

أطلق (هاشم همام) ، رجل الأمن العربى ، من بين شفتيه صفيرًا مرحًا منغومًا ، وهو يجفّف وجهه بمنشفته ، بعد أن انتهى من حلاقة ذقنه ، واتجه إلى حجرة نومه ، ليرتدى ثيابه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو ينتقى قميصًا فضفاضًا ، ذا ألوان زاهية ، وقال لنفسه :

- حان الوقت لتنسى أنك رجل أمن يا (هاشم) .

كان يشعُر بالكثير من السّعادة والارتياح ، لأنه حصل ، ولأول مرة منذ زمن بعيد ، على إجازة طويلة ، قرّر أن يقضيها فى جزر (هاواى) ، حيث الشمس الساطعة ، والشواطئ الواسعة .

وعندما ارتدى قميصه الزاهى الألوان ، وسرواله الأمريكى الأزرق ، لم يتمالك نفسه من الابتسام مرة أخرى ، وهو يتطلّع إلى هيئته فى المرآة ، إذ بدا شكله - فى نظره - عجيبًا ، غير مألوف ، مما دعاه إلى أن يتمتم :

- يا إلهى ! من حسن الحظ أن أحدًا من رجال الإدارة لن يرانى على هذه الصورة .

التقط حقيبته ، وتأكّد من وجود جواز سفره ، وتذاكر الطائرة داخلها ، ثم لوّح بكفه ، وهو يقول :

- إلى اللقاء يا منزلى العزيز .. أراك بعد أسبوعين كاملين على الأقل ..

اتجه إلى باب منزله ، وفتحه ، و ..

وتوقَّف مبهوتًا ..

كان أمامه زميله (يحيى) ، ويده تكاد تضغط جرس الباب ..

ولم يكد (يحيى) يراه أمامه ، حتى حدَّق فى زيِّه لحظة ، جعلت (هاشم) يقول فى حرج :

- إحم .. كنت أستعدّ للسفر ، و ..

قاطعه (يحيى) ، فى لهجة توحى بأهمية وخطورة الأمر :

- لقد أُلغيت إجازتك ، والمدير يطلبك فى الإدارة على الفور .

ردّد (هاشم) فى دهشة :

- أُلغيتْ إجازتى .. ولكن ..

جذبه (يحيى) من ذراعه ، قائلاً :

- هيَّا .. لا وقت لدينا .

قاوم (هاشم) جذبة صديقه ، وقال :

- سأبدِّل ثيابى أوّلاً .

هتف (يحيى) :

- قلت لك : لاوقت لهذا .. المدير يُريدك بأسرع وقت ممكن .

تردّد (هاشم) لحظة ، وهو يتخيّل نفسه سائرًا بين أروقة الإدارة ، فى قميص فضفاض ، مزركش ، وسروال رعاة البقر الأمريكيين ، ثم لم يلبث نداء الواجب أن غلب تردّده فألقى حقيبته ، قائلاً فى حزم :

- هيَّا بنا .

لم يمض ربع الساعة ، حتى كان يقف أمام رئيسه ، الذى ألقى نظرة دهشة على ثيابه ، ثم تجاهل أمرها فى سرعة ، وقال فى قلق واضح :

- قُل لى يا (هاشم) : هل بلغك أمر زيارة ذلك الأمير الإفريقى الصغير لبلدنا ؟

أجابه (هاشم) :

- نعم .. بلغنى أنه راع لحركة الكشَّافة فى موطنه ، وأنه هنا بدعوة من جمعية الكشَّافة الوطنية .. و ..

قاطعه المدير :

- لقد تمّ اختطاف الأمير ..

ارتفع حاجبا (هاشم) ، وهو يهتف بكل الدهشة :

- تم اختطافه ؟! كيف ؟ لقد أعددنا برنامجًا أمنيًا لحمايته ، و ...

هزّ المدير رأسه فى أسف ، وقال :

- على الرغم من هذا البرنامج ، تمكَّن أحد المجرمين من انتحال شخصية صحفى ، من المسئولين عن تغطية زيارة الأمير الصغير ، وفوجئ به طاقم الأمن ينقضّ على الأمير ، ويلصق فوهة مسدسه برأسه ، ويصرخ مؤكدًا أنه سيقتله ، لو حاول أىّ مخلوق الاقتراب منه ، وطلب إحضار سيارة ، استقلّها مع الأمير ، وفرّ أمام سمع وأبصار الجميع ، دون أن

يجرؤ رجل واحد من رجالنا على اعتراضه ، خوفًا على حياة الأمير .

سأله (هاشم) :

ـ ألم تتبعه إحدى سياراتنا ؟

هزّ المدير رأسه نفيًا مرة ثانية ، وقال :

ـ لقد هدّد بقتل الأمير أيضًا ، لو تتبّعه أحد ، ثم انطلق بسرعة كبيرة ، وعثرنا بعد نصف ساعة على سيّارته خالية ، ولا أحد يدرى أين ذهب بالأمير .

بدا التوتر على وجه (هاشم) وهو يقول :

ـ وما مطالبه ؟

أجابه المدير :

ـ عشرة ملايين دولار عدًا ونقدًا ، فى حقيبة كبيرة ، يحملها شخص محدّد بالذات .

سأله (هاشم) فى اهتمام :

ـ ومن هذا الشخص ؟

رفع المدير عينيه إليه ، وقال :

ـ أنت .. إنه يصرّ على أن تحمل إليه أنت بنفسك حقيبة الفدية .

مطّ (هاشم) شفتيه ، وقال :

ـ كنت أتوقّع هذا .. ومتى يتمّ التسليم ؟

أشار المدير إلى الهاتف ، وقال :

ـ إننا ننتظر مكالمته ، لتحديد الزمان والمكان ، و ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين الهاتف ، فاختطف المدير سمّاعته فى لهفة ، وقال :

ـ هنا إدارة الأمن .. من المتحدّث ؟

بدا التوتر على وجهه وهو يستمع إلى محدّثه ، فغمغم (يحيى) :

ـ إنه هو ..

مدّ المدير يده بالسمّاعة إلى (هاشم) ، قائلاً :

ـ إنه يطلب التحدّث إليك شخصيًا .

التقط (هاشم) السمّاعة ، ووضعها على أذنه ، قائلاً :

ـ أنا (هاشم همام) .

خُيّل إليه أنه يسمع تنهيدة ارتياح من الطرف الآخر ، قبل أن يقول صوت حادّ :

ـ أخيرًا .. وأنا (علوان صالح) .. هل تذكرنى ؟

لم يكن (هاشم) يذكر الاسم ، وإن بدا له مألوفًا بعض الشىء ، فقال :

ـ ليس تمامًا .

قال صاحب الصوت :

ـ بالطبع .. فمن السهل على القاتل أن ينسى ضحيته ، ولكن من العسير أن يحدث العكس .

التقى حاجبا (هاشم) ، وهو يفكّر فى معنى العبارة ، ولكن

الرجل لم يمهله ، وإنما تابع فى سرعة ، وقد اكتسبت لهجته شيئًا من الشراسة :

– اسمعنى جيدًا ، يا أشهر رجال الأمن فى المنطقة .. أريد منك أن تحمل إلىّ حقيبة النقود ، وأن تلتقى بى فى الحديقة العامة ، بعد ربع الساعة فقط .

هتف (هاشم) :

– ربع الساعة ؟! ولكن هذا لا يمنحنى حتى الوقت لـ ..

صرخ الرجل يقاطعه فى قسوة :

– ربع الساعة ، أو أذبح الأمير الصغير بلا رحمة .

وقطع الاتصال ..

وفى توتر بالغ ، هتف (هاشم) :

– إنه مجنون حتمًا .. يطلبُ النقود فى الحديقة العامة ، بعد ربع الساعة فقط .

هبَّ المدير من خلف مكتبه ، وهو يقول :

– فلتسرع إذن .. ها هى ذى حقيبة النقود .. لقد أعددناها بالفعل .

اختطف (هاشم) حقيبة النقود ، وانطلق يعدو خارج مكتب المدير ، وعبر ممرّ الإدارة الطويل ..

مجنون هذا المختطف حتمًا ..

إنه يعلم أن المسافة ، من الإدارة إلى الحديقة العامة ، تحتاج حتمًا إلى وقت أكثر من هذا ..

مجنون هو ولا شك ..

وقفز (هاشم) داخل سيارته ، وضغط دوّاسة الوقود بأقصى قواه ..

وانطلق ..

كان ينطلق بضعف السرعة المسموح بها داخل المدينة ، ولكنه كان يعلم أنه لا يوجد حل سوى هذا ..

وأثارت سيارة (هاشم) بسرعتها الفائقة ، ذعرًا لا مثيل له ، بين المارة والسائقين ، وهى تنطلق بهذه السرعة ، وتتجاوز إشارات المرور ، والطرق المغلقة .. بل وتمتد بها الأمور إلى عبور طرق عكسية ، حتى إن أحد رجال المرور قد انطلق خلف السيّارة بدرّاجته البخارية ، ولكنه عجز عن اللحاق بها ، حتى أوقفها (هاشم) ، بهذا الصرير المزعج ، أمام الحديقة العامة ، قبل دقيقة واحدة من انتهاء المهلة الممنوحة ..

وصاح رجل المرور بـ (هاشم) :

– أأنت مجنون يا رجل ؟

هتف به (هاشم) ، وهو يعدو نحو الحديقة ، حاملاً الحقيبة الصغيرة :

– بل زميل يا رجل .. زميل فى مهمّة عسيرة ..

سقط فكّ الشرطىّ ، وهو يردّد فى دهشة :

– زميل ؟!

أما (هاشم) فقد راح يلهثُ فى شدّة ، من فرطِ الانفعال ،

وهو يدير عينيه حوله فى الحديقة .. باحثًا عن ذلك المختطف ..
لقد وصل فى الوقت المناسب ..
إنه واثق من هذا ..
ولكن أين الرجل ؟
راح يتطلع إلى أركان الحديقة ، التى امتدّ فوقها ظلٌ ضخم ، لتلك البناية الهائلة الشهيرة ، المواجهة لها ، بحثًا عن ذلك المختطف المجهول ، وتوتره يتصاعد فى كل لحظة ..
ومضت الثوانى ، والدقائق .. ولم يظهر الرجل ..
خمس دقائق كاملة ، تجاوزت الموعد المحدد ، دون أن يظهر الرجل ..
ثم خمس دقائق أخرى ..
وأخرى ..
وفى كل ثانية تمرُّ ، كان توتُّر (هاشم) يتضاعف ويتضاعف ..
وفجأة سمع صوتًا من خلفه ، يقول :
ـ أأنت (هاشم همام) ؟
التفت فى حركة حادة عنيفة إلى مصدر الصوت ، وتحفّزت كل عضلة فى جسده ، ولكنه لم يلبث أن رفع حاجبيه فى دهشة ، وهو يحدّق فى وجه ذلك الشيخ ، الذى يقف أمامه فى هدوء ، وسأله فى حدة :
ـ من أنت ؟ هل تعرفنى ؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى وقار ، وأجاب :
ـ مطلقًا يا ولدى .. كل ما فى الأمر أن شابًا طلب منى أن أنتظر رجلاً يحمل حقيبة كبيرة ، سيصل إلى هنا فى عجلة وتوتر ، وأن أسلمه هذه الرسالة ، بعد ربع ساعة من وصوله .
قالها وناوله ورقة مطوية ، اختطفها (هاشم) من يده فى لهفة ، وفضّها ليقرأ فيها عبارة قصيرة ، تقول :
ـ سنلتقى عند النافورة التذكارية ، بعد عشر دقائق .
هتف (هاشم) :
ـ النافورة التذكارية ؟!
أجابه الشيخ :
ـ نعم يا ولدى .. ألا تعرفها .. إنها فى مواجهة الأبراج السكنية الجديدة تمامًا ، و ..
لم ينتظر (هاشم) ليسمع باقى العبارة ..
كان يعلم أن الوصول إلى النافورة التذكارية ، فى الزمن المطلوب ، يحتاج منه إلى كل لحظة ، وإلى التحرك بسرعة تفوق حتى سرعة التفكير نفسها .
وربما كان هذا هو هدف المختطف ..
إثارة التوتر والارتباك .
طرح (هاشم) كل هذه الأفكار جانبًا ، وقفز داخل سيارته ، ورجل المرور يقول فى صرامة :
ـ لقد نزعتَ لوحات سيارتك ، فحتى لو كنت رجل أمن ، لا يحق لك تحطيم قواعد السير والمرور ، و ..

فوجئ بـ (هاشم) ينطلق فجأة بالسيّارة ، متجاوزًا قواعد المرور مرة أخرى ، فهتف فى غضب :

ـ لا بدّ من احترام قواعد المرور .

ولكن (هاشم) لم يسمعه ..

كان كل ما يشغل باله هو أن يبلغ النافورة التذكاريّة فى الوقت المناسب ..

وكان يعلم أن خصمه رجل مجنون ، وهو لا يحبّ منح أمثاله فرصة تحقيق مآربهم ..

ها هو ذا يقترب من موقع النافورة التذكارية ، قبل نهاية الموعد .. يكفى أن ينعطف يمينًا ، عند الناصية التالية ، ليبلغ ميدان النافورة ، و ..

وفجأة ظهرت تلك السيارة عند الناصية ..

وكان من المستحيل تفادى الاصطدام ..

من المستحيل تمامًا ..

★ ★ ★

أعاد (يحيى) سمّاعة الهاتف إلى موضعها ، وهو يقول للمدير فى توتّر :

ـ لقد فقد رجالنا أثر (هاشم) .

هتف المدير فى ذعر :

ـ فقدوه ؟! كيف ؟ ألم نبلغهم بضرورة محاصرة الحديقة العامة ، و ...

قال (يحيى) فى اضطراب :

ـ إنه ليس فى الحديقة .. لم يعُد هناك .

حدّق المدير فى وجهه بدهشة ، قبل أن يسأله :

ـ ولماذا تركها دون إبلاغنا ؟

هزّ (يحيى) رأسه أسفًا ، وقال :

ـ لا أحد يعلم .. ولكن أحد رجالنا يقول إنه شاهد (هاشم) يتحدّث مع شيخ عجوز ، وأن هذا الشيخ قد سلّمه رسالة ما ، لم يكد (هاشم) يقرؤها ، حتى انطلق نحو سيارته ، وابتعد عن المكان بسرعة مدهشة ، جعلت رجالنا يعجزون عن تتبّعه .

صاح المدير :

ـ ولِمَ لمْ يلق الرجل القبض على ذلك الشيخ ؟

أجابه (يحيى) :

ـ لقد فعل ، وحاول استجوابه ، ووجد أنه لا يعلم شيئًا عن محتويات الورقة ، التى احتفظ بها (هاشم) معه ؛ ولهذا نجهل أين ذهب هذه المرّة .

بدا الضيق فى وجه المدير وصوته ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن هذا المجرم يسعى لإرباكنا ، وإثارة توتّرنا وحيرتنا ، عن طريق تغيير الموعد والمكان باستمرار .

قال (يحيى) فى لهجة تحمل قدرًا هائلاً من التوتّر والقلق :

ـ إنه يسعى لأن نفقد أثر (هاشم) .

لوّح المدير بكفه ، وقال :

- هذا أمر طبيعى ، فهو يحاول الحصول على الفدية ، دون أن يقع فى أيدينا .

قال (يحيى) :

- وربّما كان هناك هدف ثان .

سأله المدير فى حذر :

- مثل ماذا ؟

أجابه (يحيى) فى اضطراب :

- أن ينفرد بـ (هاشم) ، و ...

صمت لحظة ، ثم أضاف فى صوت ارتجف كل حرف من حروفه :

- ويقتله ..

★ ★ ★

لم يكن هناك مفرّ من الاصطدام ..

كان (هاشم) ينطلق بأقصى سرعة ، والسيّارة الأخرى تعترض طريقه ، و ..

وأدار (هاشم) عجلة القيادة إلى اليسار ، محاولاً تفادى الاصطدام ..

وانحرفت سيّارته فى عنف ، فى حين توقّفت السيّارة الأخرى ، وإطاراتها تُطلق صريرًا عنيفا ومخيفا ..

يبدو أن (هاشم) سيتفادى ذلك الاصطدام المروع ..

لقد تجاوزه بالفعل ..

لا ..

كان حلمًا أجمل من أن يتحقّق ..

لقد كاد (هاشم) يتجاوز الاصطدام بالفعل ، بذلك الانحراف العنيف إلى اليسار ، ولكنّ الجزء الأيمن من مقدّمة سيّارته ارتطم بالجانب الأيسر من مقدّمة السيارة الأخرى فى عنف ..

وقفزت سيارة (هاشم) فى الهواء ..

قفزت على نحو جعلها أشبه بطائرة صغيرة ، حلّقت لحظات فى الهواء ، وسط مزيج من شهقات الفزع ، وصرخات الرعب ، قبل أن ترتطم بالأرض فى عنف ، وتنقلب على ظهرها ، وهى تنزلق نحو النافورة التذكارية ..

وتوقّفت السيارة على بعد متر واحد من النافورة ، وقد تهشّم زجاجها الأمامى ، وتحطّمت مقدمتها ، وانبعج سقفها على نحو مخيف ، وهتف بعض المارة ، وهم يندفعون نحو السيّارة المحطّمة ، فى محاولة لإنقاذ سائقها :

- أنقذوا السائق بسرعة .. قد تنفجر السيّارة .

وقال البعض الآخر فى توتر :

- هذا لو أنه على قيد الحياة .

وفى هذه اللحظة ظهر (هاشم) من بين الحطام ..

ظهر متهالكًا ، مصابًا بجرح فى جبهته ، وقد تمزّق قميصه المزركش ، وسرواله الأمريكى ، وهو يجذب حقيبة النقود خارج السيّارة ، وهتف به أحد المحيطين بالسيّارة ، وهو يعاونه على الخروج :

ـ أأنت بخير ؟

أجابه (هاشم) :

ـ ما دمت قد وصلت فى موعدى ، فأنا فى خير حتمًا .

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، وهو يتراجع ، فى حين اندفع شرطى الميدان نحو (هاشم) ، وقال وهو يتطلع إلى جرح جبهته :

ـ سأطلب سيارة إسعاف .

قال (هاشم) ، وهو يحمل الحقيبة الثقيلة ، ويتجه بها نحو النافورة فى حزم :

لن يكون هناك وقت لهذا .

فربما أتصرف فى أية لحظة .

هتف الشرطى :

ـ تتصرف ؟! لا يمكنك الانصراف ، قبل وصول رجال الشرطة .

لوّح (هاشم) بكفه ، وهو يقول :

ـ إننى أحدهم يا رجل .. أخبرهم فقط أنّ (هاشم همام) كان هُنا ، وسيُدركون كل شىء .

هتفت طفلة صغيرة فى هذه اللحظة :

ـ أأنت هو (هاشم همام) ؟

التفت إليها (هاشم) ، يسألها فى لهفة :

ـ نعم .. أنا هو يا صغيرتى .. هل طلبَ منك شخص ما إبلاغى رسالة خاصة ؟

أومأت برأسها الصغير إيجابًا ، وقالت :

ـ نعم .. إنّه شخص مخيف ، ولكنّه منحنى قطعة كبيرة من (الشيكولاتة) ، وطلب منّى إبلاغك هذه الرسالة ، ولكن ..

تردّدت لحظة .. فأمسك (هاشم) كتفها ، وهو يقول :

ـ ولكن ماذا يا صغيرتى ؟ هل طلب منك إبلاغى الرسالة ، بعد فترة ما ؟

أومأت برأسها إيجابًا مرة أخرى ، وقالت :

ـ نعم .. لقد طلب منّى إبلاغك هذه الرسالة بعد خمس دقائق من وصولك ، لو أنك ..

لو أنك ..

ردّدت الجزء الأخير فى تردّد ، فسألها (هاشم) :

ـ لو أننى ماذا ؟

تطلّعت إلى وجهه لحظة ، قبل أن تجيب :

ـ لو أنك على قيد الحياة .

تراجع فى حركة حادة ، ملؤها الدهشة والحيرة ، والصغيرة تضيف :

ـ هل كان يعلم أنك ستتعرّض لحادث سيّارة ؟

انعقد حاجبا (هاشم) ، وهو يدرس الأمر فى عمق ، قبل أن يغمغم :

ـ لا يا صغيرتى .. لم يكن يعلم .

ثم عاد ينحنى ، نحوها ، ويسألها فى اهتمام :

- وما الرسالة ، التى طلب منك إبلاغى إياها ؟
ازدردت لعابها فى سرعة ، وقالت بلهفة طفولية :
- قال : إنه سينتظرك أمام ملعب الكرة الرئيسى .. بعد ربع الساعة .
اعدل (هاشم) ، قائلاً :
- ملعب الكرة الرئيسى .. المواجه للبرج الإعلانى .. أليس كذلك ؟
قالت فى سعادة ، وهى تصفق بكفيها الصغيرتين جذلاً :
- إنه هو .. أنا أعرفه جيدًا .
توقف شرطى المرور إلى جوارهما ، فى هذه اللحظة ، وتقدم نحو (هاشم) ، قائلا فى لهجة تحمل شيئا من الشماتة :
- كنت أعلم أن سيارتك ستلقى هذا المصير .. إنك سعيد الحظ لكونك على قيد الحياة ، و ...
قاطعه (هاشم) بغتة :
- سأستعير دراجتك البخارية أيها الشرطىّ .
فغر الشرطىّ فاه ، من فرط الدهشة ، وهو يهتف :
- دراجتى البخارية ؟!
اتجه (هاشم) نحو الدراجة البخارية وهو يقول فى حزم ، مبرزًا بطاقته الأمنية :
- نعم .. باسم العدالة ..
ظلّ الشرطى فاغرًا فاه فى دهشة بالغة ، و(هاشم) يثبت الحقيبة فوق الدراجة الآلية ، ثم يعتلى متنها ، قائلاً :

- لا تقلق يا رجل .. سأبذل قصارى جهدى للمحافظة عليها .
وانطلق بالدراجة كالصاروخ ، متجهًا نحو الموقع الجديد .. ونحو مصيره المجهول ..

★ ★ ★

بدا ملعب الكرة الرئيسى خاليًا تمامًا ، فى ذلك اليوم ، حيث لم تكن هناك أية مباريات رياضية معدّة أو منتظرة ، وجال المختطف بمنظاره المقرّب فى المكان ، ثم لم يلبث بصره أن توقّف عند بوّابة الملعب الكبيرة ، وهو يقول لنفسه :
- لا ريب أننى قد أرهقتك تمامًا يا (هاشم همام) ، فها أنتذا تتأخّر عن موعدك نصف دقيقة لأول مرّة ، منذ بدأت اللعبة .
وأزاح المنظار عن عينيه ، ليلتقط بندقية مزوّدة بمنظار آخر ، وهو يضيف :
- ولكن اطمئن يا رجل .. لن تكون هناك مواعيد أخرى .. هذه هى المحطّة الأخيرة .
أسند كعب البندقية إلى كتفه ، وصوّبها إلى بوّابة الملعب ، وهو يلصق عينيه بالمنظار المقرّب ، مستطردًا :
- رصاصة واحدة فى منتصف جبهتك ، وينتهى كل شىء أيها النابه .
انتظر الرجل بعض الوقت ، وهو يراقب بوّابة الملعب ، عبر منظار بندقيته ، قبل أن يقول فى عصبية :
- ماذا دهاك يا رجل الأمن ؟ كيف تأخّرت هذه المرّة ؟ اظهر يا رجل .. اظهر .. اظهر ..

أتاه صوتٌ من خلفه ، يقول فى هدوء :

ـ هأنذا .

انتفضت الدماء فى عروق الرجل ، وهو يلتفت إلى مصدر الصوت فى حركة سريعة ، ثم ارتجفت كل خليّة من خلاياه ، وهو يحدّق فى وجه (هاشم) ، الذى قال :

ـ مفاجأة .. أليس كذلك ؟

نفض الرجل عن نفسه عامل المفاجأة ، فى سرعة يُحسَد عليها ، ورفع فوهة بندقيته نحو (هاشم) ، هاتفًا :

ـ بلى ، ولكنها لن تكون لصالحك .

ولكن (هاشم) لم يكن خصمًا عاديًا .. لقد رأى البندقية ترتفع فى وجهه ، فتحرك إلى الأمام فى سرعة مدهشة ، وقفزت قدمه تركل يدَ الخاطف ، وتطيح بالبندقية من أعلى البرج الإعلانى ..

وهبّ الرجل واقفًا ، وهو يهتف فى غضب :

ـ لن تهزمنى أبدًا .. لن تفسدَ عملى كله .

وانقضّ على (هاشم) فى شراسة ، محاولاً تحطيم أنفه بلكمة قويّة ، ولكن (هاشم) مال جانبًا فى خفّة ، وانحنى فى مرونة ، وترك قبضة الرجل تلكم الهواء ، ليختل توازنه ، ثم اعتدل فى حركة سريعة ، ولكمَ الرجل فى معدته بقوّة ، قائلاً :

ـ ولكنك لن تربح يا رجل .

وأعقب لكمتهُ بأخرى فى فك الخاطف ، مستطردًا :

ـ ما من مجرم يربح أبدًا .

ثم كال له لكمة ثالثة ، حطّمت أسنانه ، وهو يتابع :

ـ العدالة وحدها تربحُ كل المعارك .

سقط الخاطف على وجهه ، وراحت الدماء تنزف من أنفه المحطّم ، وهو يهتف فى ألم وسخط ومرارة :

ـ ولكنك لم تربح بعد يا رجل العدالة .. ما زال الأمير أسيرى .

جذبه (هاشم) من عنقه فى قوة ، ليجبره على الوقوف ، وهو يقول :

ـ ولكنك ستخبرنى بمكانه .

صاح الرجل :

ـ محال .. لقد هزمتنى مرة منذ عدة أعوام ، وتسببت فى سجنى ، ولن أسمح لك بتحقيق انتصار آخر .

أجابه (هاشم) :

ـ نعم .. أذكر ما فعلته بك .. وأذكر الآن من هو المجرم (علوان صالح) .. أتعلمُ لماذا تذكرت هذا أيها المجرم ؟ إنه نفس السبب الذى قادنى إليك .. نمطيتك .. الأسلوب الذى تصرّ على اتباعه فى كل مرّة .. حتى فى جريمتك السابقة .. لستُ أدرى سرّ عشقك للمرتفعات ، ولكن كل جرائمك ترتبط بالأماكن المرتفعة .. كلها بلا استثناء .. لقد ضربت لى فى البداية موعدًا ، فى مواجهة بناية هائلة ، ثم آخر أمام الأبراج السكنية

الجديدة ، وثالثًا أمام البرج الإعلانى .. ولقد أدركت سرّ اهتمامك بهذه الأبراج ، فقد كنت تنتظر لإصابتى برصاصة قاتلة ، فى نهاية المطاف ، من فوق أحد هذه الأبراج ، ولهذا قرّرت ادخار الوقت ، ومقابلتك أعلى البرج مباشرة ، وهأنتذا ترى أننى كنت على حق .

هتف الرجل فى عصبية :

ـ ولكننى أصرُّ على أنك لم تربح بعد .

أطلّت فى عينى (هاشم) نظرة مخيفة ، تفيض بقدرٍ لا حصرَ له من الغضب والصرامة ، وهو يقول للرجل :

ـ أين الأمير ؟

هتف الرجل :

ـ لن تعرف أبدًا .

قال (هاشم) بصرامته المخيفة :

ـ هكذا ؟!

ثم دفع الرجل أمامه نحو حافة المبنى ، فى عنف وشدّة ، جعلا الرجل يضطرب بالفعل ، وهو يقول :

ـ إنك لن تؤذينى .. لن يمكنك أن تفعل ..

ولكن (هاشم) دفعه دفعة قوية ، ألقت به خارج حافة المكان ، فصرخ فى رعب هائل :

ـ لن يمكنك .

وفجأة أمسك به (هاشم) فى قوة ، قبل أن يسقط ، ثم

أعاده بذراع فولاذية إلى السطح ، وهو يتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ هل يُمكننى القيام بمحاولة أخرى ؟

ارتجف الرجل هذه المرّة ، فى رُعب ، وهو يقول :

ـ لا .. لا .. الرّحمَة .

كرّر (هاشم) سؤاله :

ـ أين الأمير ؟

تردّد الرجل لحظة ، فدفعه (هاشم) مرّة أخرى ، جعلته يصرُخ :

ـ فوق بُرج الأمراء .

سأله (هاشم) :

ـ ما بُرج الأمراء هذا ؟

تصبّب عرق غزير على وجه الرجل ، وهو يقول :

ـ إنه بُرج سكنى جديد ، لم يكتمل بناؤه بعد .. لقد وضعته فوق المبنى ، داخل وعاء كبير ، ولكنك لن تستطيع إنقاذه .

سأله (هاشم) فى حدة :

ـ لماذا ؟

لوّح الرجُل بكفيه ، هاتفًا :

ـ هناك قنبلة .. قنبلة ستنفجر بعد اثنتى عشرة دقيقة ، وستنسف الوعاء كله ، وبداخله الأمير .

جذبه (هاشم) من رقبته فى عنف ، صائحًا :

- أيها الحقير .. أين هذا البُرج ؟ أين ؟

ألقى الرجل إليه عنوان البرج ، وهو يرتجف فرقًا ، وأضاف :

- لن تنجح .. الوصول إلى البُرج يحتاج إلى ضعف هذا الوقت .

هوى (هاشم) على فكه بلكمة كالقنبلة ، وهو يقول :

- دعْ لى هذا .

سقط الرجل فاقد الوعى ، فى حين انطلق (هاشم) يعدو بكل سرعته ، ليهبط من البُرج الإعلانى ، ثم قفز فوق الدراجة البخارية ، وانطلق بها فى عنف ، وهو يلتقط مسْماع جهاز اللاسلكى الملحق بها ، هاتفًا :

- (يحيى) .. هل تسمَعُنى ؟ أنا (هاشم) ؟

أتاه صوت يهتف فى لهفة :

- نعم يا (هاشم) .. أسمعك جيدًا .. ماذا فعلت ؟ أين أنت ؟ ماذا حدث ؟

أجابه (هاشم) ، وهو يشق طريقه بين صفوف السيارات فى سرعة مخيفة :

- لقد توصلت إلى المجرم ، وهو فاقد الوعى ، فوق البرج الإعلانى ، المواجه لملعب الكرة الرئيسى .. أرسل بعض الرجال لإلقاء القبض عليه ، وستجد إلى جواره حقيبة الملايين .

هتف صوتُ المدير ، عبر جهاز اللاسلكى :

- والأمير .. ماذا عن الأمير ؟

أجابه (هاشم) :

- أنا فى طريقى إليه .

ثم أنهى الاتصال على الفور ، خشية أن يلقى المدير سؤالاً آخر ، لا يجد له جوابًا ، وواصل انطلاقه بالدرّاجة البخارية ، متجاوزًا ازدحام المرور ، وصاعدًا فوق الإفريز تارةً ، وقافزًا عبره تارة أخرى ، وهو يتطلّع إلى ساعته فى قلق ..

بقيتْ أربع دقائق فحسب ..

وعقرب الثوانى يعدو بسرعة مدهشة ..

ثلاث دقائق بقيت ..

وبلغَ (هاشم) البُرج ، فقفز عن الدرّاجة البخاريّة ، واندفع يصعدُ إلى أعلى البُرج ، عبر درجات السلم الرخامية ..

دقيقتان وتنفجر القنبلة ..

و (هاشم) يعدو .. ويصعَد ..

أنفاسُه تنقطع ..

قلبُه ينبِض فى عنف ..

العَرق يغمُر وجهه ..

والدرجات لا تنتهى ..

لأوّل مرّة يكرهُ تلك البنايات الهائلة ، التى ترتفع عشرات الأمتار ، حتى تكاد تناطحُ السّحاب ..

وبقيت دقيقة واحدة ..

وبدأت أعصاب (هاشم) ترتجِف ، وأطرافُه تعجز عن مواصلة الانطلاق ..

نصفُ دقيقةَ ..

انه سيلقى حتفه حتمًا ..

سينهار ..

ها هو ذا يبلغ السَّطح ، وها هو ذا الوعاءُ هناك ..

وبقَى ربع الدقيقةَ فحسب ..

وبكل ما تبقَّى في جسدِه من قُوَّة ، اندفع (هاشم) نحو الوعاء ، وفَتحَه ، وتطلَّع لحظة إلى الأمير الإفريقى ، المقيَّد داخل الوعاء ، والذى تطلَّع إليه بدوره فى لهفَة ، ثم نقَل (هاشم) بصره إلى القنبلة ، التى تستقرّ إلى جواره ، وقد اقتربت عقاربها من نقطة النهاية ..

عشر ثوان بقيت على موعد الانفجار ..

و(هاشم) يجهَل الوسيلة المثلى ، لإبطال مفعول مثل هذه القنبلة ..

هل ينزع السلك الأحمر ، أم الأخضر ؟

خمس ثوان بقيت ..

ولم يعُد الأمر يحتمل المغامرة ..

وبسُرعة حسم (هاشم) أمرَه ..

إنه لن ينزع أية أسلاك ..

لقد حمل القنبلة كلها ، واندفع بها نحو حافة المبنى ..

ثلاث ثوان تبقت ..

ثانيتان ..

ثانية واحدة ..

وبكل قوته ، ألقى (هاشم) القنبلة بعيدًا فى الهواء ، ثم قفز يحمى وجهه بذراعيه ..

ودوّى الانفجار ..

انفجرت القنبلة فى الهواء ، وهوت شظاياها فوق البنايات المجاورة ، التى لم ينته العمل فيها بعد ..

ولثوان ، ظلّ دوى الانفجار يتردّد فى أذنى (هاشم) ..

ثم ساد الهُدوء ..

هدوء تام ، نهضَ (هاشم) بعدهُ لاهثًا واتجه إلى الوعاء ، وانحنى ينتزع الكمامة عن فم الأمير ، وهو يبتسم فى تهالك ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك فى بلادِنا يا سموّ الأمير .

هتف الأمير الصغير فى لهجة أدهشت (هاشم) :

ـ كانت مغامرة رائعة .. إنها أجمَل رحلَة قُمت بها .

وهُنا لم يتمالك (هاشم) نفسه ، على الرغم من تهالُكه ، فانفجر ضاحكًا ..

وردَّدت المنطقة صدَى ضحكاتِه ..

ضحكات رجُل ظافر ..

رجل العدالة .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

الشــــــــبح ..

« الشبح مرّة أخرى .. »

نطق (يحيى) تلك العبارة فى غيظ ، وهو يلقى مظروفًا ورديًا على سطح مكتبه ، فالتفت إليه (هاشم همام) ، وسأله فى دهشة ، وهو يتطلع إلى المظروف :

ـ أى شبح هذا ؟

أطلق (يحيى) من أعمق أعماقه زفرة حارة ، وهو يجيب :

ـ من حسن حظك أنك تجهل أىّ شبح هذا ، فقد كنت خارج البلاد ، فى الآونة الأخيرة ، وتركتنى وحدى هنا ، أبذل أقصى جُهدى ، للبحث عن شبح مجهول ، دون جدوى .

جلس (هاشم) على المقعد المقابل لمكتب زميله (يحيى) ، وهو يقول فى اهتمام بالغ :

ـ يبدو أن لديك قصّة مثيرة ، بشأن هذا الشبح .. هيّا يا صديقى .. قصّ علىّ الأمر ، وبكل تفاصيله .

تنهّد (يحيى) مرّة أخرى ، واعتدل فى مجلسه ، قائلاً :

ـ لقد بدأ الأمرُ منذُ أسبوعٍ واحد ، عشية سفرِك لحضور مؤتمر رجال الأمن ، إذ تلقى أصحابُ مصنع (بندار) للإليكترونيات ثلاث نسخ فى رسالةٍ واحدة ، يقول صاحبُها إنه سينسف الآلة الجديدة ، التى ابتاعها المصنع مؤخرًا ، مالم

يحصل من أصحابه الثلاثة على مليون دولار دفعة واحدة ، وأضاف وسيلة تسليم المبلغ ، ثمّ وقّع الرّسالة باسم (الشبح) .. وتصوّر أصحاب المصنع أنها خدعة سخيفة ، فتجاهلوا التهديد إلى حد كبير ، وإن أحاطوا الآلة الجديدة بطاقم حراسة خاص ، لحمايتها ، حتّى يحين موعد تركيبها بالمصنع .

رفع (هاشم) سبّابته أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ دعنى أخمّن ما حدث بعدها .. لقد نفذ (الشبح) تهديده .. أليس كذلك ؟

مطّ (يحيى) شفتيه ، وهو يومئ برأسه إيجابًا فى أسف ، قبل أن يقول :

ـ بلى .. ولا أحد يدرى كيف فعل هذا .. لقد انفجر الجزء الحيوى فى الآلة بوساطة قنبلة موقوتة ، قبل تركيبها بيوم واحد ، وعلى الرغم من وجود طاقم الحراسة .

بدا الاهتمام على وجه (هاشم) ، وهو يسأله :

ـ وماذا حدث بعدها ؟

لوّح (يحيى) بكفه ، مجيبًا :

ـ كانت كارثة بالنسبة للمصنع .. الذى يمرّ بضائقة ماليّة ، فأصيب (شاهين) بأزمة قلبية ، وانهار (نافع) ، وكاد (ضيف) ينتحر ، و ...

قاطعه (هاشم) فى اهتمام :

ـ لحظة .. هل (شاهين) و (نافع) و (ضيف) هم أصحاب المصنع الثلاثة ؟

أومأ (يحيى) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. وقرر (نافع) و (ضيف) عدم إبلاغنا ، ولكن (شاهين) اتصل بى سرًا وأبلغنى بكل شىء ، ومنحنى نسخة الخطاب التى وصلته .

التقط (هاشم) الخطاب ، وقرأه فى اهتمام بالغ ثم قال :

ـ المفترض ـ طبقًا للخطاب ـ أن يُرسلوا رجلاً ، إلى الحديقة الكبرى ، حاملاً حقيبة بنيّة ، ذات طراز خاص ، وداخلها الملايين الخمسة ، على هيئة أوراق نقد كبيرة القيمة ، ثم يتركها بجانب الشجرة العجُوز ، فى طرف الحديقة ، عندَ الفجْر تمامًا ، ويرحل .

غمغم (يحيى) :

ـ هذا صحيح .

بدت علامات التفكير العميق على وجه (هاشم) ، قبل أن يسأل (يحيى) :

ـ هل اختاروا الرجُل ، الذى سيحمل الحقيبة ؟

أجابه (يحيى) :

ـ نعم .. سيحملها (ضيف) بنفسه ، فهم يخشوْن إبلاغ أىّ شخص آخر بالأمر ، و (شاهين) يحمل قلبًا ضعيفًا ، كما أن (نافع) عصبىّ وسريع الانهيار ، ولم يعُد هناك سوَى (ضيف) وحدَه .

حركَ (هاشم) رأسَهُ فى بُطء ، ثم قال فى حسم :

ـ فى هذه الحالة لم يعُد أمامَنا سوى مراقبة الشجرة العجُوز بمنتَهى الدِّقة .

وضمَّ قبضته فى قوّة ، مضيفًا :

ـ ونطبق بأيدينا على الشبح .

★ ★ ★

كان الطقس باردًا إلى حدّ كبير ، فجر اليوم التالى ، وعلى الرَّغم من هذا ، ومن دقّة الموقف ، شعَر (هاشم) بشىء من الارتياح ، وهو يتطلع إلى الحديقة الضخمة ، التى انتشر فوق زهورها ضَباب خفيف ، تتكاثف منهُ قطرَات النّدى على أوراق الزُّهور ، فتصنع واحدةً من أعظم لوحات الخالق (عزَّ وجل) ..

وفى توتّر ، نفخ (يحيى) كفيه ، وغمغم :

ـ أتظنُّه سيأتى حقًا ؟

أجابه (هاشم) وهو يراقب الشجرة العجوز بمنظاره المقرِّب :

ـ إنه لن يتنازل حتمًا عن الملايين الخمسة .

كان (يحيى) يُدرك الجواب ، ولكنّه ألقَى سؤاله لتبديد شىء من توتره فحسب ، وعلى الرَّغم من هذا فقد اكتفى بعبارة (هاشم) ، وعاد إلى صمته ثانيةً ، حتى لاحَ ضوء مصباحى سيارةَ من بعيد ، يشق الضّباب الخفيف ، فهتف (يحيى) فى انفعال :

- إنه (ضيف) .

لم يعلق (هاشم) بكلمة واحدة ، ولكنه أدار منظاره المقرب إلى مصدر الضوء ، ورأى سيارة (ضيف) تتوقف ، عند طرف الحديقة ، ويهبط منها هذا الأخير ، حاملاً حقيبة كبيرة ، راح يدفع قدميه معها فى توتر ، حتى بلغ الشجرة العجوز ، فتلفت حوله فى خوف ، ووضع الحقيبة إلى جوار جذع الشجرة الضخم ، ثم استدار مبتعدًا فى سرعة ، وقفز داخل سيارته ، وانطلق مبتعدًا بها فى ذعر ، فقال (يحيى) :

- يبدو كما لو أن شياطين الكون كلها تطارده .

تمتم (هاشم) ، وهو يراقب جذع الشجرة باهتمام بالغ :

- إنها ليست بالمهمة السهلة ، لمدنى مثله .

ران عليهما الصمت طويلاً ، وهما يراقبان جذع الشجرة الضخمة ، حيث استقرت الحقيبة الكبيرة ، دون أن يظهر (الشبح) ..

ولاح فى الأفق ذلك الضوء الأحمر ، الذى يصبغ الشفق ، إيذانًا بقرب شروق الشمس ، فقال (يحيى) فى عصبية :

- أتظنه أبدل خطته ؟

أشار (هاشم) إلى نقطة بعيدة ، وهو يقول :

- لا ها هو ذا .

أدار (يحيى) منظاره فى سرعة ، إلى حيث ينظر (هاشم) ، وشمله الانفعال دفعة واحدة ، فقد وقع بصره على شخص يرتدى معطفًا أسود ، ويخفى رأسه بطاقية صوفية سوداء .

وهو يتجه نحو الشجرة العجوز بخطوات واثقة سريعة ، وكأنما يعلم هدفه جيدًا ، فهتف (يحيى) فى صوت خافت :

- نعم .. إنه هو حتمًا .

راقباه وهو يقترب من الشجرة ، حتى بلغها ، فانحنى يلتقط الحقيبة فى هدوء ، وكأنه يعلم بوجودها مسبقًا ، ثم اعتدل ، وعاد من حيث أتى ..

وهنا هتف (هاشم) فى حماس :

- لقد وقع شبحك .

وفجأة ، وقبل أن يدرك (يحيى) الأمر ، كان (هاشم) قد ألقى منظاره أرضًا ، وترك مكانه ، واندفع بكل قواه نحو الشبح ، المتشح بالسواد ..

وشعر الرجل بـ (هاشم) ، وانتبه لوقع أقدامه ، فاستدار فى حركة حادة عنيفة ، ليواجه خصمه ، ثم لم يلبث أن أطلق زمجرة غاضبة ، عندما انقض عليه (هاشم) هاتفًا :

- وقعت أيها المجرم .

ألقى الرجل حقيبته بحركة سريعة ، ورفع ساعده المفتول ، يتلقى عليه لكمة (هاشم) ، ثم يطلق زمجرة أقوى ، وهوى بقبضته على فك (هاشم) ..

وكانت لكمة قوية بالفعل ..

لكمة ألقت (هاشم) مترين على الأقل إلى الخلف ..

ولكن (هاشم) قفز واقفًا على قدميه ، فى مرونة مدهشة ،

والدفع مرّة أخرى نحو خصمه ، ثم وثب فى رشاقة وضربهُ بقدمه فى صدره ، فأسقطه أرضًا ، إلا أن الرّجل نهض بسُرعة ، واستقبله (هاشم) بلكمة كالقنبلة ، انفجرت على فكّ الرجل ، فأعادته مرّة أخرى إلى الأرض ..

وهنا أطلق الرجل زمجرة مخيفة للغاية ، واستلّ من جيبه خنجرًا ، انقض به على (هاشم) ، الذى رأى النصل اللامع يهوى على صدرِه ، فمال جانبًا فى سُرعة ، وأطبق بيده على معصم الرجل ، ولوى المعصم فى عنف وسرعة ، جعلا المُجرم يُفلت خنجره ، ويُطلق آهة ألم ، استقبلها (هاشم) ، وهو يهوى على فكّ الرجل بلكمة ساحقة ، سمع بعدها (يحيى) صوتًا أشبه بأسنان تتحطّم ، قبل أن تجحظ عينا الرجل ، ويسقط فاقد الوعى ..

ولهث (يحيى) ، من فرط الانفعال ، وهو يهتف :

ـ لقد ألقيت القبض عليه .. مرحَى يا رجُل .. لقد أوقفت الشبح .

وابتسم (هاشم) فى ارتياح ظافر .

لقد أنهى القضية ، واستعاد الملايين الخمسة ، وألقى القبض على الشبح وانتهى كل شىء ..

أو هذا ما يظُن ..

★ ★ ★

شحب وجه (ضيف) ، واتّسعت عينا (نافع) فى حين هتف (شاهين) ، فى صوت يحمل رنّة دهشة كبيرة :

ـ ألقيتم القبض عليه ؟ ماذا تعنى أيُها المفتش ؟

أجابه (هاشم) وهو يناوله الحقيبة الكبيرة :

ـ أعنى أننا استمعنا إلى تحذيرك يا سيِّد (شاهين) ، وراقبنا الشُجرة العجوز ، حتى أتى ذلك الشبح الوقح ، ليأخذ ملايينكم الخمسة ، فطاردناه ، وألقينا القبض عليه ، واستعدنا ملايينكم .

تبادل الشركاء الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يقول (نافع) :

ـ هل أبلغت رجال الشرطة يا (شاهين) ؟

أجابه (شاهين) ، وهو يفتح حقيبة الأموال ، ويلقى نظرة ارتياح على الملايين الخمسة :

ـ يُسعدنى أن فعلت .

صرخ (نافع) :

ـ ما كان ينبغى أن تفعل .

صاح به (شاهين) فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأنه لم يكن علىّ أن أفعل ؟

إننى أمتلك ثلث هذا المصنع .. بل أنا الذى صنعت نجاحه كله بخبرتى وعلاقاتى .. إنكم لا تشعُرون به مثلما أشعر به أنا .. أنتما مجرّد شريكين برأس المال ، أما أنا فأفعل كل شىء ، ومن حقى ـ والحال هكذا ـ أن أتخذ أى قرار لمصلحة المصنع ؟

أجابه (هاشم) فى حزم :

- إنه كذلك بالفعل .. لقد ألقينا القبض على (الشبح) ، واستعدنا أموالكم ، و ..

قاطعه فى انهيار :

- هذا لو أن الذى ألقيتم القبض عليه هو (الشبح) .

هوت العبارة على رأس (هاشم) كالصاعقة ..

من يضمن له بالفعل أنّ هذا هو (الشبح) ؟

مَنْ يُؤكد أنه ليس أحد رجاله فحسب ، وأن (الشبح) نفسه ما يزال مُطلق السراح ، ينفث غضبه وسخطه فى مكان آخر ، لضياع هذه الصفقة ، ويتوعّد المصنع بانتقام مخيف ..

ودون أن يعلق على عبارة (نافع) ، استدار (هاشم) يلتقط سمّاعة الهاتف ، ويضغط أزراره فى سرعة ، قبل أن يقول :

- مرحبًا يا (يحيى) .. إنه أنا .. قُل لى :

- ماذا فعلتم مع الرجل ؟

أتاه صوت (يحيى) يقول فى حنق :

- لا يُمكن أن يكون ذلك الرجل ، الذى ألقينا القبض عليه ، هو (الشبح) يا (هاشم) .. لقد عثرنا على سجل له هنا ، ولكنه أمى .. لا يعرف القراءة والكتابة ، ومن المستحيل أن يكون صاحب الخطابات .

كادت أصابع (هاشم) تعتصر سمّاعة الهاتف ، وهو يقول :

- أمّى ؟! لماذا أتى لأخذ الحقيبة إذن ؟

أجابه (يحيى) :

- شخص مجهول اتصل به هاتفيًا ، وطلب منه إحضار حقيبة كبيرة ، من جانب جذع الشجرة العجوز ، بعد الفجر بقليل ، ووضعها داخل سيارة كبيرة ، ستقف أمام قسم الشرطة الرئيسى ، مقابل ألفى جنيه .. ولما كانت المهمّة بسيطة ، وكان الأجر مرتفعًا ، فقد قبل المهمّة دون مناقشة .

مضت لحظات من الصمت عبر الأسلاك ، دون أن يجيب (هاشم) بحرف واحد ، حتى إن (يحيى) شعر بالقلق ، فقال :

- (هاشم) .. هل تسمعنى ؟

أجابه (هاشم) فى صوت جاف ، يعكس الكثير من غضبه وسخطه :

- نعم يا (يحيى) .. أسمعك .. أسمعك جيدًا .

ثمّ أعاد السمّاعة إلى موضعها فى بطء ، و (ضيف) يقول فى جزع :

- إنه ليس (الشبح) .. أليس كذلك ؟

أومأ (هاشم) برأسه إيجابًا فى حنق ، فشحب وجه (ضيف) فى شدّة ، وتهاوى (نافع) على مقعده ، هاتفًا :

- يا إلهى !!

فى حين تراجع (شاهين) كالمصعوق ، مغمغمًا :

- ليس (الشبح) ؟!

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع الجميع طرقات رصينة ، على باب حجرة الاجتماعات ، فهتف (نافع) فى امتقاع :

- ادخل .

دخل السكرتير الخاص للمصنع ، وهو يحمل ثلاثة خطابات وردية اللون ، ويقول فى توتر :

- ثلاثة خطابات ورديَّة كالمعتاد .

عقد (هاشم) حاجبيه فى شدّة ، فى حين هتف (ضيف) ، بصوت أقرب إلى البكاء :

- ربّاه .. الرحمة .. الرحمة .

اختطف (هاشم) أحد الخطابات الثلاثة ، وفضّه فى حركة عنيفة ، وانعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يقرأ محتوياته ، فسأله (نافع) بصوت مرتجف :

- ماذا يقول هذه المرّة ؟

أجابه (هاشم) فى حنق :

- يقول : إنه غاضب جدًا مما حدث ، وإن غضبه هذا يدفعه إلى مضاعفة المبلغ .. إذ يريد عشرة ملايين هذه المرّة ، وإلا فلن يكتفى بنسف قسم الدوائر المطبوعة ، وإنما سيقتلكم أيضًا .

انتفض (شاهين) ، وهتف فى ذعر :

- يقتلنا ؟!

أما (نافع) ، فازداد شحوبًا ، وهو يغمغم :

- عشرة ملايين ؟! يا إلهى ! يا إلهى !

وهتف (ضيف) منهارًا :

- هذا يعنى أن نفلس تمامًا .

ردد (شاهين) :

- ما باليد حيلة .. ما باليد حيلة .

قال (هاشم) فى غضب :

- هل ستدفعون المبلغ ؟

قال (نافع) فى مرارة :

- وماذا يمكننا أن نفعل ؟ إنه سيقتلنا هذه المرّة .

وتمتم (شاهين) :

- سنضطر لبيع المصنع ، للحصول على مثل هذا المبلغ .

انعقد حاجبا (هاشم) ، وهو يقول فى خفوت :

- تضطرون لبيعه ؟!

ثم قلّب المظروف فى يده ، وفحصه فى سرعة ودقّة ، قبل أن يتابع :

- معذرة أيها السادة .. هل يمكننى مقابلة طاقم الحراسة .. الذى كان مسئولاً عن حراسة الآلة ، التى نسف (الشبح) جزءها الحيوى منذ أسبوع .

تطلّعوا إليه فى حيرة ، وغمغم (ضيف) :

- وما شأن طاقم الحراسة القديم بهذا ؟

عقد (هاشم) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى حزم :

- دعنى ألتقِ به أولاً يا سيّد (ضيف) ، وبعدها سأخبركم ما صلته بالأمر .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وهو يستطرد :

ـ وربَّما منْ هو (الشبح) .

★ ★ ★

بذل قائد طاقم الحراسة جهدًا حقيقيًا ، ليبدو متماسكًا أمام النظرات المتفرّسة الفاحصة الصامتة ، التى يحدجه بها (هاشم) ، قبل أن يسأله هذا الأخير :

ـ هل كنت تعلم أن المصنع سيكلِّف طاقمك ، مهمة حراسة الآلة الجديدة ؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ مطلقًا .. لقد تم اختيارنا عشوائيًا ، ولم تكُن فكرة وجود طاقم حراسة خاص للآلة واردة ، قبل التهديدات .

سأله (هاشم) :

ـ من وضَع القنبلة فى الآلة إذن ؟

أجابه الرجل :

ـ لست أدرى يا سيادة المفتش .. لقد كُنا نحرُس الحجرة ، التى وضعوا داخلها الآلة الجديدة ، بكل حزم وصرامة ، ولم يكُن يدخلها سوى السادة أصحاب المصنع ، للاطمئنان على آلتهم .

برقت عينا (هاشم) ، وهو يقول :

ـ كرِّر الجزء الأخير مرة أخرى .

تطلَّع إليه الرجل فى دهشة ، وكرَّر الجزء الأخير من عبارته بالفعل .

فابتسم (هاشم) ابتسامة غامضة ، وقال للرجل :

ـ حسنًا .. يمكنك الانصراف .

ثم التفت إلى الشركاء الثلاثة ، مستطردًا :

ـ لقد سمعتم بأنفسكم أيها السادة .

هتف (شاهين) فى دهشة :

ـ ما الذى سمعناه ؟ إننا لا نفهم شيئًا .

لوَّح (هاشم) بسبَّابته أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ سأشرح لكم يا سيِّد (شاهين) .. ما سمعتموه الآن يشير إلى أن أحدًا غيركم لم يدخُل الحجرة ، التى كنتم تحتفظون فيها بالآلة ، التى نجح (الشبح) فى نسفها ، ألا تدركون ما الذى يعنيه هذا ؟

قال (نافع) فى عصبية :

ـ لهجتك توحى بأنَّك توجه إلينا اتهامًا أيها المفتش .

ازدادت ابتسامة (هاشم) غموضًا ، وهو يقول :

ـ ليس بعد يا سيِّد (نافع) .

ثم رفع المظرُوف أمام عينيه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ ولكننى سأفعل حتمًا ، عندما تلقُون نظرة على المظروف ، الذى وصل الآن ، وعلى ختم البريد فوقه .. لو فعلتم فستجدُون أن (الشبح) المزعوم قد أرسَل هذه الخطابات أمس ، وأعلن فيه غضبه مما حدث ، حتَّى قبل أن يحدُث ما حدث .

تمتم (شاهين) :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (هاشم) :

- يعنى أن (الشبح) هو واحدٌ منكم أيها السادة .

حدّق (شاهين) فى وجهه بذهول ، وشهق (ضيف) فى قوّة ، فى حين هتف (نافع) فى استنكار شديد :

- واحد منّا ؟

أجابه (هاشم) فى حزم صارم :

- نعم .. (الشبح) هو واحد منكم ، دبّر كل هذه الخطّة ، ليستولى وحده على المصنع .. ولقد لعِبَ لعبته القذرة بكل مهارة ، فبدأ بتهديده الأوّل ، الذى أثار ذُعر شريكيه ، وجعلهما يستعينان بطاقم حراسة خاص ، لحماية الآلة الجديدة ، ثمّ تظاهر بالاطمئنان على الآلة ، كأحد أصحابها ، ودسّ فيها قنبلة زمنية موقوتة ، لم تلبث أن انفجرت ، لتؤكد تهديدات (الشبح) ، وتزيدَ من خوف شريكيه ، وبعدها أرسل تهديده الثانى ، وحدّد موعد ومكان تسليم الملايين الخمسة ، ثُم استأجر مجرمًا سابقًا ، ليحضر حقيبة النقود ، وهو يعلم أنّه سيسقط فى قبضة رجال الأمن ، ممّا يمنحه فرصة إرسال تهديده الثالث ، الذى يشير - ولأول مرة - إلى قتل الجميع ..

وكان من الطبيعى أن يأتى التهديد الثالث بأثره المنشود ، عندما يأتى بعد محاولة فاشلة ، فينهار شريكا (الشبح) ، ويقرران بيع أنصبتهما ، لسداد المبلغ المطلوب ، بعد أن صار

الأمر متعلقًا بحياتهما ، وليس بمصنعهما فحسب .. وهنا يأتى دور المرحلة الأخيرة من الخطّة ، فيشترى (الشبح) نصيب شريكيه ، ولو باسم مستعار ، ويصبح مالك المصنع ، بالنقود التى يدخرها منذ زمن ، لمثل هذه المناسبة ، استمع إليه الثلاثة فى ذهول تام ، قبل أن يغمغم (شاهين) :

- مستحيل !! مَنْ منّا يفعل هذا ؟

هوَى الجواب على رأسه كالصّاعقة ، و (هاشم) يقول فى حزم :

- أنت يا سيّد (شاهين) .

تراجع (شاهين) فى حركة حادة ، هاتفًا :

- أنا ؟

أجابه (هاشم) فى ثقة :

- ومَنْ غيرك ؟ لقد أقمتَ هذا المصنع على أكتافك ، وأنت تشعُر ، كما شعرت دائمًا ، بأنّك أحق به وحدك ، وأن شريكيك لا يساويان شيئًا فيه ، وهذا ما أفصحت عنْه بنفسك منذ قليل .

صاح الرجل فى عصبية :

- إنها ثورة غضب فحسب ، وهذا ليس دليلاً .

هزّ (هاشم) كتفيه ، وقال :

- لن أعتمد عليه وحده بالطبع ، فهناك نقطة أكثر قوّة ، إذ أنّك الوحيد ، الذى أبلغ (يحيى) بأمر الخطاب الثانى ، وبمكان وموعد تسليم المبلغ ، وأنت واثق من أننا سنراقب المكان ،

ونلقى القبض على المجرم ، الذى استأجرته لحمل الحقيبة ، ممّا دفعك إلى إرسال الخطاب الثالث مبكرًا ، ثم إنك أنت الذى يدير المصنع ، وأكاد أجزم بأن كل الخسائر ، التى يمرّ بها ، زائفة ، مثل نوبتك القلبية ، وأنك قد استوليت خلال الأعوام السابقة على معظم أرباح المصنع ، وادخرتها لتشترى بها نصيبى زميليك وشريكيك ، عندما تحين اللحظة المناسبة .

ران صمت رهيب على المكان ، بعد أن انتهى (هاشم) من حديثه ، وتصبّب العرق على وجه (شاهين) ، فى حين هتف (نافع) فى ذهول واستنكار :

ـ أنت ؟! أنت يا (شاهين) ؟!

أما (ضيف) فرندّ فى غضب :

ـ أيها المجرم الآثم .

صاح (شاهين) فى عصبيّة بالغة :

ـ إننى أستحق المصنع وحدى ، وسأحصل عليه كلّه ، أو ..

انتزع بسرعة آلة صغيرة من جيبه ، ورفعها بيده عاليًا ، وهو يستطرد :

ـ أو أنسِفه كله .

ساد التوتّر فى المكان ، وسأله (هاشم) فى غضب :

ـ ما هذا الذى تحمِله ؟

أطلق (شاهين) ضحكة عالية ، أقرب إلى ضحكة رجل مجنون ، وهو يهتف :

ـ ألم تعرفه أيها العبقرى ؟ إنه جهاز تفجير لاسلكى .. بضغطة واحدة على زرّه الصغير ، تنطلق إشارة بسيطة ، إلى عشر قنابل ، وضعتها بنفسى ، فى أكثر الأماكن حيوية بالمصنع ، وينفجر المكان كله .. كله .

قالها وقهقه ضاحكًا فى جنون ، فتراجع (نافع) و(ضيف) فى خوف ، وهتف الأخير فى ضراعة :

ـ لا يا (شاهين) .. لا تنسفه .

صرخ (شاهين) :

ـ بل سأفعل .. لن تحصُل عليه أنت و (نافع) ، بعد أن تلقيانى فى السجن .. لقد وضعتُ هذا الاحتمال فى اعتبارى ، وأعددتُ لكل شىء عُدّته .. لن يحصُل غيرى على المصنع .. أبدًا .

ورفعَ يده ، ليضغط زرّ التفجير ..

وهنا تحرّك (هاشم) ..

تحرك فى سُرعة وخفّة ومرُونة ، فقفز نحو (شاهين) ، وارتفعت قدمه فى رشاقة مدهشة ، لتركل جهازَ التفجير الصغير من يد هذا الأخير ، الذى صرخ :

ـ لا .. لا ..

وتعلّق بصر (نافع) و (ضيف) بالجهاز الصغير ، الذى طار فى الهواء ، وارتفع ، ثم بدأ رحلة هبوطه نحو الأرض ..

وفى رأس كل منهما ، دار السؤال نفسه ..

ماذا لو سقط فوق زرّ التفجير ؟

واندفع (شاهين) ، محاولاً استعادة جهازه ، وهو يصرخ :

ـ لنْ يحدث هذا أبدًا .

ولكن (هاشم) أثبت مرونة أكثر هذه المرة ..

لقد انحنى يسارًا ، ولكم (شاهين) بكلّ قوتّه فى أسنانه ، ثم اعتدل ، ومال يمينًا فى سرعة مذهلة ، والتقط جهاز التفجير بين أصابعه ..

وسقط (شاهين) أرضًا ..

وأطلق (نافع) و (ضيف) شهقة انبهار قوية ..

وزفر (هاشم) فى ارتياح ..

لقد نجا (الشبح) ..

وعندما كان يحيط معصمى (شاهين) ، الفاقد الوعى ، بالأغلال ، دخل (يحيى) إلى الحجرة ، فحدق فى وجوه الجميع ، وهتف فى دهشة :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟ لماذا نلقى القبض على السيّد (شاهين) ؟

ابتسم (هاشم) ، واعتدل واقفا ، وهو يقول :

ـ من حسن حظك أن شاهدت لقطة النهاية يا صديقى .. وسيدهشك كثيرًا أن تعلم التفاصيل ، ولكن المهم الآن هو أننا قد ربحنا هذه القضية أيضًا .

وأشار إلى (شاهين) ، مستطردًا فى ارتياح ظافر :

ـ قضية (الشبح) .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

السـلاح السـرّى ..

ساد الهدوء التام تلك الليلة ، فى القاعدة العسكرية الجديدة ، المتاخمة للحدود ، وتوارى القمر خلف سُحب داكنة كثيفة ، فاكتنف المكان ظلام دامس ، إلا من مصابيح صغيرة باهتة ، اختفت أو كادت ، خلف ذلك الضباب ، الذى انتشر بعد الغروب مباشرة ، وتضافر مع العوامل الأخرى ، ليضفى على المكان غموضًا مهيبًا .

وفى حذر وصمت ، تحرّك رجلان تحت جناح الظلام ، وعبرا فى مهارة حاجز الأسلاك الشائكة ، الذى يحيط بالقاعدة ، ثم زحفا نحو مبنى صغير ، من طابق واحد ، وأشار أحدهما إلى الآخر إشارة ذات مغزى ، فنهض الثانى فى خفة ، وتسلّل من خلف حارس المبنى وانقض عليه انقضاضة مباغتة عنيفة ، وكتم فمه بكفه اليسرى ، ثم أغمد خنجره فى قلبه ، بيده اليمنى ، ولم يتركه إلا جثة هامدة .

وفور سقوط الحارس تحرّك الرجل الأول ، وانضم إلى زميله عند باب المبنى الصغير ، واشترك الاثنان فى معالجة باب المبنى فى مهارة ، حتى استجاب لهما ، فدلفا فى سُرعة إلى الداخل ، وأوصدا الباب خلفهما ، ثم أشعل كل منهما مصباحه اليدوى ، واتجها نحو خزانة صغيرة ، فى الجدار المقابل للباب

مباشرة ، وأخرج الأولُ جهازًا إليكترونيًا صغيرًا ، ألصقَهُ بباب الخزانة ، وهو يقول لزميله فى خفوت :

ـ حاول أن تكتم أنفاسك ، فهذا الجهازُ شديدُ الحساسية للأصوات .

كتم زميله أنفاسه بالفعل ، وضغط هو زرًا صغيرًا بالجهاز ، فتألقت شاشته المستطيلة ببريق فيروزى ، ثم راحت عدةُ أرقام تتراص فوقها فى سرعة . ثم لم تلبث كل هذه الأرقام أن توقفت ، واستقرت مجموعة من الأرقام المتجانسة فوق الشاشة الخضراء الصغيرة ، فابتسم الأول فى سخرية ، وهو يقول :

ـ نجحنا .. كنتُ أعلمُ أن هؤلاء العرب ، ليسوا بالكفاءة التى نتصورها .

مدَّ يده يفتح باب الخزانة ، ولكنه لم يكد يفتح الباب المعدنى الصغير ، حتى انطلقتْ صفارات الإنذار فى المكان كله ، فصرخ زميله :

ـ يا إلهى ! لقد خدعونا .. سقطنا في الفخ .

عقد الأول حاجبيه فى توتر ، وتركز بصره على علبة صغيرة ، تستقرُّ داخل الخزانة ، وهتف :

ـ يا للسخافة !

واختطف العلبة فى حدةٍ ، واندفع مع زميله يحاولان الفرار من المبنى الصغير ، ولكن شلالًا من الضوء غمر المبنى فجأة ، مع صوت صارم يقول :

ـ لقد وقعتم يا منْ بالمبنى .. المكانُ محاصر تمامًا ، ولن تنجح نملةٌ واحدةٌ فى الإفلات منه .. استسلموا ، أو نطلقُ النار .

انهار الرجل الثانى ، وهو يهتفُ :

ـ لقد سقطنا فى أيديهم .. إنهم أذكى مما أخبرونا بكثير .

أمسك الأول العلبة الصغيرة فى قوةٍ ، وهو يقول فى عناد :

ـ ولكنهم لن ينتصروا علىَّ أبدًا .. أبدًا .

وكرر الصوت الصارمُ تحذيرَه للمرة الثانية ..

ثمَّ بدأ الاقتحام ..

اقتحمت القوة العربية المكان فى عنف ، وارتفعت أسلحتهم فى وجهى الأجنبيين ، اللذين استسلما على الفور ، دون مقاومة . فاقترب منهما قائدُ القوة العربية ، ومدَّ يده إلى الأول ، قائلًا فى صرامة :

ـ العلبة .

ناوله الرجل العلبة الصغيرة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ها هى ذى .

التقط قائدُ القوة العربية العلبة ، وفتحها فى حرص ، ثم انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ أين السلاح السرى ؟ إنها علبة فارغة .

أجابه الأجنبىُّ فى توتر :

ـ لقد حصلت على العلبة ، ولكنكم لن تستعيدوا سلاحكم السرى أبدًا .. وانطلق يقهقه كالمجنون .

★ ★ ★

تثاءب (هاشم همام) أشهر رجال الأمن فى المنطقة العربية ، وهو يوقف سيارته أمام منزله ، فى الثانية صباحًا ، وقال لزميله (يحيى) فى تهالك واضح :

- لايمكنك أن تتصورَ كمْ أشعر بالرغبة فى النوم يا صديقى .
ابتسم (يحيى) مشفقًا ، وهو يقول :
- أنت محق فى هذا بالتأكيد ، فلقد بذلت جهدًا خرافيًا اليوم .
غادر (هاشم) السيَّارة ، وهو يقول :
- أظن أن ثمانى ساعات من النوم العميق ، تكفى لإزالة هذا الجهد يا صديقى .. أليس كذلك ؟
رأى حاجبىِ (يحيى) ينعقدان فى توتر ، وهو يتطلّع إلى مدخل البناية التى يقطنها هو ، فأدار عينيه بسرعة ، إلى حيثُ ينظر (يحيى) ، ولم يلبث أن قطب حاجبيه بدوره ، وهو يتطلّع إلى سيَّارة (جيب) عسكريَّة ، تقف أمام منزله ، فغمغم فى قلق :
- ما الذى تفعله هذه السيَّارة هنا ؟
قالها واتجه مباشرة نحو السيَّارة العسكريَّة ، وسأل الجندى الواقف إلى جوارها :
- ماذا هناك أيها الجندى ؟
رفع الجندى يده بالتحية العسكرية ، وهو يسأله :
- ألىَ شرف مخاطبة المفتش (هاشم همام) ؟
أجابه (هاشم) :
- نعم .. هو أنا .
ناوله الجندى ورقةً تحمل توقيعًا رسميًا ، وهو يقول :
- هذا استدعاء رسمىّ يحمل اسمك يا سيِّدى ، من القوات المسلحة .
هتف (يحيى) فى دهشة :

- استدعاء رسمى !!
قرأ (هاشم) الاستدعاء فى سرعة ، ثم تنهد قائلاً :
- هذا صحيح يا صديقى .. إنه استدعاء رسمىّ .
ثم ابتسم فى تهالك ، مستطردًا :
- وهذا يعنى تأجيل النوم لما بعد .

★ ★ ★

نهض قائد القاعدة العسكرية يصافح (هاشم) وهو يقول فى احترام :
- مرحبًا بك فى قاعدتنا العسكرية أيها المفتش (هاشم) .. يؤسفنى أن اضطررنا لاستدعائك فى هذا الوقت المتأخر ، ولكن الأمر عاجل بالفعل .
ولقد أوصى رئيس الأركان بالاستعانة بك بالذات .
صافحه (هاشم) ، وهو يقول :
- لا عليك يا سيِّدى .. لقد اختلست بعضَ النوم ، فى الهليوكوبتر التى نقلتنى إلى هُنا ، وأظن هذا يكفينى الليلة .. المهم أن أعرف طبيعة مهمتى .
أشار إليه القائد بالجلوس ، وقال :
- الواقع أن قاعدتنا قد تعرّضت للسطو مساء اليوم ، بوساطة المحترفين ، من معسكر الأعداء ، ولقد حصل هذان المحترفان على سلاح سرّى جديد .. المفترض أن يتمّ عرضُه ، فى الثامنة من صباح الغد ، على لجنة عسكرية جديدة ، لتحديد موقف الدّولة من إنتاجه وتمويله .

تطلّع (هاشم) إلى ساعته ، وقال :

ـ تقصد الثامنة من صباح اليوم ، فنحن الآن فى الثالثة والنصف صباحًا .. أومأ القائد برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هذا صحيح .. وهذا يعنى أن لدينا ثلاث ساعات أخرى على الأكثر لاستعادة هذا السلاح السرّى ، وإلا فلن يمكننا عرضه على اللجنة العسكرية ، فى الموعد المطلوب .

سأله (هاشم) ، فى اهتمام :

ـ هل عرفتم أين هرب السارقان ؟

تنحنح قائد القاعدة ، وقال :

ـ لقد ألقينا القبض عليهما .

عقد (هاشم) حاجبيه فى حيرة وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى يا سيّدى ؟ ما المشكلة إذن ؟ ما دمتم قد ألقيتم القبض عليهما ؟

زفر قائد القاعدة ، وقال :

هذه هى المشكلة الحقيقية أيها المفتش .. لقد حاصرنا المكان ، فور فتح الخزانة ، التى كانت تحوى السلاح السرّى ، ويمكننى أن أقسم إن أحدًا لم يغادر المبنى كله ، منذ فتح باب الخزانة ، وحتى إلقاء القبض على السارقين ، وعلى الرغم من هذا فقد عثرنا على علبة السلاح فارغة ، ولم نعثر على أدنى أثر للسلاح نفسه .

مضت لحظة صمت ، قبل أن يقول (هاشم) :

ـ لقد فتشتم الرجلين بالطبع .. أليس كذلك .

أومأ قائد القاعدة برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بلى .. وقلبنا المكان كله رأسًا على عقب أيضًا .. ولكننا لم نعثر على أدنى أثر للسلاح .. ولهذا استعنا بك ؟

فتح القائد درج مكتبه ، وأخرج منه رسمًا تخطيطيًا ، لجسم يشبه قطعة من البلور المصقول ، وهو يقول :

ـ ها هو ذا .. إنه نوع جديد من المتفجرات القوية ، نجح علماؤنا فى صنعه على هيئة بلورات نقية شفافة ، ما إن تتعرض للحرارة حتى تتحول على الفور من الحالة الصلبة ، إلى الحالة الغازية ، أو ما يعرف علميًا باسم (التسامى) ، ومع هذا التحول يزداد التضاغط على نحو رهيب ، فيحدث انفجار هائل ، شديد التدمير .

اعتدل (هاشم) وهو يسأله :

ـ وما حجم هذه البلورات ؟

أجاب القائد مشيرًا بيده :

ـ فى حجم قبضة يد طفل صغير .

عقد (هاشم) حاجبيه مفكرًا ، ومضت فترة طويلة من الصمت ، لم يحاول قائد القاعدة مقاطعته خلالها ، قبل أن يعتدل (هاشم) ويقول فى اهتمام :

ـ أريد رؤية المكان ، الذى اختفى فيه السلاح السرّى ، ومقابلة السارقين فيه .

ضغط القائد زرًا صغيرًا ، فوق مكتبه ، وهو يقول :

ـ سيكون لك كل ما تريد ..

★ ★ ★

أدار (هاشم) عينيه فى المكان باهتمام وعناية ، وهو يفحص كلِ رُكن فيه ..

ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، إذ لم يكن المكان الذى اختفى فيه السلاح السرِّى سوى قاعدة متوسطة الحجم ، تحوى مكتبًا وثلاثة مقاعد ، وجهاز كمبيوتر حديثًا ، وخزانة صغيرة ، ووعاء زجاجيًا كبيرًا شفافًا ، يمتلئ حتى منتصفه بالماء .

وكان هذا أكثر إثارة للحيرة ..

وفى صرامة ، التفت (هاشم) إلى السارقين ، وقال :

ـ أين أخفيتما السلاح السرِّى ؟

ابتسم أضخمهما حجمًا ، وهو يقول فى عصبيَّة :

ـ ابحث عنه بنفسك أيها العربىّ .. ألا تدّعون أنكم أكثر ذكاء منا ؟

تطلّع (هاشم) إلى ساعته ، وهو يقول :

ـ إننا كذلك بالفعل يا رجُل ، وستتأكد بنفسك من هذا ، عندما أعثُر على السلاح السرِّى ، قبل مضى نصف ساعةٍ من الآن .

قال الآخر النحيلُ فى سُخرية :

ـ هلْ تراهن ؟

هزّ (هاشم) كتفيه ، وقال :

ـ أنت تعلمُ يقينًا أن ديننا يحرِّم علينا المُراهنات يا فتى .

ثم ضمّ قبضته فى قوةٍ ، وهو يستطرد فى صرامةٍ :

ـ ولكنى أعدك أن أحطم أنفك الأجْدع هذا ، عندما أستعيد السلاح السرِّى .

قال الضخم فى شماتةٍ :

ـ لن تجده أبدًا .. لقد قلب الآخرون المكان رأسًا على عقِب ، دون أن يعثروا عليه .

ابتسم (هاشم) فى ثقة ، وهو يقول :

ـ ربّما ، ولكننى وأنتما نعلمُ أنكما لستما ساحرين ، وهذا يعنى أن السلاح السرِّى فى مكان ما هنا .. ربّما أخفيتماه فى مهارة ، ولكنكما لم تزيلاه من الوجود ، فهو مجرّد جسم مادىّ ، والمادة كما نعلم جميعًا ، لا تفنى ، ولا تستحدث منْ عدمٍ .

قال النحيل فى حدّة :

ـ ولكنها قد تتحولّ إلى طاقة .

لوّح (هاشم) بكفه ، وقال :

ـ هل تقصد أنكما قد فجّرتما السلاح السرِّى ؟ لا يا رجُل .. هذا لم يحدث حتمًا ، وإلا لأطاح بكما الانفجار ، وسمعه من بالخارج .

ثم مالَ نحوه ، مستطردًا :

ـ وأنا وأنت نعلمُ أنّ العثور على السلاح السرِّى مسألة ذكاء .

قال الضخم فى سخريةٍ .

وخيال .

اعتدل (هاشم) ، قائلاً :

ـ بالطبع .. إنه مزيج من الخيال والذكاء .

ثم أشار إلى المكتب والمقاعد الثلاثة مستطردًا :

ـ لذا لن أبحثَ فى الأماكن التقليدية .
واتجه نحو الكمبيوتر ، متابعًا فى هدوء :
ـ قد يخطر ببالى أنكما قد أخفيتماه فى جسم الكمبيوتر .
وضغط أزرار الكمبيوتر فى سرعةٍ ، وأشار إلى الأرقام التى تراصتْ على شاشته ، قائلاً :
ـ ولكنَّ هذه الأجهزة شديدة الحساسية كما تريان ، وما دام هذا الجهاز يعملُ بكفاءة ، فمن المستحيل أن يكون داخله جسم فى حجم قبضة طفل .
أليس كذلك ؟
ثمَّ لوَّح بسبَّابته فى اتجاه الخزانة ، دون أن يتوقَّف عن الحديث :
ـ ولو افترضنا أنكما أخفيتُماه فى الخزانة ، فسيكون افتراضًا ساذجًا ، وسخيفًا فى الوقت ذاته ، فهذا هو أولَ مكانٍ يبحث فيه أى شخصٍ عن السِّلاح السرِّى المفقود .
قال الضخم فى عصبيَّة :
ـ أينَ هو إذنْ أيُّها الذكى ؟
ابتسم (هاشم) وهو يقول :
ـ أخبرنى أنت : ما هو أفضل مكانٍ لإخفاء شىءٍ ما ؟
لم ينبس أحدهما ببنت شفة ، فتابع هو :
ـ إنه المكان الذى يختفى فيه هذا الشىء تمامًا ، بحيثُ تعجزُ العينُ عن تمييزِه فيه .. أليس كذلك ؟

بدأ التوتر يظهرُ على وجهى الرجلين ، و (هاشم) يلتقط أحد المقاعدِ أمام عينى قائد القاعدة ، الذى يتابعهُ فى اهتمام بالغ ، و (هاشم) يستطرد :
ـ لو طبَّقنا هذه القاعدة على جسمٍ بلَّورى شفَّافٍ ، فستجد أن أفضل مكانٍ تخفيه فيه ، بحيث تعجزُ العينُ عنْ تمييزه ، هو ..
وهوى بالمقعد بغتةً على وعاء الماء ، هاتفًا :
ـ هو الماء الصَّافى .
حطَّم المقعدُ الوعاء فى عُنفٍ ، وتناثرت منه المياه حول المكان ، وتساقطت قطعُ الزجاج فى كلِّ رُكن ، وبينها سقط جسم بلَّورى شفَّاف ..
جسم فى حجم قبضة طفل صغير ..
وحدَّقت العيون كلُّها فى السِّلاح السرِّى ، الذى رقد ساكنًا على أرضِ الحجرة ، وصرخ الضخم :
ـ أيُّها الحقيرُ .
واندفع فى ثورةٍ نحو (هاشم) ، الذى استقبله بلكمة كالقنبلة فى معدتَه ، وهو يقُول فى صرامة :
ـ أخطأت يا رجُل .
ثم أعقبها بأخرى كالصَّاعقة فى فكِّه ، ألقت به أرضًا فاقدَ الوعى ، وهو يستَطرِد :
ـ إنَّك أنت الحقير .



والتفت فى هدوء إلى قائد القاعدة ، وتطلّع إلى ساعته ، قائلاً :

ـ إنها الرابعةُ والنصف يا سيّدى القائد .. أظن أنه يمكنكم تقديم السّلاح السرّى للجنة غدًا ، فى الموعد المطلوب .

انفرجت شفتا القائدِ عن ابتسامة إعجاب ، وهو يقول :

ـ يا لكَ من عبقرىٍّ يا (هاشم) ! كيفَ يُمكننا أن نكافئك على ما فعلت ؟

ابتسم (هاشم) ، وأسبل جفنيه فى إرهاق ، وهو يقول :

ـ بأن تعيدونى إلى منزلى على الفور يا سيّدى ، فأنا أكاد أسقُط نائمًا ، من شدّة التعب .

ابتسم القائدُ وهو يقول :

ـ لك هذا يا رجُل ..

وفى الخامسة تمامًا ، كانت الهليوكوبتر تحلّقُ بـ (هاشم) عائدةً إلى المدينة ، وقائد القاعدة يتابعُها ببصره ، وهو يقول لضابطه الأول فى إعجاب واضح :

ـ ينبغى أن تشاهدهُ وهو يعمل ، لتعلَم أنك تقفُ أمامَ رجلٍ من نوع نادر ..

رجل العدالة ..

كل العدالة ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

الكوكـــب الغـــامض ..

انطلقت سفينة الفضاء العربية (المستكشف ـ ١) تعبر الفضاء الشاسع اللامتناهى ، خارج مجموعتنا الشمسية ، وبدت أشبه بنسر أبيض هائل ، وسط الظلام الممتد إلى آفاق البصر ، ونجم متألق متحرك ، وسط ملايين النجوم ، التى تزين فضاء الكون ، وهى تجوب العوالم ، بحثًا عن كواكب أخرى مأهولة ، وحضارات أخرى راقية ، يمكن أن تتصل بها الحضارة الأرضية العربية ، فى ذلك الزمن ، مع بدايات القرن الثانى والعشرين .

وفى داخل (المستكشف ـ ١) . انبعثت رسالة روتينية ، تقول :

ـ من (المستكشف ـ ١) إلى الأرض .. لقد عبرنا المجموعة الشمسية منذ أسبوع واحد من زمن الأرض ، وننطلق بسرعة تقارب سرعة الضوء ، ولا توجد أية عقبات .

أنهى قائد السفينة رسالته ، وبدأ الكمبيوتر الخاص بالاتصالات فى إطلاقها نحو الأرض ، فى الوقت الذى غمغم فيه (رائد) ، مساعد القائد :

ـ ترى كم تستغرق هذه الرسالة ، حتى تصل إلى الأرض ؟

ابتسم القائد وقال :

ـ الكثير .. صحيح أننا الآن نرسلها عبر نبضات ضوئية

خاصة ، بوساطة شعاع من الليزر ، بحيث تنطلق بسرعة الضوء ، بدلاً من انطلاقها بسرعة الصوت التقليدية ، ولكن حتى بهذه السرعة تحتاج الرسالة إلى خمس ساعات كاملة ، لتبلغ كوكب الأرض .

أومأ (رائد) برأسه موافقًا ، وقال :

ـ أنت محق ، ولكننى أتساءل ، منذ بدأت رحلتنا هذه ، هل سنعثر حقًا على كواكب مأهولة ؟! لقد تجاوزنا كوكبين بالفعل ، منذ غادرنا منظومتنا الشمسية ، ولكنهما كانا مقفرين ، لا أثر للحياة على سطحهما ، وها نحن أولاء نقترب من كوكب ثالث ، يشير راصدنا إلى خلوه من الماء أيضا ومن آثار الحياة .

هزَّ قائد السفينة كتفيه ، وقال :

ـ ربما استغرق الأمر أكثر من ذلك بكثير ، فالعثور على آثار للحضارة ليس بالأمر الهين .

قبل أن يتم عبارته ، تألقت أمامه شاشة فيروزية ، وانبعث منها ذلك الصوت المعدنى ، المميز لأجهزة الكمبيوتر الناطقة ، وهو يقول :

ـ علامات تشير إلى الحياة ، فى الكوكب (س ـ ٣) .

سرت فى جسد (رائد) ارتجافة نشوة ، وهو يهتف :

ـ أخيرًا ..

أما القائد ، فقد بدا عليه الاهتمام الشديد ، وهو يسأل الكمبيوتر :

- كيف ظهرت علامات الحياة هذه ؟! ألم تشر كل الأجهزة من قبل إلى أن هذا الكوكب خال من الماء ، والمنشآت الحضارية ؟

أجابه الكمبيوتر ، بصوته المعدنى الجاف :

- تم رصد حركة منتظمة ، لاتشابه بينها وبين أية ظواهر كونية أو طبيعية مسجلة ، والتقطت أجهزة الصوت ، الفائقة الحساسية خرير مياه ، على الرغم من عدم رصدها بصريًا .

بدا الاهتمام على وجه (رائد) ، وهو يسأل قائده :

- ما الذى يعنيه هذا ؟

هزّ القائد رأسه فى حيرة ، وتنهّد وهو يراجع كل البيانات ، التى التقطها الراصد فى ذلك الكوكب ، قبل أن يقول :

- لست أدرى يا (رائد) ، لا يوجد شىء محدد يمكن الاستناد إليه لتأكيد أو نفى وجود صورة ما من صور الحياة على سطح هذا الكوكب ، فكل المشاهد ، التى تنقلها أجهزة الرصد . تشير إلى كوكب بارد مقفر ، لايحوى سطحه سوى الصخور ، من مختلف الأشكال والأنواع ، وغلافه الجوى ضعيف ، لا يحوى سوى القليل من الأوزون والكبريت ، فكيف يمكن أن تنشأ الحياة ، فى مثل هذه الظروف ؟!

قال (رائد) فى حسم .

الله (سبحانه وتعالى) قادر على خلق الحياة ، فى أية صورة من الصور ، وأية أجواء ، حتى ولو لم تكن صالحة لنا ..

أنسيت أننا نعرف بعض أنواع الحياة اللاهوائية على سطح الأرض ؟

وافقه القائد بإيماءة من رأسه ، وقال :

- ولكن الماء أمر ضرورى يا (رائد) فالله (سبحانه وتعالى) أنبأنا أنه جعل من الماء كل شىء حى ، وكل الأبحاث تؤكد هذا ، فالحياة تتواجد حيثما يتواجد الماء ، ولست أرى أدنى أثر للماء .

أوقفت (المستكشف - ١) محركاتها كلها وراحت تدور فى بطء ، حول الكوكب (س - ٣) ، فى نفس الوقت الذى انطلقت فيه منها أربع سفن فضائية صغيرة ، أشبه بطائرات مقاتلة ، واتخذت طريقها فى تشكيل متوازن نحو الكوكب ، وهى تضم أربعة من رواد الفضاء العرب .. (رائد) ، و(سالم) ، و(قاسم) ، و(سيف) ، وانطلقت مقاتلة (رائد) الفضائية فى المقدمة ، وخلفها المقاتلات الثلاث الأخرى ، فى تشكيل أشبه بالمثلث ، و(رائد) يقول لرفاقه الثلاثة ، عبر جهاز اتصال فضائى خاص :

- سنهبط جميعًا على سطح الكوكب بإذن الله ، وستتم عملية البحث والاستكشاف فى ثلاثة محاور ، وسيبقى (سالم) بمقاتلته لحماية المقاتلات الأخرى ، بعد أن نستكشف السطح معًا .

ولكن كل شىء بدا مقفرا ساكنًا تمامًا ..

وكان الضوء أضعف مما ينبغى ، بسبب بعد الكوكب عن أية شموس أو نجوم ، ودرجات الحرارة منخفضة للغاية ، ولم يكن

الكوكب يحوى سوى بعض الصخور ، من مختلف الأشكال والأحجام ، تناثرت على نحو غير منتظم ، عبر سطحه كله بلا استثناء ..

وبعد جولة طويلة ، قال (رائد) لرفاقه :

ـ استعدوا للهبوط فى تلك المنطقة الواسعة هناك .

تبعه الثلاثة بمقاتلاتهم ، حتى البقعة التى أشار إليها ، وتم هبوطهم عموديًا فى هدوء ، ثم غادر الجميع مقاتلاتهم الفضائية ، فى أزياء الفضاء الخاصة ، وكل منهم يحمل مسدسًا ليزريًا ..

وقال (رائد) :

ـ سأبحث أنا فى سلسلة الجبال الأمامية هذه ، وسيفحص (قاسم) هذا التل إلى اليمين ، و (سيف) ذلك الكهف إلى اليسار ، فى حين ستبقى يا (سالم) لحراسة المقاتلات .

تطلّع (رائد) إلى سلسلة الجبال الممتدة أمامه ، وعدّل جهاز الرؤية الخاص فى خوذته ، ليتيح له رؤية أفضل ، وسط تلك الكهوف العديدة ، التى تنتشر وسط الجبال ، وسأل نفسه فى حذر :

ـ ترى هل أصاب الكمبيوتر ، فى تحليله لسطح الكوكب ، أم أن ما رآه لم يكن سوى ظاهرة طبيعية للكوكب ، غير مسجلة فى ذاكرته الإليكترونية ؟!

وتنهّد فى عمق ، وهو يتقدّم نحو أحد الكهوف فى حذر ، ولكن جهاز الاتصال فى خوذته تلقى فجأة صوت (سيف) ، وهو يهتف :

ـ (رائد) .. (قاسم) .. هذه الكهوف ليست طبيعية .

توقّف (رائد) ، وسأل (سيف) فى قلق :

ـ ماذا تعنى بأنها ليست طبيعية يا (سيف) .

بدا صوت (سيف) شديد التوتر والانزعاج ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك تصور هذا يا (رائد) .. انه مدهش بحق .

صاح به (رائد) :

ـ ما هذا الأمر يا (سيف) ؟ ما هو ؟

ولكن (سيف) صاح فجأة :

ـ رباه ! إنهم يحيطون بى يا رفاق .. أشعة الليزر لاتؤثر فيهم .. النجدة يا رفاق .. النجدة .

ثم انقطع الاتصال بغتة ..

ولم يدر (رائد) كيف تحرّك بعدها ، ولكنه وجد نفسه بعد دقيقة واحدة أمام ذلك الكهف ، الذى أطلق منه (سيف) صرخته ، وهناك وجد (سالم) و(قاسم) وصاح به (سالم) :

ـ هل التقطت صرخة (سيف) ؟ ماذا أصابه ؟ ومن هؤلاء الذين يحيطون به ؟

صاح به (رائد) :

ـ لا وقت للتساؤل .. فلنلحق به أولاً .

اندفع الثلاثة داخل الكهف العميق ، وانطلقوا يعدون داخله فى قلق ، حتى صاح (رائد) فى توتر :

ـ ولكن .. ولكننا بلغنا نهاية الكهف ، ولا يوجد أثر لـ(سيف) !!

كان الكهف ينتهى بجدار صخرى ضخم ، من كتلة واحدة ،

وإلى جواره كتل أخرى من الصخور ، بحث الثلاثة حولها فى توتر .

مضت لحظات ثقيلة رهيبة من الصمت ، والثلاثة يحدِّقون فى تلك البقعة ، التى تركوا فيها مقاتلاتهم منذ قليل ، ثم قطع (قاسم) هذا الصمت . هاتفًا ؟!

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

أجابه (رائد) فى توتر ، يحوى شيئًا من الغضب :

ـ لقد اختفت المقاتلات .. هذا كل ما أعرفه الآن .

قال (سالم) فى انفعال :

ـ لا بد أن نتصل بسفينة الفضاء .. هذا الكوكب يحوى شيئًا رهيبًا . لا قبل لنا به .. فليرسلوا إلينا مقاتلة كبيرة تعيدنا إلى السفينة ، قبل أن يلتهمنا هذا الكوكب القاتل .

تنهَّد (رائد) وقال ...

ـ لن يمكننا هذا للأسف ، فالسفينة الآن تدور حول النصف الآخر للكوكب ، وأجهزة الاتصال فى خوذاتنا محدودة .. لا يمكنها الاتصال بالسفينة ، وأجهزة الاتصال الوحيدة ، التى كان يمكنها هذا ، اختفت مع المقاتلات .

هتف (قاسم) :

ـ ماذا تعنى يا (رائد) ؟ هل أصبحنا سجناء هنا ؟!

أجابه (رائد) :

ـ لثلاث ساعات فحسب ، حتى تدور السفينة حول النصف

الآخر للكوكب ، ثم تعود إلى هنا .. فى هذه الحالة قد يمكننا الاتصال بها ، بوساطة أجهزة الاتصال المحدودة فى خوذاتنا ، لو التقطت أجهزة الاستماع الفائقة الحساسية إشارتنا .

قال (سالم) متوترًا :

ـ ثلاث ساعات ؟! إننا لم نتم ساعة واحدة هنا ، وفقدنا (سيف) ، ومقاتلاتنا الأربع كلها ، فماذا يمكن أن يحدث لنا ، فى ثلاث ساعات أخرى ؟!

أدار (رائد) عينيه فى حيرة ، فى ذلك المناخ الساكن المحيط بهم ، قبل أن يقول :

ـ إن هذا الكوكب يحوى نوعًا من الحياة .

هتف (قاسم) فى دهشة :

ـ الحياة ؟! أية حياة هذه ؟! أن كل ما يحيط بنا جامد ساكن تمامًا ، وما من شىء يتحرَّك ، حتى الهواء .

التقى حاجبا (سالم) ، وهو يقول :

ـ من قال هذا ؟

التفت إليه (رائد) و (قاسم) فى تساؤل . فاستطرد فى توتر واضح :

ـ لقد لمحت شيئًا يتحرَّك هنا .

تبادل (رائد) و (قاسم) نظرة دهشة بالغة . قبل أن يهتف (رائد) :

ـ أى شىء هذا ؟ ولماذا لم تخبرنا من قبل ؟

أجابه (سالم) .

ـ لم أكن واثقًا تمام الثقـة ، فقد لمحت بطرف عينـى شيئًا يتحرك إلى يسارى ، وعندما التفت إليـه لم أجد شيئًا .. فقط صخورًا وأحجارًا ساكنة .

غمغم (قاسم) :

ـ ربما خيِّل إليك هذا .

هزَّ (سالم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلا .. أنا واثق مما رأيت .. إنه لا يمكن أن يكون ظلاً ، أو انعكاسًا لشىء مـا على خوذتـى ، فلا يوجـد مصدر ضوئـى قريب كما تعلمان .

بدا الاهتمام الشديد على وجه (رائد) ، وهو يقول :

ـ ربما كان ما رأيته صحيحًا يا (سالم) .

قبل أن يتم عبـارته ، انبعث من جهـاز الاتصـال فجأة صوت (سيف) وهو يهتف :

ـ (رائد) .. (سالم) .. (قاسم) .. هل يسمعنى أحدكم ؟

وهتف (قاسم) فى انفعال :

ـ إنه (سيف) .. يا إلهى ! إنه هو .

ألقى (رائد) الحصى من يده ، وهبَّ واقفًا ، وهو يقول فـى انفعال ، عبر جهاز الاتصال .

ـ (سيف) .. إننى أسمعك جيدًا يا صديقى .. أين أنت ؟!

أجابه صوت (سيف) :

ـ هنا .. داخل الكهف .

هتف (قاسم) :

ـ داخل الكهف ؟! كيف يا (سيف) ؟ لقد فتشنا المكان جيدًا ، ولم نعثر على أدنى أثر لك ؟!

أجابه الصوت :

ـ ولكننـى لم أغادر مكانى قط .. لقد انقطـع اتصـالى بكم فحسب ، ويبـدو أننـى فقدت الوعـى بعض الوقت بسـبب مـا ، ولكننى بخير .. كل شىء على ما يرام .

قال (رائد) :

ـ عد إذن يا (سيف) .. لا تبق داخل ذلك الكهف .

أجابه صوت (سيف) :

ـ لا يمكننى هذا يا (رائد) .. هناك شىء عجيب ، أريد أن تراه .. إنه أعجب شىء رأيته فى حياتى كلها يا (رائد) .

سأله (رائد) فى قلق :

ـ ما هذا الشىء يا (سيف) .

أجابه الصوت :

ـ لن تصدَّق هذا أبدًا يا (رائد) .. إنه ..

انقطع الاتصال بغتة ، وعاد الصمت إلـى الخـوذات . فتبـادل الرجال الثلاثة نظرات قلقة حائرة ، وقال (سالم) :

ـ هل تذهب إلى الكهف مرة أخرى ؟

أجابه (رائد) فى حزم .

ـ لن نذهب جميعًا . سأذهب أنـا و (قاسـم) وحدنـا هـذه المرة ، فى حين تبقى أنت هنا لمراقبة مدخل الكهف .

قال (سالم) فى توتر :

ـ حسن .. لكن احرصا على بقاء الاتصال بيننا طيلة الوقت .

أجابه (رائد) ، وهو يتجه مع (قاسم) إلى مدخل الكهف .

ـ سنفعل .

راقبهما (سالم) فى قلق ، وهما يتجهان إلى الكهف ، ثم يختفيان داخله ، فالتقط نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ هذا الكوكب يحوى شيئًا غامضًا .. لست أشعر بالارتياح فيه .

تلفت حوله فى حذر وقلق ، وانقبضت أصابعه فى شدة ، على مقبض مسدسه الليزرى ، والانفعال يعصف نفسه .

وفجأة لمح تلك الحركة السريعة ، من طرف عينيه ، فالتفت إلى مصدرها فى عصبية ، وأطلق أشعة مسدسه نحو صخرة قريبة ، ولكن الأشعة ارتطمت بالصخرة ، وانعكست عنها فى عنف ، دون أن تصيبها بالضرر ، فى حين بدا المشهد كله ساكنًا صامتًا ، كما كان من قبل ، فسرت فى جسده ارتجافة عنيفة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟! أنا واثق من رؤيتى لشىء يتحرك هذه المرة .. لا يمكن أن أكون مخطئًا .. مستحيل .

كان كل شىء من حوله يوحى بالصمت والسكون ، إلا أنه شعر فجأة وكأن جسمًا يقترب منه . فدار حول نفسه فى سرعة ، واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يهتف .

ـ هذا مستحيل مستحيل !!

وحاول أن يرفع مسدسه الليزرى فى سرعة ، ولكن ضربة قوية أصابت كفه ، وأطاحت بالمسدس ، فتراجع فى حركة حادة عنيفة ، وضغط زر جهاز الاتصال ، هاتفًا .

ـ (رائد) .. (قاسم) .. لقد عرفت السر .. إن الـ ...

وانقطع الاتصال مرة واحدة ، مع تلك الهالة التى أحاطت بجسده ، و ..

عاد السكون يحيط بكل شىء على السطح ..

★ ★ ★

خطا (رائد) و (قاسم) داخل الكهف المظلم العميق ، فى حذر شديد هذه المرة ، وتمتم (قاسم) ، وهو يضبط مؤشر جهاز الرؤية الخاص فى خوذته :

ـ أتظننا نجده ؟

أجابه (رائد) فى اقتضاب :

ـ لست أدرى .

كان يرغب فى التحدث أكثر ، لينقل إلى زميله كل ما يشعر به فى أعماقه ، إلا أن شيئًا ما منعه من الاسترسال ، وكأنما يخشى أن يكون هناك من ينصت إلى حديثهما ، أو يتجسس عليهما ، فواصل سيره إلى جوار (قاسم) فى صمت ، وبدا لهما الكهف وكأنما تحول إلى أسطوانة مخيفة ، لا نهاية لها ، حتى بلغا تلك الجدار الصخرى مرة أخرى ، والصخور الضخمة المحيطة به ، وقال (قاسم) فى توتر :

ـ كما توقعت تمامًا .. لا يوجد أدنى أثر لـ (سيف) .

ثم أضاف فى عصبية :

ـ كيف أمكنه الاتصال بنا إذن ؟

تلفّت (رائد) حوله فى حذر ، وهو يقول :

ـ هذا لو أنه هو الذى اتصل بنا .

التفت إليه (قاسم) فى تساؤل مذعور ، فتابع (رائد) فى حزم :

ـ لقد شعرت بهذا منذ البداية .. لم يكن صوت (سيف) بشريًا خالصًا ، كما اعتدنا سماعه ، بل كانت به رنة شبه معدنية ، مثل تلك التى تتميز بها أجهزة الكمبيوتر الناطقة .

سأله (قاسم) بصوت مرتعد :

ـ ما الذى يعنيه هذا يا (رائد) ؟

عاد (رائد) يتلفّت حوله فى تحفّز ، وكأنما يتوقّع هجومًا غامضًا ، وهو يجيب فى لهجة حاسمة حازمة :

ـ يعنى أن الذى سمعناه ليس صوت (سيف) ، وإنما هو تقليد متقن له ، بوساطة جهاز يشبه أجهزة الكمبيوتر لدينا .. جهاز يمكنه تحليل الصوت واللغة والنبرات ، وكل المعلومات فى أحاديث (سيف) ثم يعمل على تقليدها بشكل فائق الجودة ، يمكنه خداعنا ، وإقناعنا بأن الذى نتحدّث إليه هو (سيف) نفسه .

هتف (قاسم) :

ـ ولكنه كان يتعرّف أصواتنا ، ويجيب كلاًّ منا باسمه !

أجابه (رائد) :

ـ هذا جزء من المعلومات ، التى رصدها ذلك الجهاز ، فى أثناء تحدثنا معًا ، والتى يستخدمها الآن لخداعنا .

هتف (قاسم) وقد امتلأت نفسه برهبة شديدة :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا يفعل هذا ؟

أجابه (رائد) فى قلق :

ـ ليجذبنا إلى هنا .

تراجع (قاسم) ، وهو يتلفّت حوله ، قائلاً :

ـ (رائد) .. حديثك هذا لا يعنى أننا نواجه نوعًا من الحياة فحسب ، ولكنه يعنى أننا نواجه حضارة متطوّرة ، يمكنها التلاعب بنا وخداعنا ، وتمتلك فى الوقت ذاته عددًا من الأجهزة التكنولوجية المتطوّرة ، و ...

قطع حديثه صوت (سالم) ، وهو يهتف عبر جهاز الاتصال :

ـ (رائد) .. (قاسم) .. لقد عرفت السر .. أن الـ ...

ثم انقطع الاتصال ، فصاح (رائد) :

ـ أسرع يا (قاسم) .. (سالم) يتعرّض للخطر نفسه ، الذى اختفى بعده (سيف) .

انطلقا يعدوان إلى خارج الكهف واستعدّ كل منهما بمسدسه الليزرى للقتال ، وقفزا إلى الخارج ، و ...

وتجمدا فى دهشة وتوتر ..

لقد اختفى (سالم) أيضا ..

اختفى دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

وفى عصبية ، راح (قاسم) يتلفت حوله ، هاتفًا :

ـ ما الذى يحدث هنا يا (رائد) ؟ ما الذى يفعله هذا الكوكب بنا ؟!

ولكن (رائد) لم يحر جوابًا هذه المرة ، لأنه لم يكن لديه جواب .. أى جواب ..

★ ★ ★

بدت علامات القلق والحيرة شديدة الوضوح ، على وجه قائد سفينة الفضاء العربية ، وهو يتابع البيانات المتتالية ، التى تتراص بلا وقف ، على شاشة الكمبيوتر ، ثم لم يلبث أن غمغم فى حيرة ، وهو ينقر بأصابعه على مسند مقعده :

ـ ثم إن (رائد) ورفاقه لم يرسلوا أية رسائل ، منذ هبطوا على سطح الكوكب ، وهذا يتعارض مع القواعد المتبعة ، فى الأسطول الفضائى ، وأخشى أن يكون قد أصابهم مكروه ما ، منعهم من الاتصال .

بينما كان ينطق عبارته مضت لحظات متوترة رهيبة ، و(رائد) و(قاسم) يديران عيونهما فى سطح الكوكب الساكن الصامت ، بحثًا عن أى أثر ، يمكن أن يشير إلى (سالم) أو المقاتلات الضائعة ، قبل أن يقول (قاسم) فى مرارة :

ـ لقد أخطأنا بالهبوط على سطح هذا الكوكب ، قبل أن ندرسه جيدًا يا (رائد) .

قال (رائد) فى حدة :

ـ إنه واجبنا .

هتف (قاسم) :

ـ ولكننا كنا نجهل أى شىء عنه ، والكمبيوتر أيضًا لم يمنحنا جوابًا شافيًا .

لوَّح (رائد) بكفه ، قائلًا :

ـ مستحيل ! التفسير الوحيد لكل ما يحدث هو وجود نوع من الحياة العاقلة هنا .

ارتجف صوت (قاسم) ، وهو يقول :

ـ أو وحش رهيب .

ارتفع حاجبا (رائد) فى دهشة ، فتابع (قاسم) فى عصبية .

ـ نعم .. وحش مفترس رهيب ، يحيا تحت سطح هذا الكوكب ، مثل الديدان الأرضية ، التى تحيا فى تربة كوكب الأرض ، ويبرز فجأة على السطح ، ليلتهم فريسته ، ويعود مرة أخرى إلى مكمنه تحت السطح .

هَزَّ (رائد) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ فرضية مستحيلة يا رجل !

صاح (قاسم) :

- ولِمَ لا ؟! هذا يفسِّر اختفاء (سيف) داخل الكهف ، واختفاء (سالم) هنا ، وربما يفسِّر أيضًا اختفاء مقاتلاتنا ، فربما ظنها ذلك الوحش فريسة من فرائسه ، فالتهمها .

عاد (رائد) يهزُّ رأسه فى عنف ، قائلًا :

- قلت لك مستحيل ! مستحيل ! لا يمكن أن يحيا وحش كهذا الذى رسمه خيالك ، فى انتظار سفينة فضاء تهبط على سطح الكوكب يومًا ما ، ولن يحيا على كوكب لا أثر للحياة على سطحه ، ثم إن فكرة الوحش هذه لا تبرِّر صوت (سيف) الزائف ، الذى سمعناه جميعًا .

هتف (قاسم) :

- ومن أدراك ما طبيعة هذا الوحش ، وكيف يحصل على غذائه ؟! ربما يمتلك جهازًا صوتيًا خاصًا ، يمكنه بوساطته تقليد الأصوات ، كمحاولة لاجتذاب فرائسه ، التى يجذبها تحت السطح ، ويلتهمها ، و ..

قاطعه (رائد) ، وهو يهتف فجأة :

- تحت السطح ؟! يا إلهى ! بالتأكيد يا (قاسم) .. هذا هو التفسير المنطقى لكل ما يحدث هنا .

تطلَّع إليه (قاسم) فى دهشة ، وهو يقول :

- تفسير ماذا ؟!

أجابه (رائد) فى حماس :

- تفسير الغموض كله يا صديقى .. لم لا يكون هذا الكوكب ماهولًا بالفعل ، ولكن سكانه يقيمون تحت السطح ، ويقيمون

حضارتهم كلها هناك ، ولهم منافذ شتى ، تقودهم إلى السطح ، ومنها اختطفوا (سالم) و(سيف) ، ومقاتلاتنا الفضائية الأربع .

امتقع وجه (قاسم) وهو يقول :

- فكرة منطقية ، ولكنها مخيفة فى الوقت ذاته يا (رائد) فصحتها تعنى أننا قد أصبحنا لا حول لنا ولا قوة ، فى مواجهة سكان هذا الكوكب ، بعد أن استولوا على مقاتلاتنا .

رفع (رائد) مسدسه الليزرى أمام وجهه ، وهو يقول فى حزم :

- ولكننا لن نستسلم على أية حال يا رجل ، مهما كان التفسير مخيفًا .

ثم أشار إلى الكهف ، مستطردًا :

- ولتعلم أن التفسير كله يمكن فى هذا الكهف .

تطلَّع (قاسم) إلى الكهف فى قلق ، وهو يقول :

- هل ستغامر بدخوله للمرة الثالثة يا (رائد) ؟

أجابه (رائد) فى حسم :

- لم يعد لدينا ما نخسره يا صديقى .. ثم إننا سندخله معًا هذه المرة ، فإما أن نتوصل معًا إلى كشف غموض هذا الكوكب ، أو نلحق بزميلينا ومقاتلاتنا ، فى مصيرهم .

سرت قشعريرة باردة فى جسد (قاسم) ، وهو يردِّد :

- مصيرهم ؟! يا لها من كلمة يا (رائد) .

ربت (رائد) على كتفه ، وقال :

- هيا يا صديقى .. ليس أمامنا سوى أن نواصل القتال .

زفر (قاسم) فى توتر ، ولكنه لم يعترض ، وإنما تبع (رائد) إلى داخل الكهف ، وراح يسير إلى جواره فى حذر وجهاز الرؤية فى الظلام يتيح لهما التحرك داخل الكهف فى سهولة ، حتى بلغا ذلك الحائط الصلب ، فارتكن (قاسم) إلى واحدة من الصخور الضخمة ، التى تستند إلى الحائط . فى حين راح (رائد) يفحص الصخور والحائط فى عناية بالغة ، ثم لم يلبث أن أشار إلى أرضية الكهف قائلا .

- عجبًا .. هل لاحظت هذا يا (قاسم) ؟!

انحنى (قاسم) ينظر إلى حيث أشار (رائد) ، وقال :

- ما الذى ينبغى أن ألاحظه هنا ؟

أجابه (رائد) :

- الأرضية هنا تشبه الرمال الناعمة ، التى تجدها بالقرب من بعض الشواطىء وليس من الحصى ، كسطح الكوكب .

سأله (قاسم) فى حيرة :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

صمت (رائد) لحظات ، وهو يفحص الأرضية ، ثم قال :

- ربما يعنى الكثير ، فهذه الرمال أكثر نعومة من أية رمال أخرى عرفتها ، فى حياتى كلها .. إنها تشبه السكر المسحوق . أو الدقيق ، و ..

اتسعت عيناه فى دهشة ، واختنقت الكلمة فى حلقه ، وهو يحدق فى حفنة الرمال التى فى كفه ، فهتف به (قاسم) :

- ماذا حدث ؟!

هتف (رائد) بكلمة واحدة :

- الماء .

ارتفع حاجبا (قاسم) فى دهشة ، وانحنى يتطلع فى حيرة إلى حفنة الرمال الناعمة ، التى يحملها (رائد) ، قبل أن يهتف .

- أين هذا الماء ؟! انها مجرد رمال بيضاء ناعمة .

أجابه (رائد) فى انفعال :

- خطأ يا صديقى ، لقد رأيت بنفسى التماعة الماء ، وسط هذه الرمال الناعمة : إنها نوع من الجليد الجاف يا رجل انظر .

ضغط حفنة الرمال بيده فى قوة ، ثم فركها فى سرعة وتراجع (قاسم) فى دهشة بالغة عندما تحولت حفنة الرمال إلى مياه تراقصت لحظة فى كف (رائد) ثم لم تلبث أن عادت إلى هيئتها الأولى ، الشبيهة بالرمال البيضاء فهتف (قاسم) :

- إذن فهذا هو الماء ؟! يا للعجب لهذا ارتبك الكمبيوتر ، عندما استقبلت أجهزته خرير المياه ، ثم لم يعثر له على أدنى أثر ، فى الوقت ذاته .

قال (رائد) فى حماس :

- وهذا يعيدنا إلى القاعدة الأولى يا صديقى .. حينما يوجد الماء توجد الحياة .. لقد عثرنا على الماء ، وهذا يعنى أننا سنعثر بإذن الله (سبحانه وتعالى) على الحياة .

تلفت (قاسم) حوله فى قلق ، وعاد يستند إلى الصخرة الضخمة ، قبل أن يغمغم .

- أخشى أن تعثر هى علينا أولاً .

خيّل إليه أن (رائد) لـم يسمعه ، ورآه يتطلّع إلى الأرض فى اهتمام ، فسأله مرة ثانية :

- ألا تخشى أن تكون صورة الحياة هنا مخيفة يا (رائد) ؟

لم يجب (رائد) عن سؤاله ، وهو يقول :

- انظر .. إنها آثار أقدام (سيف) .

تطلّع (قاسم) إلى حيث يشير (رائد) الذى تابع فى انفعال ، وهو يتتبّع آثار الأقدام :

- هاهى ذى تسير إلى هنا .. ما بين تلك الصخرة الضخمة والحائط الصخرى .. لقد سار (سيف) إلى هناك ، ويبدو أنه فحص الحائط أولاً ، قبل أن يرسل إشارة الاستغاثة ويختفى تمامًا .

سمع صوت (قاسم) يتحرّك خلفه ، ولكنه واصل فى حماس :

- لقد وصل إلى هذه النقطة ، ثم لم يعد .. ما الذى أصابه هنا ؟ بل أين ذهب ؟ مستحيل أن يكون قد اختفى هنا .. أليس كذلك .

لم يسمع جوابًا من (قاسم) فالتفت إليه مكررًا .

- أليس كذلك يا (قاسم) ؟

ولكن الجملة اختنقت بين شفتيه ، وغصّ بها حلقه ، وهو يحدّق فى الصخرة الضخمة ، التى كان يستند إليها (قاسم) منذ لحظة ، دون أن يجد أدنى أثر لزميله (قاسم) نفسه ..

لقد اختفى (قاسم) ، ولحق بزميليه (سالم) و (سيف) ، وبقى (رائد) وحيدًا فوق سطح ذلك الكوكب .. الكوكب الغامض ..

★ ★ ★

اعتدل قائد سفينة الفضاء العربية فى حركة حادة ، ومال إلى الأمام فى اهتمام شديد ، وهو يتابع شاشة الكمبيوتر الخاص ، فأسرع إليه رجل الطاقم ، وسأله :

- ما الذى توصّل إليه ؟

هزّ القائد رأسه قائلاً :

- نتائج عجيبة ، فهو يقول : إن الماء يوجد على سطح الكوكب (س - ٣) ولكن ليس بالصورة السائلة ، التى نعرفها ، ولا حتى فى صورة ثلوج أو جليد عادى ، ولكن فى صورة جديدة لا تعرفها العلوم الأرضية ، وهو يتحوّل فى هذه الصورة إلى صورته السائلة بعض الوقت وتحت ظروف خاصة ، ثم يعود مرة أخرى إلى صورته الجديدة .

قال القائد فى توتر :

- على أية حال ، سيبلغنا (رائد) كل ما لديه ويجيب تساؤلاتنا ، عندما يعود مع رفاقه إلى هنا .

وألقى نظرة طويلة على جهاز الاتصال الذى ظلّ صامتًا ، منذ هبط (رائد) وفريقه على الكوكب (س - ٣) وأضاف :

- هذا لو عادوا ..

★ ★ ★

تجمَّد (رائد) فى مكانه طويلاً ، وهو يحدِّق الصخرة الضخمة ، التى اختفى عندها (قاسم) .

ثم قال فى توتر شديد :

ـ اختفى !! (قاسم) أيضًا اختفى .

وفى خطوات سريعة راح يتحرك عبر الممر الطويل ، وتسارعت خطواته أكثر وأكثر ، حتى صارت أقرب إلى العدو ، إلى أن غادر الكهف وواجه سطح الكوكب ، بكل صمته وسكونه وغموضه ، وخيل إليه أن الصخور كلها تتطلع إليه ، وتقهقه فى سخرية وشماته ، بعد أن صار وحيدًا ، عاجزًا ..

وفى أعماقه تفجرت عشرات المشاعر والانفعالات ، وعقله يستعيد كل لحظة مرت به ، منذ هبط مع رفاقه الثلاثة إلى سطح الكوكب ، وحتى هذه اللحظة ، وصاح عبر جهاز الاتصال :

ـ من (رائد) إلى (المستكشف ـ ١) .. هل تسمعنى ؟ أجب أيها (المستكشف ـ ١) ..

ولكن ما من مجيب ..

لقد اندمج صمت الدنيا كله ، واجتمع على سطح الكوكب (س ـ ٣) ، فى هذه اللحظات ، حتى شعر (رائد) وكأنه أصبح جزءًا من الصورة الفوتوجرافية الثابتة ، التى بدت له فى البداية ، عندما هبط على سطح الكوكب ..

ومرة أخرى راح عقله يسترجع كل الصور والمشاهد والأحداث ..

ثم تألقت عيناه فى شدة ..

وفى هذه المرة هتف بكل انفعالاته :

ـ إذن فهذا سرك أيها الكوكب !!

عاد يدير عينيه فى المكان كله ، ثم التقط من حزامه قنبلة فى حجم بيضة عادية ، ولكنها ذات قوة تدميرية رهيبة ، وأسرع نحو سلسلة الجبال المواجهة له ، ووضع القنبلة أمامها ، ثم ركض مبتعدًا ، إلى حيث هبطت المقاتلات فى البداية ، وتوقف هاتفًا :

ـ كشفت أمرك يا كوكب الغموض .

وانتزع من حزامه جهازًا صغيرًا ، رفعه بيده عاليًا ، وهو يهتف :

ـ أعلم أنكم قد ترجمتم لغتى وعرفتموها ، ويمكنكم فهم حديثى الآن .. هل تعرفون ما هذا الشىء الذى أمسكه بيدى ؟ إنه مفجر آلى ، ينقل إشارة تفجير مباشرة إلى تلك القنبلة ، التى وضعتها أمامكم ، وبضغطة واحدة عليه تنفجر القنبلة ، وهى نوع من القنابل الذرية المحدودة ، وانفجارها سينسف دائرة قطرها كيلو متر كامل .. هل تفهمون ؟! أعلم أن هذا الانفجار سيقتلنى ، ولكنه سيضيركم أيضًا بالتأكيد .

صمت منتظرًا رد فعل واضحًا ، ولكن كل شىء من حوله بقى ساكنًا .

ـ دقيقة واحدة ، قبل أن أضغط زر التفجير .

ظل كل شيء حوله على سكونه وصمته لحظات ، فصاح .

هذا ليس مزَاحًا .

كان صوته هذه المرة يحمل صرامة بلا حود ، وأصابعه تحيط بالمفجر فى قوّة وصلابة ، توحى بأنه لن يتردّد فى تفجير القنبلة بالفعل ..

وفجأة حدث أمر بالغ الغرابة ..

لقد تراقص حصى الأرض فجأة فى عنف ، ثم اندفع من بينه جسد (سالم) ، الذى سقط أمام (رائد) ، وهو يهتف :

ـ أخيرًا .

هتف به (رائد) :

ـ ألنت بخير يا (سالم) ؟!

نهض (سالم) فى توتر ، وأدار عينيه حوله فى ذعر ، هاتفًا :

ـ لقد أطلقوا سراحى .. لست أدرى لماذا فعلوا ؟! ولكنهم فحصونى جيدًا ، كما لو كنت حيوانًا عجيبًا ، ثم أطلقوا سراحى بغتة .. ماذا يحدث يا (رائد) ؟!

أجابه (رائد) فى حزم :

ـ لقد انكشف أمرهم .. انكشف كل شيء يا رجل .

سمع الاثنان فجأة صوت سعال حاد ، ينتقل عبر جهاز الاتصال ، أعقبه صوت (سيف) يهتف :

ـ هل تسمعوننى يا رفاق ؟ أنا (سيف) .. لقد أعادونى .. هل يسمعنى أحدكم ؟! ألنتم على قيد الحياة !

هتف (سالم) :

ـ إنهم يقلدون (سيف) مرة ثانية .

أجابه (رائد) فى ارتياح :

ـ بل هو (سيف) الحقيقى .. حمدًا لله .

سمع الاثنان صوت (سيف) يهتف :

ـ ها هو ذا (قاسم) .. لقد أطلقوا سراحه أيضًا .. سنغادر هذا الكهف بسرعة .

هتف (سالم) :

ـ ماذا يحدث يا (رائد) ؟

أجابه (رائد) بصوت تفوح منه رائحة ظافرة :

ـ لقد انتصرنا يا رجل .. انتصرنا على الكوكب الغامض .

لم تمض لحظات حتى ظهر (قاسم) و (سيف) عند مدخل الكهف ، وتوقفا لحظة ، ثم اندفعا نحو (رائد) و (سالم) ، وهتف (قاسم) فى دهشة .

ـ ماذا فعلت بهم يا (رائد) ؟ لقد أعادونا ، وأعادوا كل شيء .. كل شيء يا (رائد) .

قالها وهو يشير إلى نقطة ما خلف (رائد) ، الذى التفت فى سرعة ، وارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، عندما وقع بصره على المقاتلات الأربع ، تقف لامعة شامخة خلفهم ، وقال :

ـ عجبًا ! كيف عادت دون صوت واحد :

ولكن (قاسم) قطع أفكاره ، وهو يهتف به :

ـ ماذا فعلت بهم (يا رائد) ؟

أجابه (رائد) فى ارتياح :

ـ كشفت أمرهم يا رجل .. كشفت لغز الكوكب الغامض ، الذى حاول قتلنا .

تردد عبر أجهزة اتصالهم جميعًا صوت يقول :

ـ لم نكن نقصد هذا أبدًا .

ارتجف (سالم) ، وهو يهتف :

ـ من هذا ؟! من الذى يتحدث ؟

أشار (رائد) إلى كل الصخور المحيطة به . قائلاً :

ـ إنه أحدهم يا رجل .. أحد سكان الكوكب المحيطين بنا .

هتف فى ذعر :

ـ سكان الكوكب ؟! وكيف يبدو سكان هذا الكوكب ؟ لقد شعرت بهم ، ولكننى لم أر أحدهم .. لقد أفسدوا عمل جهاز الرؤية فى الظلام ، ولم أر من يفحصوننى .

قال (سيف) و (قاسم) :

ـ نحن أيضًا لم نر من أسرونا .. كيف يبدون يا (رائد) ؟

عاد (رائد) يشير إلى الصخور المحيطة به ، قائلاً :

ـ ها هم أولاء .

وفجأة تحركت صخور الكوكب (س ـ ٣) ، واتخذت أشكالاً شبه بشرية ، أحاطت بهم من كل جانب ، ونهضت بعض الصخور ، عند قاعدة سلسلة الجبال ، وبدا وكأن جيشًا من

الصخور قد أحاط بالرجال الأربعة ، فى حين تردد صوت معدنى عبر أجهزة الاتصال فى خوذاتهم ، يقول :

ـ لم نقصد الإساءة إليكم ، ولكننا كنا ندافع عن أنفسنا ، ونتعامل معكم فى حذر ، حتى نتبين نواياكم .

تراجع (سالم) هاتفًا فى ذعر :

ـ ما هذا ؟! هل دبت الحياة فى الصخور ؟!

أجابه (رائد) :

ـ لله (سبحانه وتعالى) فى خلقه شئون يا صديقى .

وقال (سيف) مبهوتًا :

ـ لقد أصابنى الرعب ، عندما انفتحت تلك الصخرة الضخمة وابتلعتنى ، ثم احتوانى ظلام دامس ، وشعرت بأياد تفحصنى ، ولكننى لم أتصوَّر أبدًا أننى أسير لمخلوقات فى صخر ، على الرغم من الصخور التى هاجمتنى فى الكهف .. لقد تصوَّرتها مجرَّد خدعة .

تمتم (قاسم) فى رهبة :

ـ وأنا أيضًا .

تردَّد الصوت المعدنى عبر أجهزة الاتصال ، وهو يقول :

ـ نحن أيضًا شعرنا بالحيرة نفسها ، عندما رأينا أجسامكم ، ولم نتصوَّر أبدًا أنه توجد فى هذا الكون مخلوقات تختلف عنا ، وأصابنا فحصكم بمزيد من الدهشة ، فأجسامكم لينة وهشة للغاية ، ولكن عقولكم فائقة الذكاء ، بدليل أنكم نجحتم فى التوصل إلى حقيقتنا .

هتف (سالم) :

ـ حقًا يا (رائد) ، كيف أمكنك هذا ؟

هزّ (رائد) كتفيه ، وقال :

ـ أطلقت العنان لخيالى وتفكيرى ، بحثًا عن صورة الحياة ، التى يمكن أن تخدع الكمبيوتر ، وتخدعنا أيضًا فى الوقت ذاته . ووجدت أمامى هذه الصخور ، المنتشرة فى كل مكان ، فربطت هذا بذاك ، وتوصّلت إلى الحل .

تردّد الصوت المعدنى ، يقول :

ـ عظيم .. عقلية فائقة بالفعل .

فسأله (رائد) :

ـ أنتم تستخدمون مترجمًا آليًا .. أليس كذلك ؟

أجابه الصوت المعدنى :

ـ هذا صحيح .. لقد فحصنا عقول رفاقك ، وتوصلنا إلى لغتكم ، وغذينا بها مترجمنا الآلى ، وهو الذى يترجم الآن أحاديثنا لكم ، والعكس بالعكس .. ولقد علمنا أيضًا أنكم أفراد بعثة خاصة ، تبحث عن الحضارات فى الكون ، وكم يسعدنا أن نلتقى بكم ، فهذا منعطف تاريخى فى حياة كوكبنا .. لقد رصدنا بأجهزتنا سفينتكم ، وهى تقترب من كوكبنا ..

قال (سالم) فى دهشة :

ـ أتعنى أن لديكم أجهزة وآليات متطورة ؟

أجابه الصوت :

ـ بالطبع .. ربّما تختلف هيئتها عن هيئة الأجهزة والآليات المعروفة فى كوكبكم ، ولكنها تعمل بكفاءة مناسبة .

فى هذه اللحظة ظهرت سفينة الفضاء العربية (المستكشف ـ ١) فى الأفق ، فأضاف الصوت المعدنى :

ـ ها هى ذى سفينتكم الأم تعود .. لا ريب أن ركابها سيصابون بدهشة بالغة ، عندما يرون ما يحدث على سطح كوكبنا الآن ، ولكنها ـ كما أخبرتكم ـ لحظة تاريخية .. ستفيد كثيرًا فى إثبات ، ما ينادى به بعض علمائنا منذ زمن حول حتمية وجود مخلوقات عاقلة فى كواكب أخرى .

ابتسم (رائد) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ أنت على حق يا صاحب الصوت .. إنها لحظة تاريخية فى حياة الكواكب .. كل الكواكب المأهولة ..

وعلى الرغم من تلك الوجوه الصخرية التى تحيط بـ (رائد) وفريقه .. شعر الجميع بأنهم يتبادلون ابتسامة .. ابتسامة صداقة .

★ ★ ★

« مدهش .. »

نطقها قائد سفينة الفضاء العربية ، وهو يدير آلاتها بعد عودة (رائد) وفريقه إليها وأضاف فى حماس :

ـ من يصدّق هذا .. لقد عثرنا على أول كوكب مأهول ، خارج منظومتنا الشمسية ، ولكن النتيجة جاءت مدهشة



أكثر مما كنا نتوقعها مخلوقات من صخر ؟! يالعظمة الخالق (عزّ وجلّ) .

أجابه (رائد) ، وهو يتخذ مجلسه جواره :

- أنت على حق .. الله (سبحانه وتعالى) قادر على خلق أشكال لا حصر لها من المخلوقات تفوق أقصى ما يمكن أن يصل إليه خيالنا .

قال (رائد) ، وهو يضغط أزرار كمبيوتر الانطلاق :

- هذا صحيح يا سيّدى .. هل أبلغت هذا للأرض ؟

أجابه القائد :

- بالطبع .. ولكننا لن نعرف ردّ فعلهم قبل ست ساعات على الأقل .

قال (رائد) :

- أو أكثر .. لا تنس أننا ننطلق بسُرعة تفوق سُرعة الضوء .

ضحك القائد ، قائلاً :

- هذا يعنى أن الرسالة ستلهث .. قبل أن تلحق بنا .

ثم ضغط الأزرار النهائية ، قائلاً :

- فليستعد الجميع .. سننطلق .

وانطلقت (المستكشف - ١) تشق الفضاء ،نحو كوكب جديد .. ومغامرة جديدة .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

١ - تكنولوجيــا ..

عبرت سيارة (باسل) الرياضية الصغيرة شوارع العاصمة الفرنسية (باريس) ، فى تلك الساعة المبكرة ، متجاوزة برج (إيفل) الهائل ، ومتجهة نحو شارع واسع ، ثم لم تلبث أن توقفت أمام مبنى أنيق حديث ، حمل لافتة ضخمة مثيرة ، حملت بدورها عبارة : « معرض تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين » .

وفى هدوء غادر (باسل) سيارته ، وصعد فى درجات سلم صغير ، من الرخام الوردى ، ورأى فى نهايته رجلاً وقورًا يسرع إليه ، ويمد يده لمصافحته ، قائلاً :

- (باسل) حسبما أعتقد .. أليس كذلك ؟ مرحبًا بك فى معرض تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين . أنا المشرف على المعرض .. إننا جميعًا فى انتظارك .

رفع (باسل) حاجبيه فى دهشة ، وقال :

- جميعًا .. عجبًا !! كنت أظننى أوّل من وصل إلى هنا ، فالوقت مبكر للغاية .

ضحك المشرف ، وهو يقول :

- يبدو أن الأمر مثير للغاية ، فالجميع هنا منذ أوّل ضوء للنهار .

عبرا بوّابة المعرض ، والمشرف يواصل :

- ستلاحظ منذ الوهلة الأولى أن كل شىء هنا آلىّ .. الأبواب .. نظم الأمن .. المراقبة .. وحتى وسائل العرض .

سارا عبر صالة واسعة ، اكتظت بالأدوات والوسائل التكنولوجية الحديثة ، واتجها نحو أربعة من الرجال ، وقفوا ينتظرون قدومهما ، وقال المشرف :

- زميلنا العربى (باسل) .. الذى سيشاركنا هذا العرض الخاص ، قبل الافتتاح الرسمى للمعرض ، وهؤلاء (آرثر) من (إنجلترا) ، و (جان) من (فرنسا) ، و (هاينز) من (ألمانيا) و (أنطونى) من (إيطاليا) .

تصافح الجميع فى حرارة ، والمشرف يراقبهم بابتسامة كبيرة ، ثم قال :

- والآن أيها السادة ، استعدوا لمشاهدة أحدث تكنولوجيا أنتجتها عقول المبدعين فى العالم .. تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين .

ساروا إلى جواره ، وهو يشير إلى أحد أركان المعرض ، قائلاً :

- هنا ستجدون أجهزة فصل الألوان والطباعة الحديثة .. كلها فى قالب واحد ، يشبه آلات تصوير المستندات الحديثة ، يكفى أن تضع الصورة الملوّنة داخله ، فيفصلها إلى أربعة أفلام مختلفة ، ثم يطبع منها مئات وآلاف النسخ الدقيقة ، فى زمن

قياسى ، فقدرته الإنتاجية تتجاوز العشرة آلاف نسخة ، فى الساعة الواحدة ، والجديد هو البساطة المتناهية لتشغيله ، فصبى فى العاشرة من عمره يمكنه إنتاج مجلة كاملة وحده .. أما هذا ، فهو المطبخ الإليكترونى الحديث .. مطبخ القرن الحادى والعشرين .. كل شىء فيه آلىّ .. تحلية المياه ، والطهى بوساطة الموجات الصوتية الفائقة التردد ، والإشعال الفورى بأشعة الليزر ، و ..

مضى يشرح كل ما يقابلهم من منتجات التكنولوجيا الحديثة ، حتى بلغ ركنا تخفيه ستارة سميكة ، وتوقف قائلا :

- والآن تحفة المعرض ، أقوى جزء من التكنولوجيا ، وأغلاها سعرًا ..

وضغط زرًا صغيرًا ، فانزاحت الستارة فى بطء ، لتكشف عن ثلاثة من الآليين ، فى ثياب معدنية حمراء زاهية ، وكل منهم يحمل مسدسًا عجيبًا فى جرابه ، وقد جمدت ملامحهم الآلية فى برود مخيف ، وحملت صدورهم علامة خاصة ، أشبه بمثلث مختلف الألوان ..

وهتف (آرثر) مبهورًا :

- ما هذا بالضبط ؟

أجابه المشرف فى زهو :

- تحفة المعرض .. المقاتلون الآليون .. أعظم الابتكارات الحربية فى القرن الحالى ، ونواة الجيوش الآلية فى القرن

القادم .. المقاتل الواحد من هؤلاء تكلّف صنعه ثلاثة ملايين دولار ، وهو منيع ضد الرصاصات ، والأسلحة البيولوجية والكيماوية ، ويمتلك القدرة على رصد خصومه بكل السبل والوسائل الممكنة ، فهو يراهم بوساطة أجهزة فيديو خاصة ، ويسمعهم بقدرة فائقة على التقاط أصغر وأدق الأصوات ، ويرصد حرارة أجسادهم بجهاز التقاط حرارى خاص ، أما مسدسه ، فهو تحفة مزدوجة ، إذ إنه يطلق رصاصات عادية ، بخزانة تشبه خزانة مدفع آلى ، ويطلق فى الوقت ذاته أشعة الليزر القاتلة .. باختصار .. إنه تحفة حربية لا مثيل لها .

تمتم (باسل) :

- ألم يكن من الأفضل إنفاق كل هذه الملايين ، فى سبيل صحة البشر وأمنهم وسلامهم ؟

ضحك (جان) ، وقال :

- ليس هذا ممكنا بالطبع ، فالدول لن تتردد فى إنفاق مليارات الدولارات لشراء المقاتلين الآليين ، ولكنها لن تنفق ربع هذا المبلغ من أجل الأمن والسلام .

قال (باسل) :

- ليست كل الشعوب كذلك .

هزّ (هاينز) كتفيه ، وقال :

- شعوبنا كذلك على الأقل .

ومطّ (أنطونى) شفتيه ، وقال فى شىء من الغرور :

- كل الدول العظمى كذلك .
ضحك المشرف ، وقال :
- ولكن المقاتلين الآليين ضرورة حتمية ، فالأسلحة تتطورّ بسرعة ، ولابد من مواجهتها بجيوش منيعة ، لا تتأثر بالغازات السامة ، والميكروبات القاتلة ، والأشعة النووية ، وغيرها ، و ..
بتر عبارته بغتة ، عندما ارتفع أزيز خاص ، جعله يلتفت بحركة حادة نحو حجرة المراقبة ، فى نهاية البهو ثم يقول :
- معذرة أيها السادة .. يبدو أن أحدهم قد تسلل إلى هنا .. سأذهب لرؤية ما حدث ، وأعود إليكم على الفور .
غادرهم فى خطوات سريعة متوترة ، ورأوه يختفى داخل حجرة المراقبة ، فقال (أنطونى) :
- تُرى من يتسلّل إلى هنا ؟
غمغم (آرثر) فى برود :
- لعله صبى عابث ، أو شاب فضولى .
ولكن (باسل) لم يشعر بالارتياح ..
لقد خيل إليه أنه قد رأى لمحة قلق ودهشة على وجه المشرف ، قبل أن يدلف إلى حجرة المراقبة الخاصة ..
لمحة توحى بأنه قد رأى شيئاً أثار ذعره وفزعه ، قبل أن يدخل الحجرة وفى حزم ، قال (باسل) :
- سأذهب لمعرفة ما حدث .
هزّ (هاينز) كتفيه ، وقال :

- لست أرى داعيًا لهذا .
وقال (جان) :
- ليس من اللائق أن نتدخَّل فى عمل المشرف .
ولكن (باسل) لم يهتم بهذه الاعتراضات ، إذ كان قلقه يفوق هذا بكثير ، فاتجه فى حزم إلى حجرة المراقبة ، وسمع (أنطونى) من خلفه يقول :
- انتظرنى .. سأصحبك .
لم ينتظره (باسل) ، وإنما أسرع الخطى نحو حجرة المراقبة ، ولم يكد يقترب منها حتى سمع صوت المشرف داخلها ، يقول فى عصبية .
- لا تظنوا أن خطتكم ستنجح .. هناك جهاز للأمن الذاتى .
أجابه صوت خشن :
- لا تجعل هذا يقلقك .. لقد أبطلنا عمل أجهزة أمن البوّابة مؤقتًا .. نحن خبراء فى هذا .
التصق (باسل) بجدار الحجرة ، وسمع (أنطونى) من خلفه ، يقول :
- ما الذى تتوقَّع أن ..
أشار إليه (باسل) فى صرامة أن يصمت ، وأطاعه (أنطونى) فى قلق ، واختلس (باسل) النظر داخل حجرة المراقبة ، ولمح ثلاثة رجال يصوبون أسلحتهم إلى المشرف ، فى حين سقط ضابط الأمن أرضًا ، مضرجًا فى دمائه ، وسمع المشرف يقول فى توتر :

لن تجدوا أية نقود هنا .. إننا لسنا جهة تجارية .

أجابه صاحب الصوت الخشن فى سخرية .

ومن قال إننا نريد نقودًا ؟

بدأ من الواضح أن المشرف يمر بمرحلة توتر عنيفة ، وهو يقول :

ماذا تريدون إذن ؟

أجابه صاحب الصوت الخشن :

المقاتلين الآليين .

شهق المشرف فى توتر ، وندت من (باسل) حركة عنيفة ، فهتف صاحب الصوت الخشن :

أحدهم بالخارج .

وقبل أن يتحرك (باسل) من مكانه ، رأى أحد المجرمين يقفز خارج حجرة المراقبة ، ويهتف .

ها هو ذا .

ثم صوّب إليه مدفعه الآلى ، و ..

وأطلّ الخطر ..

★ ★ ★

كان (باسل) أوّل من تحرّك ، عند ظهور المجرم ، فانقضّ عليه بسرعة خاطفة ، وأمسك معصميه ، ورفعهما إلى أعلى ، فدوت رصاصات المدفع الآلى ، وهى تنطلق نحو السقف ، وصرخ (أنطونى) فى هلع :

ـ ما هذا ؟ ماذا يحدث ؟

أما المجرم ، فقد قاوم (باسل) فى شراسة ، وهو يصرخ :

ـ اتركنى أو تنال ما تكره .

هوى (باسل) على فكه بلكمة قوية ، وهو يقول :

ـ وماذا أنال لو تركتك ؟ رصاصة ؟!

انتزع المجرم معصميه من قبضة (باسل) ، وتراجع بحركة حادة ، وعاد يصوب إليه مدفعه ، صائحًا :

ـ أصبت .. ستنال فيضًا من الرصاصات .

ولكن (باسل) وثب نحوه ، وركل المدفع الآلى من يده بحركة سريعة ، وهو يقول :

ـ أأنت واثق ؟

ثم لكم المجرم فى أنفه وفكه ، لكمتين متعاقبتين سريعتين ، وقفز نحو المدفع الآلى محاولاً التقاطه ، لولا أن ارتفع صوت خشن قاس ، يقول :

ـ افعلها .. لو أنك أسرع من رصاصات مدفعى .

توقف (باسل) على قيد متر واحد من المدفع الآلى ، والتفت إلى صاحب الصوت الخشن ، الذى يصوب إليه مدفعه فى غضب ، وإلى جواره وقف زميله ، مصوبًا مدفعه إلى رأس المشرف مباشرة ، فى حين نهض المجرم الثالث ، وهو يمسك أنفه المحطم ، ويصرخ فى غضب وثورة ::

ـ لقد حطم أنفى وأسنانى .. سأقتله .. سأقتله .

صاح به صاحب الصوت الخشن فى صرامة :
ـ اصمت يا هذا .
ولكن الرجل واصل فى ثورة :
ـ لقد فعلها .. جرؤ وفعلها .. فلنقتله ، ونجعله عبرة للآخرين .
صرخ صاحب الصوت الخشن :
ـ قلت : اخرس .
ثم التفت إلى (باسل) ، واستطرد فى حدة :
ـ هيا أيها العربى .. لقد انتهت لعبة البطولة .. انضم إلى رفاقك ، ودعنا ننه هذه العملية دون خسائر .
ثم قال للمشرف :
ـ أين جهاز الأمن الذاتى ؟
تطلع إليه المشرف فى صمت ، دون أن يجيب ، فاستدار إليه فى حركة سريعة ، وهوى على فكه بكعب مدفعه ، وصاح (باسل) :
ـ ليس هذا من حقك .
صوب إليه الآخران مدفعيهما ، وصاح ذلك الذى اشتبك معه (باسل) من قبل :
ـ هيا .. زد كلمة واحدة ، وامنحنى المبرر لتحويلك إلى مصفاة .
أما صاحب الصوت الخشن ، فقد كرر سؤاله للمشرف :

ـ أين جهاز الأمن الذاتى ؟
حاول المشرف منع الدماء التى تنزف من طرف شفته ، وهو يشير إلى جهاز كمبيوتر فى ركن المكان ، قائلاً :
ـ ها هو ذا .
أشار صاحب الصوت الخشن إلى أحد المجرمين ، قائلاً :
ـ نفذ ما اتفقنا عليه .
أسرع الرجل نحو الكمبيوتر ، وراح يضغط لوحة الأزرار فى سرعة ومهارة ، فى حين التفت صاحب الصوت الخشن إلى الجميع ، وقال فى غلظة :
ـ والآن أيها السادة ، سنغلق أبواب المعرض ، ونقطع كل خطوط الاتصال داخله لمدة ساعة ، لن يتمكن أحدكم خلالها من الخروج ، أو إجراء أى اتصال بالخارج ، وسيبدأ هذا بعد رحيلنا مباشرة .. أما الآن فلتتخذوا هذا الركن البعيد ، إلى جوار مدخل القبو ، حتى نحمل المقاتلين الآليين ، ونرحل من هنا ..
اتجه الجميع إلى الركن الذى أشار إليه ، وتمتم (آرثر) :
ـ لقد وضعوا خطتهم فى إحكام .
أجابه (باسل) : لا توجد جريمة كاملة :
قال (أنطونى) فى حدة :
ـ هذا لو أننا نواجه عصابة من اللصوص ، ولكنها منظمة إجرامية قوية .

وردد (هاينز) :

ـ لا مجال لديهم للخطأ .

قال (باسل) :

ـ حتى ولو كانوا دولـة عظمى .. اللّه (سبحانه وتعالى) أكبر وأعظم منهم .

تطلع إليه (جان) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ أما زلت تصر على الحصول عليهم ؟

لكزه الرجل فى كتفه ، قائلاً فى صراحة :

ـ هيا .

تردد المشرف لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ فليكن .. لم تترك لى سوى هذا .

ثم انحنى بسرعة ، قبل أن ينتبه أحدهم إلى ما يسعى إليـه ، وضغط زرًا فى جدار ركن المقاتلين الآليين ، فصاح صاحب الصوت الخشن :

ـ ماذا تفعل ؟

تراجع المشرف فجأة ، صارخًا :

ـ أنتم أردتم هذا .

رفع الرجل فوهة مدفعه نحوه ، وهو يهتف :

ـ ماذا فعلت بالضبط ؟

وهتف (باسل) :

ـ احترس أيها المشرف .

تراجع المشرف بسرعة ، ولكن قدمه تعثرت ، فسقط على ظهره فى عنف ، وصوب صاحب الصوت الخشن مدفعه إليه ، صائحًا :

ـ ستدفع حياتك ثمن شىء لا أفهمه .

ولكن فجأة ، تحرك أحد المقاتلين الآليين ، ورفع مدفعه ، فصاح أحد المجرمين الآخرين ، محاولاً تحذير ذى الصوت الخشن :

ـ احترس أيها الزعيم .

استدار صاحب الصوت الخشن فى سرعة ، نحو المقاتل الآلى ، واتسعت عيناه فى هلع ، عندما رأى فوهة مدفع آلى مصوبة إليه ، فتراجع مذعورًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ ما .. ما هذا .. ماذا فعلت أيها المشرف ؟

جحظت عيناه فى رعب هائل ، عندما تحركت أصابع الآلى على الزناد ، وصرخ :

ـ لا .. لا تفعلها .

ولكن الآلى لم يطع .. لقد ضغط الزناد بلا تردد ، و ..

وانطلقت الرصاصات ..

وأمام أعين الجميع ، أصابت الرصاصات صاحب الصوت

الخشن ، واقتلعته من مكانـه ، قبل أن يهوى أرضا ، وانطلق المشرف يعدو ، نحو الركن الذى يقف فيـه (باسل) ورفاقـه ، وهو يهتف :

ـ أنتم جعلتمونى أفعل هذا ..

أما المجرمان الآخران ، فقد رفعا مدفعيهما فى مواجهة المقاتل الآلى ، وصرخ أحدهما :

ـ قف يا هذا ، وإلا أطلقنا النار .

استدار إليه المقاتل الآلى فى صمت وبطء ، فصاح :

ـ أطلق النار يا (مينو) .

وضغط زناد مدفعه ، وراح وزميله يمطران الآلى برصاص مدفعيهما ، إلا أن الآلى لم يبد أدنى تأثر بالرصاصات التى تنهال عليه كالمطر ، وإنما صوب مدفعه إلى أحد المجرمين ، وأطلق رصاصات مدفعه ..

وسقط أحد المجرمين ، ثم استدار المقاتل الآلى فى بطء إلى الآخر ، الذى ألقى مدفعه أرضا ، ورفع ذراعيه عاليًا ، وهو يصرخ :

ـ إننى استسلم .. استسلم .

قال المشرف فى ارتياح :

ـ انتهت المشكلة .. سيلقى القبض عليه ، ثم نبلغ الشرطة .

ولكن (باسل) شعر بالقلق ، وهو يقول :

ـ أأنت واثق من أنه لن يقتله ؟

هز المشرف رأسه فى ثقة ، وقال :

ـ مطلقًا .. لقد استسلم الرجل ، وبرنامج الآلى يحتم أن ..

انقطعت عبارته بدوى الرصاصات ، التى أصابت المجرم الثانى ، وأسقطته صريعًا ، فى حين استدار الآلى فى بطء ، وصوب مدفعه إلى (باسل) ورفاقه ، و ..

واستعد لقتلهم ..

بلا رحمة ..

★ ★ ★

٢ ـ المقـــاتل ..

اتسعت عينا المشرف فى هلع ، عندمـا أطلق المقاتل الآلـى النار على المجرم الأخير ، وهتف به (باسل) :

ـ لقد فعلها .. لقد أطلق النار على رجل أعزل .

ارتجف صوت المشرف ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! هناك خطأ ما فى برنامجه حتمًا .

وفى بطء مثير ، استدار المقاتل الآلى إلى حيث يقف (باسل) ورفاقه ، وصوب مدفعه إليهم ، وقال (آرثر) فى ذعر :

ـ ما الذى سيفعله ؟

أجاب المشرف :

ـ هناك خطأ حتمًا .

ثم اتجه نحو الآلى ، وهو يلوح بيديه ، قائلاً :

ـ لا تفعل .. لقد سقط اللصوص ، وانتهت المهمة .

ولكن (باسل) صاح ، وهو يندفع خلفه :

ـ توقف .. هناك خلل .

وضغط الآلى زناد مدفعه .

وفى اللحظة الأخيرة جذب (باسل) المشرف إلـى أسفل ، وسمع دوى الرصاصات ، وصراخ الأوروبيين الأربعة من خلفه ، ورأى الآلـى يصوب مدفعه مـرة أخرى ، فهتف وهـو يجذب المشرف بعيدًا .

ـ إلى القبو .. أسرعوا إلى القبو .

انطلق الأوروبيون نحو القبو ، فى حين قال المشرف فى تهالك .

ـ لقد أصابنى .

رأى (باسل) الدماء تنزف من كتف المشرف ، فقال :

ـ تحامل يا رجل .. لابد أن نهبط إلى القبو فى سرعة ، قبل أن يلحق بنا .

قال المشرف فى يأس .

ـ اذهب أنت .. لن يمكننى اللحاق بك .

أطلق الآلى رصاصاته مـرة ثانية ، ولكن (باسل) احتمى مع المشرف خلف جدار جانبى ، وصاح :

ـ أسرع إلى القبو .. إنه أملنا الوحيد ، سنهرب عبر بابه الخلفى ، تحامل المشرف ، وراح يجر جسده نحو مدخل القبو ، فى حين نهض (باسل) وقال :

ـ هيا أيها الآلى .. الحق بنا .

وانطلق يعدو مبتعدًا عن القبو ، فاستدار إلى الآلى فى بطء وصرخ المشرف ماذا تفعل ؟

هتف به (باسل) .

ـ واصل أنت طريقك .. إننى أحول أنظاره عنك .

ـ أدار الآلى فوهة مدفعه إلى (باسل) .

وأطلق النار ، ولكن (باسل) تفادى الرصاصات بقفـزة ماهرة ، ثم اندفع مرة أخرى نحو القبو .

كان يعتمد على بطء حركة الآلى ، وعلى وجود الباب الخلفى للقبو ، ولقد بلغ القبو بالفعل قبل أن تبلغه رصاصات الآلى ، ودفع المشرف أمامه ، وهو يقول :

- هيا .. لقد نجونا تقريبًا .

كان الأوروبيون الأربعة ينتظرون بأسفل ، وسأله (آرثر) .

- ماذا تفعل الآن ؟

أجابه (باسل) :

- نفر عبر الباب الخلفى .

لم يكد يتم عبارته حتى ارتفع أزيز عجيب ، تردد فى المكان كله ، قبل أن يهبط لوح سميك من الصلب أمام الباب الخلفى للقبو ، وصاح المشرف فى يأس .

- إنها خطة الأمن الذاتى .. كل الأبواب سيتم أغلاقها ، وكل الاتصالات ستنقطع .

شحبت وجوه الجميع ، وهوت قلوبهم بين أقدامهم ، فى حين تعالى وقع أقدام المقاتل الآلى ، وهو يهبط نحو القبو ، فصاح (جان) :

- لقد وقعنا فى الفخ .. سيقتلنا بلا رحمة .

تلفت (باسل) حوله ، وهتف :

- القبو له باب من الصلب .. ساعدونى لإغلاقه .

أسرع الجميع إليه ، وراحوا يدفعون الباب الثقيل ، وظهر الآلى وهو يصوب سلاحه إليهم ، فهتف (هاينز) :

- لا فائدة .

صاح به (باسل) وهو يدفع الباب بكل قوته :

- لا تقل هذا أبدًا .

وأطلق الآلى رصاصات مدفعه ، التى ارتطمت بالباب ، وارتدت عنه فى عنف ، وتجاوزته بضع رصاصات ، وصاح المشرف .

- أسرعوا ، قبل أن يبلغ القبو .

وتقدم الآلى نحو القبو فى بطء ، ولكن الرجال الخمسة أمكنهم إغلاق الباب فى الوقت المناسب ، وهتف (أنطونى) :

- لقد نجحنا .

ولكن الآلى توقف أمام الباب الصلب لحظات ، وراح راداره الخاص يفحص ، ويدرس تركيبه فى بطء ، ثم تراجع عدة خطوات ، وضغط زنادًا إضافيًا فى مدفعه ، فانطلقت من فوهته الثانية أشعة ليزر حمراء مركزة ، أصابت الباب فى نقطة واحدة ، وراحت تغوص فيه بسرعة .

وفى الجانب الآخر قال المشرف فى ارتياع :

- إنه يستخدم أشعة الليزر ، ولن يلبث أن يصنع فجوة كبيرة فى الباب ، يمكنه منها الدخول إلينا .

شعر (باسل) بتوتر شديد ، أمام هذا القول ، وراح يتلفت حوله ، ثم قال وهو يشير إلى باب جانبى صغير :

- إلى أين يقود هذا الباب ؟

أجابه المشرف ، وهو يجلس مرتكنًا إلى الحائط :
ـ إلى مكتبى للأسف .. لا يوجد مخرج للقبو ، سوى بابه الخارجى المغلق الذى لن يفتح قبل ساعة على الأقل .
صمت (باسل) لحظات مفكرًا ، قبل أن يقول :
ـ ألا توجد وسيلة لإيقاف عمل برنامج الأمن الذاتى ؟
أجابه المشرف :
ـ توجد وسيلة واحدة .. أن ننسف جهاز الكمبيوتر ، المسئول عن إغلاق الأبواب .
سأله (باسل) :
ـ وماذا يحدث عندئذ ؟
لوح المشرف بيده ، وقال :
سيتوقف البرنامج تلقائيًا ، وتنفتح الأبواب كلها .
ثم أضاف فى مرارة :
ـ ولكن كيف يمكن بلوغ الكمبيوتر ، وهذا الآلى يقف هنا ، وقد أصابه جنون آلى عجيب ؟
أشار (باسل) إلى الباب الجانبى وقال :
ـ بوساطة هذا الباب .
قال (آرثر) فى توتر :
ـ وماذا عن الآلى ؟
أجابه (باسل) :
ـ سأجد وسيلة للفرار بإذن الله .

تصاعدت فى تلك اللحظة رائحة المعدن الذائب ، وازداد شحوب وجه (هاينز) ، وهو يقول :
ـ سيصل ذلك الآلى إلينا حتمًا .
وهنا قال (باسل) فى حزم :
ـ سأبدأ على بركة الله (سبحانه وتعالى) .
قالها وانطلق نحو الباب الجانبى ، والمشرف يهتف :
ـ مهلاً .. انتظر ..
ولكن (باسل) لم يسمعه ، فقد عبر الباب الجانبى إلى سلم ضيق ، قاده إلى مكتب المشرف ، ومنه إلى قاعة العرض ، ورأى كمبيوتر الأمن أمامه ، فأسرع إليه وهو يقول لنفسه :
ـ لو أمكننى بلوغ هذا الكمبيوتر ، فسوف .
ولكن فجأة وقبل أن يقطع نصف المسافة ، رأى رأس المقاتل الآلى الثانى تتحرك .. وتلتفت إليه ، فتوقف مغمغمًا .
ـ هل سيعمل الثانى ؟
أتاه الجواب مباشرة ، عندما انفصل المقاتل الآلى الثانى عن مكانه ، وتحرك حتى منتصف القاعة ، ثم التفت إليه فى بطء ، فقال (باسل) :
مهلاً أيها الآلى .. لست لصًا .. أنا ..
ولكن الآلى لم يمهله .
لقد رفع مدفعه الآلى وصوبه إليه ..
وأطلق النار ..

★ ★ ★

سعل المشرف فى قوة ، وأمسك صدره بيده فى ألم ، وهو يقول :

ـ هذا العربى مغامر للغاية ، ولكن فرصته فى النجاح ضئيلة .

سأله (أنطونى) : لماذا ؟ الآلى ما يزال هنا .. يستخدم أشعة الليزر لشقّ باب القبو ، وسيجد (باسل) طريقه خاليًا .

هزّ المشرف رأسه نفيًا ، وقال :

ـ هذا ما تتصورونه ، ولكن المقاتلين الآليين الثلاثة يتصلون بعضهم ببعض ، ببرنامج شديد التعقيد ، ولقد خرج أحدهم فقط لقتالنا ، لأنه لم تكن هناك حاجة لثان ، أما عندما يخرج (باسل) ، ويحاول تدمير الكمبيوتر ، فسيخرج آلى آخر لإيقافه ، وتدميره دون إنذار .

هتف (هاينز) : وماذا سيفعل (باسل) فى مواجهة الآلى الثانى ؟

تمتم المشرف :

ـ من يدرى ؟ من يدرى ؟

وفى نفس اللحظة ، التى يدور فيها هذا الحوار ، كان (باسل) يواجه بالفعل الآلى الثانى ، الذى رفع مدفعه نحوه ، وأطلق النار ..

وقفز (باسل) جانبًا ، فى اللحظة الأخيرة ، ودوت الرصاصات إلى جواره ، فاندفع خلف جهاز إليكترونى حديث ، أدار الآلى مدفعه إليه ، وأطلق النار ، فدمّره تمامًا ، وعادت المواجهة مباشرة ، بينه وبين (باسل) ..

وتحرّك (باسل) فى سرعة ، والآلى يدير مدفعه إليه ،

وانطلقت الرصاصات تطارد (باسل) ، حتى بلغ المطبخ الإليكترونى الحديث ، فغمغم :

ـ فليكن .. لا يفلّ الحديد سوى الحديد ..

ـ وضغط زر تشغيل المطبخ ..

وعلى الفور ، بدأ المطبخ الإليكترونى عمله ، وتحرك فرن (الميكروويف) . واشتعل ، فالتقط المقاتل الآلى ذبذباته ، وأدار فوهة مدفعه إليه ، وقد نسى تمامًا أمر (باسل) ، وراح يطلق النار على أجزاء المطبخ الآلى ، وينسفها واحدًا بعد الآخر ، فى نفس الوقت الذى دار فيه (باسل) حوله ، والتقط جهاز فحص إشعاعى حديث ، وهو يقول :

هيا أيها الآلى ، قاتل دون توقف ، حتى أبلغ هدفى .

وألقى جهاز الفحص على مقربة من الآلى ، الذى استدار إليه ، وأطلق النار أيضًا ..

واندفع (باسل) نحو كمبيوتر الأمن ، وفحص أجزاءه فى سرعة ، ثم قال وهو يمدّ يده إلى أحد الأسلاك :

ـ لو أوصلنا تيارًا زائدًا هنا ، فربما ..

ولكن فجأة استدار الآلى إليه ، وصوّب إلى ظهره ..

وفى اللحظة الأخيرة ، لمح (باسل) صورة الآلى ، على شاشة الكمبيوتر ، فقفز جانبًا ، وانطلقت رصاصات الآلى إلى جواره ، وأصابت الشاشة ، ونسفتها بقوة ، فى حين اندفع (باسل) نحو ركن قصى ، يحوى عددًا من الأجهزة الصوتية ، وهو يقول :

- لو انخفضت رصاصاته قليلاً ، لنسف محرك الأسطوانات بدلاً من الشاشة ، وانتهت المشكلة .

واستدار إليه الآلى مرة أخرى فى بطء ، فأسرع (باسل) يشعل كل الأجهزة الصوتية ، وهو يقول :

- أتعشم أن يربكه هذا بعض الشىء .

وانطلقت الأجهزة الصوتية بكل قوتها ، حتى شعر (باسل) بأذنيه تكادان تنفجران ، وتوقف الآلى لحظات ، وقد ارتبكت أجهزة الرصد الصوتية فيه بالفعل ، وعجز عن تحديد موقع (باسل) ..

إلا أن هذا لم يوقفه ..

لقد نقل أجهزة الرصد مباشرة إلى الأجهزة الحرارية ، التى يمكنها تحديد الأجسام الحية ، بناء على ما ينبعث منها من حرارة ، واستدار مرة أخرى نحو (باسل) ، الذى أسرع يختبئ خلف جهاز آخر ضخم ، وهو يقول :

- كيف أمكنه تحديد موقعى الآن ؟

أطلق الآلى رصاصته ، التى أصابت الجهاز الضخم ، وراحت تنسف أجزاءه فى عنف ، فهتف (باسل) :

- ينبغى أن أعترف أنه مقاتل شرس بالفعل .. ومن الواضح أنه يستعين بأجهزة كشف حرارة ، لتحديد موقعى .

كانت الرصاصات تنهال كالمطر ، إلا أن (باسل) احتفظ بهدوئه ، وهو ينزع أحد الأسلاك الضخمة من الجهاز المحطم ،

الذى لا يزال صامدًا للرصاصات ، ثم يوصله بجهاز آخر صغير ، له عجلات مطاطية مرنة وتحرك ليصل الطرف الآخر للسلك الطويل بالتيار الكهربى ، ثم التقط زجاجة مياه ، سقطت من برّاد المطبخ الإليكترونى ، وهو يقول:

- فلنر كيف تتصدّى لهذا أيها المقاتل الآلى .

وبكل قوته ، دفع الجهاز الصغير نحو الآلى ، الذى صد الجهاز بقبضته فى بساطة ، ثم أدار فوهة مدفعه نحو (باسل) ، الذى برز من بقايا الجهاز الضخم ، وهو يهتف :

- هيا .. التقط هذه أيها الآلى .

وألقى زجاجة الماء ..

وبوساطة أجهزة التحليل الفائقة فى تركيبه ، أدرك الآلى أن ما ألقاه (باسل) نحوه ليس سوى زجاجة مياه لا خطر منها ، فتجاهلها تمامًا ، وصوّب مسدسه نحو بقايا الجهاز الضخم ، الذى عاد (باسل) يختفى خلفه ، وأطلق النار ..

وسقطت الزجاجة على الجهاز الصغير ..

وتحطمت .

وسقطت منها المياه على الجهاز ..

وسرى التيار الكهربى فى عنف ، عبر المياه ، التى ساعدت على توصيله ..

وهوت الصاعقة الكهربية على الآلى ..

واهتزّت أضواء المكان فى شدة ، والآلى يرتجف فى عنف ،

بعد أن سرى التيار الكهربى فى جسده ، وأحرق دوائره وأسلاكه ، وأفسد محركه الإليكترونى ..

وهوى الآلى محترقًا فى نفس اللحظة التى انقطعت فيها الأضواء ، ثم اشتعل المحرك الإضافى آليًا ، فجذب (باسل) طرف السلك فى التيار الكهربى ، وهو يقول لنفسه فى ارتياح :

- إذن فأنت لست مجهزًا ضد التيار الكهربى أيها الآلى .. لابد أن يدرك صانعوك هذا .

فى نفس اللحظة . كان (آرثر) يقول للمشرف فى هلع :

- لقد شقَّ الآلى نصف الباب تقريبًا .. ماذا يفعل (باسل) إذن ؟

قال المشرف فى ضعف :

- ربما لم يعد (باسل) على قيد الحياة .. ثم إنه الوحيد الذى خاطر بنفسه ، فى محاولة لإنقاذنا جميعًا .

قال (هاينز) فى حدة :

- ولكنه لم ينجح .

قال المشرف فى تهالك :

- هيا .. خذ دورك إذن .. من يرغب فى المحاولة ؟

تبادل الجميع نظرات خائفة متوترة ، ثم قال : (أنطونى) :

- هل يمكنك أن تفسر لنا ضعف التيار الكهربى ، الذى حدث منذ لحظات ؟

غمغم الرجل :

- لقد توقَّف المولِّد الرئيسى ، وعمل المولِّد الاحتياطى لسبب ما .

تمتم (جان) :

- ربما فعل (باسل) هذا .

قال المشرف :

- ربما .. من يدرى ؟

أما (باسل) فقد أسرع إلى الكمبيوتر ، بعد تحطم الآلى الثانى ، وهو يحمل السلك الطويل ، وراح يوصله بأجزاء محرك الأسطوانات ، وهو يقول :

- لو أوصلنا التيار الكهربى بجزء غير مؤهل لاستقباله ، فسيتم تدمير الكمبيوتر ، وتفتح الأبواب علي الفور .

لمح من خلفه حركة خافتة ، فالتفت يتطلع إلى الآلى الثالث ، ولكنه وجده جامدًا في مكانه ، فغمغم :

- ولكن من المؤكد أننى سمعت شيئًا :

بقى جامدًا ساكنًا لحظات ، يتطلع إلى الآلى الثالث فى حذر ، ثم عاد يواصل عمله فى سرعة ومهارة ..

وكم تمنى لحظتها لو أن هذا الكمبيوتر يتصل بالتيار الكهربى المعتاد ، بوساطة أسلاك عادية ، ففى هذه الحالة كان يكفى فصل التيار عنه ، ولكنه كان من طراز خاص ، يتم تزويده ببطارية نووية دائمة ، مما يحتم تدميره ، لإيقاف عمل برنامجه ..

وفجأة سمع من خلفه حركة أخرى ، فالتفت فى سرعة ، ثم تجمدُ فى مكانه ..

كان الآلى الثالث يقف على قيد متر واحد منه ، ويتطلع إليه بذلك البرود الآلى الجامد المخيف ..

وفجأة امتدت يد الآلى ، وقبضت على عنقه ، و ..

وراحت تخنقه .

* * *

٣ ـ العقل .. والقوة ..

شعر (باسل) بأصابع الآلى تكاد تنغرس فى عنقه ، واحتبست أنفاسه فى حلقه ، والآلى يضغط عنقه ، ولكنه راح يلكم الآلى ويركله بكل قوته ، وهو يهتف فى صوت مختنق :

ـ اتركنى أيها الآلى .. إنك لست مجرد آلة للقتل .

لم يكد ينطقها ، حتى شعر بتناقضها مع الواقع فالذين صنعوا هؤلاء الآليين صنعوهم كآلات للقتل بلا رحمة أو شفقة ، أو حتى مجردُ التفكير ..

ومع هذه الفكرة ، نبضت عروق (باسل) بالغضب فراح يلكم جسم الآلى المعدنى ، وهو يهتف :

ـ بل أنت مجردُ آلة للقتل .. آلة حقيرة للقتل .

وفجأة التقطت يده سلكًا معدنيًا صغيرًا ، يبرز فى جزء خفى فى صدر الآلى ، فجذبه بكل قوته ، وهو يهتف .

ـ آلة تستحق التدمير .

شعر بتيار عنيف يسرى فى جسده ، وبصاعقة تنتقل عبر عروقه ، وتنفجر فى مخه ، وانتفض جسده كله . ثم أظلمت الدنيا أمامه ..

وانتهى كل شىء ..

وفى القبو ، هتف (آرثر) فى انهيار :

- الآلى شقّ الباب تقريبًا ما هى إلا دقيقة واحدة حتى ينهار الباب تمامًا ، ونجد الآلى أمامنا ، يقتلنا واحدًا بعد الآخر كفئران فى المصيدة .

إنهار المشرف بدوره ، وهو يقول :

- لا فائدة لم تعد هناك فائدة .

وفجأة توقّفت أشعة الليزر ، وران الصمت لحظة ، ثم تعالى وقع أقدام الآلى وهو يبتعد ، فهتف (جان) .

- ماذا حدث ؟ هل سيتركنا ؟

اعتدل المشرف فى توتر ، وقال :

عجبًا ! هذا لا يعنى سوى ..

توقّف بغتة عن الاستطراد ، فسأله (هاينز) فى توتر :

- سوى ماذا ؟ أجب بالله عليك .

أجاب المشرف :

- رحيل الآلى ، وعودته إلى أعلى ، يعنى أن وجوده هناك صار ضروريًا ، وهذا لا يحدث إلا عندما يتم تدمير الآليين الآخرين .

برقت عينا (أنطونى) ، وهو يقول :

- ماذا تعنى ؟! هل نجح هذا العربى (باسل) فى تدمير مقاتلين آليين ؟

- مستحيل !

قال المشرف فى لهفة وأمل :

- هذا هو التفسير الوحيد ..

ثم أدار عينيه إلى باب القبو الخارجى ، مستطردًا :

- والأمل الوحيد .

وفى أعلى ، استعاد (باسل) وعيه بعد لحظات من سقوطه ، ولكنه شعر بآلاف المطارق تضرب جمجمته من الداخل ، واهتزّت الرؤية أمامه ، ولكنه استطاع تمييز الآلى الثالث ، وقد سقط إلى جواره معطلاً ، ودخان كثيف يخرج من صدره ، فغمغم :

- حمدًا لله . ما زال هناك أمل .

حاول أن ينهض ليتم عمله ، ولكنه عجز عن هذا ، فزحف نحو مصدر التيار الكهربى ، وهو يجذب طرف السلك ، والآلات الصوتية تدوى فى المكان فى عنف ، وتضرب رأسه بلا رحمة ..

وفجأة رأى الآلى الأول ، وهو يصعد فى القبو ، ويتطلّع إليه مباشرة ، فقال فى توتر بالغ :

- كدت أنسى وجوده .. من المحتم أنه يلتقطنى عبر جهاز الكشف الحرارى .

راح عقله يعمل فى سرعة ، بحثًا عن وسيلة للإفلات من مصيره ، والآلى يتحرّك نحوه فى بطء ، ثم قال فى توتر .

- هناك وسيلة واحدة .

وراح يحك طرف السلك فى مصدر كهربى ثم استغلّ

الشرارة الحادثة فى إشعال قطعة من اللباد ، وألقاها نحو ستارة رقيقة ، تفصل أحد الأقسام عن الآخر .

واشتعلت الستائر فور سقوط اللباد المشتعل فوقها ، وتأجّجت النيران على بعد مترين من (باسل) ، وتوقّف الآلى بغتة ، وراح يدير عينيه فى المكان ، فتمتم (باسل) فى ارتياح :

ـ نجحت .. النيران المشتعلة زادت فى حرارة المكان كله ، ولم يعد بإمكانه تحديد موقعى بالضبط .

تجمّد الآلى فى مكانه بالفعل ، وتابع (باسل) :

ـ ولكن المشكلة الحقيقية هى أن ذلك الآلى سيبقى ، حتى بعد تدمير الكمبيوتر ، ولن ينتهى خطره .

صمت لحظات ، وهو يواصل تفكيره ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، مغمغمًا :

ـ نعم .. ربما نجحت هذه الوسيلة أيضًا .

التقط قطعة لباد أخرى ، وأشعلها ، ثم ألقاها بكل قوته نحو كمبيوتر الأمن . فسقطت إلى جواره مباشرة واستدار إليها المقاتل الآلى فى بطء ، وصوّب مدفعه إليها ، ثم لم يلبث أن تقدّم منها فى بطء حذر ، وقد عجزت أجهزته عن تحديد طبيعتها ، حتى صار قيد ربع المتر منها ، فهتف (باسل) :

استعد أيها الآلى .

وأوصل طرف السلك بالتيار الكهربى ..

واستقبل كمبيوتر الأمن تيارًا كهربيًا ، فى أجزاء غير مؤهلة لذلك ..

ودوى الانفجار ..

• انفجر الكمبيوتر بدوى هائل ، وشعر (باسل) بجسده يرتطم بالجدار فى عنف ، وأظلمت الدنيا أمامه مرة أخرى ..

لم يدر كم من الوقت بقى فاقد الوعى ، ولكنه استعاد وعيه فى بطء ، وسمع من حوله صوت المشرف ، يقول :

ـ لقد دمّر وحده ثلاثة آليين هل يمكنكم تصديق هذا ؟ أجابه صوت آخر :

ـ هذا يعنى تدمير تسعة ملايين دولار .

هتف (آرثر) : اصمت يا رجل .

وقال (أنطونى) فى حدة : لو كنت فى موضعنا ، لما راودتك هذه الفكرة .

وصاح : (هاينز) :

حياتنا كانت تساوى أكثر من هذا .

قال صاحب الصوت فى استنكار :

أكثر من تسعة ملايين .

قال (جان) فى غضب :

بل أكثر من تسعة مليارات .

فتح (باسل) عينيه ، وهو يقول من يتحدّث عن المال ؟

ثم نهض فى بطء ، واستقبله الجميع بهتافات فرحة ، وقال المشرف :

ـ أهنئك أيها العربى .. لقد أنقذت حياتنا جميعًا ..

قال (باسل) :

- الله (سبحانه وتعالى) هو الذى أنقذنا يا سيدى ، ولست سوى وسيلة لتنفيذ مشيئته .

تطلع إليه أحد الرجال فى دهشة ، وقال :

- أتنكر بطولتك أيها العربى ؟

هزّ (باسل) رأسه نفيًا ، وقال بابتسامة هادئة :

- بل أذكر الحقيقة يا رجل .

قال رجل آخر :

- أية حقيقة يا فتى ؟ حقيقة أنك دمّرت ثلاثة من المقاتلين الآليين !

قال (باسل) فى حزم :

- بل حقيقة أن الله (سبحانه وتعالى) خلق البشر ، وأنتم صنعتم هؤلاء الآليين ، ومن الطبيعى أن ينتصر ما صنعه الله (عزّ وجلّ) ، على ما صنعه البشر يا رجل .

ثم استدار إلى الأوروبيين الأربعة ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

- وحقيقة أن الحياة تساوى الكثير .. تساوى كل أموال الدنيا وأكثر .. أليس كذلك أيها السادة ؟

وافقه الأربعة والمشرف فى حماس ، وغادر الجميع معرض تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين ، وهم يحيطون بالبطل الذى أنقذ حياتهم ..

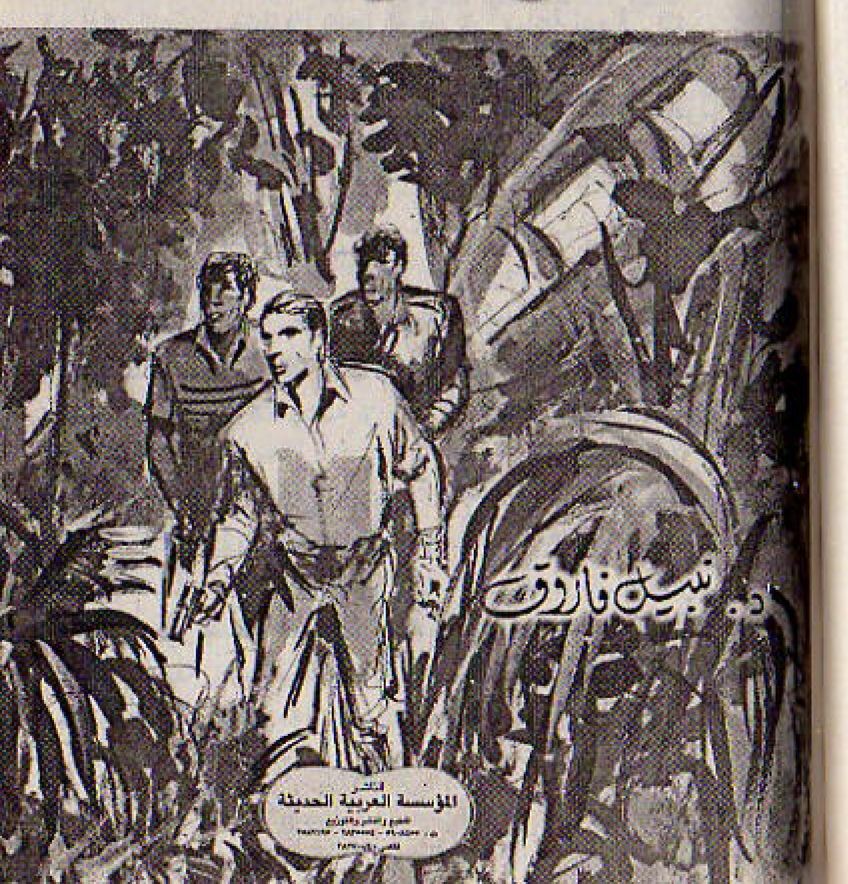
البطل العربى (باسل) .

* * *

(تمت بحمد الله)

سلسلة الأعداد الخاصة

صراع فى الأدغال



١ ـ المنـــــدوب ..

ارتفع أزيز طائرة مائية صغيرة ، وهى تعبر منطقة الأدغال الإفريقية الواسعة ، ثم تنطلق بمحاذاة النهر الكبير ، الذى يمتدّ إلى آفاق البصر ، وتطلّع راكبها الوحيد إلى ساعة يده فى قلق ، وهو يقول لقائدها :

ـ أسرع يا (بوكا) .. صديقى (باسل) قال : إنه سينتظرنا فى تمام السادسة والنصف ، ولقد تجاوزنا هذا الموعد بدقيقتين بالفعل .

ابتسم الطيار ، وهو يقول :

ـ أهدأ يا سيّد (أمين) .. ليس بوسعنا أن ننطلق بسرعة أكبر ، فالطائرة تنطلق بأقصى سرعة بالفعل .. ولكن اطمئن .. سنبلغ مطار العاصمة بعد ثلاث دقائق على الأكثر بإذن الله ، وصديقك (باسل) هذا يمكنه أن يغفر لك خمس دقائق تأخير .. أليس كذلك ؟

ابتسم (أمين) وقال : بالطبع .. (باسل) صديق رائع للغاية .. إننى فخور حقًا بصداقته .

هزّ الطيّار رأسه ، دون أن يعلق على العبارة ، وانحرف يسارًا ، وهو يستعد للهبوط ، عندما لاحت العاصمة خلف الأدغال الكثيفة ، وبدأ ينخفض بالطائرة بالفعل ، مغمغمًا : هل ستصحبه مباشرة إلى مزرعة والدك يا سيّد (أمين) ؟

أجاب (أمين) ، وهو يسترخى فى مقعده :

ـ نعم يا (بوكا) .. لقد دعوته لزيارة المزرعة ، وهو شغوف برؤية أساليبنا الحديثة فى الزراعة والرى .

تمتم (بوكا) :

عظيم .. أعتقد أنها ستروق له كثيرًا .

قالها ولاذ بالصمت تمامًا ، وهو يتخذ طريق الهبوط ، ثم اقترب من مهبط الطائرات الخاصة ، بعد أن تبادل حديثًا تعريفيًا مقتضبًا مع برج المطار ، ولم يَعُد إلى الحديث مع (أمين) إلا بعد أن هبطت الطائرة تمامًا ، فغمغم :

ـ وصلنا يا سيّد (أمين) .

تطلّع (أمين) إلى ساعته بلهفة ، وقال فى ضيق :

ـ سبع دقائق تأخير يا (بوكا) ، وليس خمسًا .

هز (بوكا) كتفيه ، وابتسم وهو يغادر مقعد القيادة ، ويفتح باب الطائرة الصغيرة ، مغمغمًا :

إنها ليست بالفارق الكبير يا سيّد (أمين) .

غادر (أمين) الطائرة فى سرعة ، وانطلق إلى قاعة الزوّار ، ولم يكد بصره يقع على (باسل) ، الذى جلس يطالع جريدة إفريقية ، حتى هتف فى سعادة مشوبة بلكنة اعتذار :

ـ (باسل) يا صديقى .. مرحبًا بك هنا .. لقد تأخرنا عليك قليلاً .. أليس كذلك ؟

نهض (باسل) يصافحه فى حرارة ، قائلاً :

- لا عليك يا صديقى ، رؤيتك وحدها تكفينى .

تبادلا بعض عبارات التحية ، والسؤال عن أخبار الأصدقاء المشتركين ، ثم سأل (أمين) صديقه (باسل) .

- ما رأيك الآن يا صديقى .. هل نجول بعض الوقت فى العاصمة ، أم ننطلق مباشرة إلى المزرعة ؟

لوّح (باسل) بيده ، قائلاً :

لقد شاهدت العاصمة كلها تقريبًا .

أجابه (أمين) ضاحكًا :

هذا يحسم الأمر إذن .. هيا بنا .

اتجها بخطوات رصينة هادئة نحو طائرة (أمين) الصغيرة ، وابتسم (بوكا) عندما رآهما قادمين ، وغمغم :

- لقد فضّلا الرحيل مباشرة إذن .

وصعد فى هدوء ليحتل مقعد القيادة ، وأدار محركات الطائرة الصغيرة ، التى وصل إليها (أمين) و(باسل) وقال الأول بابتسامة كبيرة :

- تفضّل يا صديقى .. طائرتنا الصغيرة يسعدها أن تقلك إلى المزرعة .

ضحك (باسل) وهو يقول :

ويشرّفنى أنا أن أستقلها .

كانا يصعدان إلى الطائرة ، عندما اندفعت نحوهما فجأة سيارة صغيرة ، على نحو بدا وكأنها تتعمّد الاصطدام بالطائرة ، فهتف (أمين) فى انزعاج :

ما الذى يفعله هذا السائق بالضبط ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى انحرفت السيارة فى عنف ، وأطلقت إطاراتها صريرًا مزعجًا ، قبل أن تتوقف إلى جوار الطائرة تمامًا ، ويقفز منها رجل متوسّط القامة واضح الاضطراب والتوتر ، يرتدى حلة غالية الثمن ، ولكنها فى حالة رثة ، توحى بأنه مرّ بمعاناة طويلة ، كما أنه كان يحمل فى يده مسدسًا ، صوّبه إلى (باسل) و (أمين) فى عصبية واضحة ، وهو يقول :

- اصعدا إلى الطائرة .. هيا بسرعة .

هتف به (أمين) :

ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟ .. إنه مطار خاص ، وهذه ..

قاطعه الرجل فى حدة عنيفة :

قلت : اصعدا .

أمسك (باسل) يد صديقه ، وهو يقول فى توتر : أطع أوامره ، ولا تستفزه كثيرًا يا صديقى .. من الواضح أنه ليس فى حالة طبيعية .

عقد (أمين) حاجبيه فى غضب ، وصعد إلى الطائرة محنقًا ، وتبعه (باسل) فى حذر ، فى حين اختطف الرجل حقيبة صغيرة من داخل السيارة ، وهو زائغ البصر ، شديد الاضطراب ، وقفز إلى الطائرة ، وصاح فى (بوكا) بغلظة :

هيا يا رجل .. أقلع .. هيا ..

سأل (بوكا) (أمين) فى توتر :

سيد (أمين) .. ما قولك ؟

غمغم (أمين) فى سخط :

افعل ما يأمرك به يا (بوكا) .

أغلق (بوكا) باب الطائرة فى حنق ، وبدأ يتحرك بالطائرة ، وهو يتمتم :

أتعشَّم ألا تندم على قرارك هذا يا سيد (أمين) ؟

غمغم (باسل) فى ضيق ، وهو يرمق الرجل بنظرة جانبية :

ليس لدينا خيار فى الواقع يا (بوكا) .

كان الرجل فى هذه اللحظة شديد التوتر ، ينقل بصره فى عصبية شديدة ، من وجه (باسل) إلى النافذة ، واتسعت عيناه فى هلع حقيقى ، عندما اقتحمت سيارة كبيرة أرض المطار الخاص ، وانطلقت نحو الطائرة ، فصرخ فى (بوكا) :

- أسرع يا رجل .. أسرع بالله عليك .

نطقها فى لهجة أشبه بالانهيار ، حتى إن (أمين) حدّق فى وجهه بدهشة بالغة ، فى حين سأله (باسل) :

ماذا هناك بالضبط ؟

ردّد الرجل فى انهيار حقيقى هذه المرة :

أسرع يا رجل .. أسرع .

لم يكن (بوكا) يدرك بالضبط ما يدور حوله ، ولكنه كان يعلم أنه مضطر لطاعة حامل المسدس ، فزاد من سرعة الطائرة بتلقائية ، استعدادًا للإقلاع بها ، ولكنه فوجئ بالسيارة السوداء الكبيرة تطارده فى إصرار ، ثم أطلّ من نافذتها رجل ضخم الجثة ، يحمل مدفعًا آليًّا صغيرًا ، راح يمطر به جسم الطائرة بالرصاصات ، فصرخ (بوكا) :

ما هذا بالضبط ؟!

أما (باسل) و (أمين) والرجل ، فقد انحنوا بسرعة ، والأول يهتف :

من هؤلاء ؟ ولماذا يفعلون هذا ؟

صرخ الرجل فى ارتياع شديد :

فيما بعد .. فيما بعد .. انطلقوا الآن .. هذا هو المهم .

صاح (بوكا) فى عصبية :

ليت الأمور تسير بهذه البساطة .. إنك داخل طائرة صغيرة يا رجل ولن تقلع قبل أن تبلغ سرعة مناسبة .

رفع الرجل مسدسه ، وهو يصرخ :

بل ستُقلع الآن .. وعلى الفور .

ولكن (باسل) انقض عليه بغتة ، وضرب يده الممسكة بالمسدس ، فأطاح به إلى آخر الطائرة ، ثم جذب الرجل إليه ، قائلاً فى صرامة :

كفى يا رجل .. أوامرك لن تعنى شيئاً ، فى مثل هذا الموقف .

إنهار الرجل تماماً هذه المرة ، وراح يهتف فى لهجة أقرب إلى البكاء :

نعم .. الأمور كلها لم تعد تعنى شيئاً ..

فى نفس اللحظة ، كان الرجل الضخم الجثة قد خفض فوهة مدفعه الآلى ، والسيارة السوداء القوية تنطلق به ، فى محاذاة الطائرة الصغيرة ، وهو يحاول إطلاق النار على إطاراتها ليمنعها من الإقلاع ..

وانهالت الرصاصات كالمطر ، ولكن الزلاجات المائية التى تحيط بالإطارات تلقت النيران كلها ، وأنقذت الإطارات ، فزادت السيارة من سرعتها ، وتجاوزت الطائرة ببضعة أمتار ، فغمغم (بوكا) فى قلق :

فيم يفكرون بالضبط ؟

ولم يكد يتمّ عبارته ، حتى اتسعت عيناه فى رعب هائل ، عندما انحرفت السيارة الضخمة على نحو مباغت ، واعترضت طريق الطائرة الصغيرة ..

ولم يعد هناك مفر من الاصطدام ..

* * *

كان الموقف دقيقاً للغاية ، حتى إن (أمين) قد أطلق شهقة عنيفة ، وغاص بجسده كله فى مقعده ، فى إنتظار الاصطدام

الوشيك ، واتسعت عينا الرجل فى رعب ، وهتف (باسل) بملء فيه :

أقلع يا (بوكا) .. أقلع .

جذب (بوكا) عجلة القيادة بحركة آلية . مع هتاف (باسل) وبدت الطائرة لحظة وكأنها سترفض الإقلاع ، وترتطم بالسيارة السوداء الكبيرة ، إلا أنها لم تلبث أن استجابت بغتة ، ووثبت فى الهواء وتجاوزت السيارة السوداء بسنتيمتر أو اثنين ، قبل أن تحلق فى الهواء مبتعدة .

وجنّ جنون ركاب السيارة السوداء ، عندما أفلتت منهم الطائرة ، فقفزوا خارج السيارة ، وراحوا يشيعونها برصاصات مدافعهم ، حتى ابتعدت فى الأفق ، فصرخ أحدهم محنقاً :

لقد أفلتوا منا .

غمغم زميله فى ذعر :

لن يغفر لنا السيّد (ادموند) هذا أبداً .

عقد الرجل الضخم حاجبيه فى عصبية ، وهو يقول بصوت خشن :

ولكن من المحتم أن نبلغه .

وجذب بوق جهاز اللاسلكى فى غلظة ، وهو يقول :

ـ من الدورية الراكبة إلى المركبة الأم .. لقد أفلت الصيد ، داخل طائرة صغيرة ذات محرك واحد ، تحمل شعار مزرعة (كوسكا) .. أكرر .

ثم تضاعف إنعقاد حاجبيه الكثين ، حتى كاد يخفى عينيه ، وهو يتمتم :

هكذا نضمن أنهم لن يذهبوا بعيدًا أبدًا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أمين) يهتف مبهورًا .

- ربَّاه !! لقد نجونا بأعجوبة .. فى إحدى اللحظات تصورت أن الموت مصيرنا لا محالة .

قال (بوكا) بأنفاس لاهثة :

الفضل للسيِّد (باسل) .. هتافه انتزعنى من حالة الرعب ، التى تجمدت معها أطرافى الأربعة ، وشلت قدرتى على التفكير تمامًا .

اعتدل (باسل) وهو يقول :

الفضل للـه (سبحانه وتعالى) وحده يا رجل .. هو نعم المولى ونعم النصير .

ثم التفت إلى الرجل الذى يتنفس فى صعوبة من فرط الإنفعال ، واستطرد :

أعتقد أنك تدين لنا بتفسير يا رجل .

رفع الرجل إليه عينين محمرتين ، وهو يقول فى انهيار :

ما الذى تريدون معرفته ؟

صاح به (أمين) فى عصبية :

من هؤلاء الذين يطاردوننا بكل هذه الشراسة ؟

تطلع إليه الرجل لحظة بعينين زائغتين ، ثم خفض بصره ، متمتمًا :

مخابرات الجيش .

اتسعت عينا (بوكا) فى ارتياع ، وحدق (أمين) فى وجه الرجل فى ذعر ، فى حين انعقد حاجبا (باسل) فى شدة ، قبل أن يقول غاضبًا :

ماذا تعنى يا رجل ؟ هل ورطتنا معك فى قضية أمن دولة ؟!

هتف الرجل فى سرعة :

لا .. الأمر لا يعنى هذا قط .. لا شأن للدولة مطلقًا بما يحدث .

قال (أمين) فى عصبية :

ما الذى يعنيه هذا ؟! ألم تقل : إنهم من رجال المخابرات الحربية ؟

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب :

هذا صحيح ولكنهم قلة خائنة منحرفة تعمل لحساب مستر (ادموند) .. نائب رئيس جهاز المخابرات الحربى ، الذى يستغل منصبه أسوأ استغلال ، فيتعامل مع تجار السلاح ، ويمنحهم امتيازات خفية ، ويضفى عليهم حمايته ، ويأوى عصابة كاملة منهم ، فى مكان ما فى الأدغال ، تحت قيادة الإرهابى الدولى (ماركوس) .

سأله (باسل) فى دهشة :

وكيف جمعت هذه المعلومات البالغة الخطورة ؟

إزدرد الرجل لعابه مرة أخرى ، وقال : إنها مهنتى .

تطلعوا إليه فى حيرة وتساؤل فتابع :
أنا (توماس جيفرى) .. مندوب الأمم المتحدة .
ارتفعت حواجبهم فى دهشة وهتف (أمين) :
أنت ؟! لقد أعلنوا رسميًا خبر وصولك إلى هنا .
أجابه (توماس) مرتجفا :
هذا صحيح ، ولكن يبدو أنهم يرغبون فى إذاعة خبر رحيلى بشكل مثير ، فى هذه الدنيا كلها .
اعتدل (باسل) وقال فى اهتمام شديد :
أعتقد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التفسير يا رجل .
هزَّ (توماس) رأسه متفهمًا ، وبدأ يقول :
لقد وصلت إلى هنا بطريقة رسمية بالفعل ، وبدأت عملى كمحقق فى قضية تجارة السلاح ، التى انتشرت فى المنطقة ، فى الآونة الأخيرة ، وأدت إلى عدد من المشكلات والصعاب ، والحروب الصغيرة ، والاشتباكات المسلحة فى المنطقة .. ولما كانت لدىَّ فكرة مسبقة عن الموقف ، مع عدد من المعلومات الرسمية وغير الرسمية ، فقد اتجهت فى بحثى إلى تلك الشرذمة من رجال المخابرات المنحرفين ، ولم يلبث هذا أن قادنى إلى معلومات أكثر خطورة ، حتى وقعت فى يدى وثائق بالغة الأهمية ، تدين (أدموند) مباشرة ، وتكفى لسجنه أو اعتقاله .. وقبل أن أتوجه بها إلى الرئيس ، فوجئت بهم يطاردوننى ، ويقتلون سائقى وحارسى الخاص ، فانطلقت بالسيارة كالمجنون ، أنشد النجاة .. وكان ما كان .

ران صمت رهيب داخل الطائرة الصغيرة ، بعد أن انتهى (توماس) من روايته حتى قاطعه (بوكا) وهو يتمتم فى هلع :
ـ (ادموند) ؟! ياللهول ! فليحفظنا اللّه (سبحانه وتعالى) .
التفت (باسل) إلى (أمين) وقال :
أيعنى هذا أن (أدموند) الذى تتحدثون عنه رجل شهير .
أجاب (أمين) بسرعة :
ـ وبالغ الخطورة .
ثم تطلع إلى (توماس) مستطردًا فى مرارة :
هل تعلم ما فعلته بنا يا سيِّد (توماس) ؟ لقد جلبت علينا غضب (أدموند) السفّاح .. أى هول ألقيته على رءوسنا ؟
بدا الخجل على وجه (توماس) وهو يتمتم :
لم يكن أمامى سوى هذا .. آسف .
اعتدل (باسل) وهو يقول : أعتقد أنه فى ظل هذه الظروف ، ليس أمامنا سوى حل واحد .
سأله (أمين) فى لهفة :
ما هو ؟
أدار (باسل) عينيه فى وجوههم ، قبل أن يجيب فى حزم :
أن نبلغ الرئيس نفسه بالموقف .
هوت عبارته على رءوسهم كالصاعقة ، فحدّقوا فى وجهه لحظة فى ذهول قبل أن يهتف (أمين) فى استنكار .
ـ هل تمزح يا (باسل) ؟

هز (باسل) كتفيه ، وقال :

- ولماذا أمزح ؟ لقد كان السيِّد (توماس) فى طريقه لإبلاغ الرئيس بالفعل ، عندما حدث هذا .. لماذا لا نكثف جهودنا إذن للوصول إلى الرئيس ، وتسليم الوثائق كلها ، التى تدين (أدموند) ؟!

أجاب (أمين) فى توتر :

لأن هذا ليس سهلاً .. إنهم يطاردوننا الآن .. هل تفهم ؟ هل يمكنك أن تستوعب هذا ؟!

قال (باسل) :

نعم .. ولكنهم لم يظفروا بنا حتى الآن .

قال (أمين) فى عصبية : هذا لا يعنى شيئاً .. لقد هربنا منهم منذ ربع الساعة فحسب ، ولم يبدءوا عملية البحث الجاد بعد .

قال (باسل) فى اهتمام :

دعنا نسبقهم إذن .

سأله (توماس) فى اهتمام أكثر :

وكيف نفعل هذا ؟

مال (باسل) نحوه ، وكأنه يتحدث إليه وحده ، وهو يقول :

سنتجه إلى أوَّل قاعدة عسكرية فى طريقنا ، وهناك نطلب الاتصال بالرئيس ، لأمر يهدد أمن الدولة ، وعندئذ ..

قاطعه (بوكا) فجأة :

لن تفلح هذه الخطة أيها السادة .

التفتوا إليه فى دهشة وسأله (أمين) :

ولماذا لن تفلح ؟

ارتجف صوته ، وهو يجيب :

لأنهم عثروا علينا بالفعل .

قالها وهو يشير إلى يسار الطائرة ، فاستدارت كل العيون مع سبَّابته ، وسرت قشعريرة فى أجسادهم ، وهم يتطلَّعون إلى طائرة هليكوبتر حربية ، انقضَّت عليهم فى شراسة ، و ...

وانطلقت رصاصاتها القاتلة ..

★ ★ ★

٢ - قلب الأدغال ..

لوّح السيد (كوسكا) ، والد (أمين) بيده لرجال مزرعته ، وقد بدت على وجهه الزنجى الرصين علامات القلق ، وهو يقول :

- هيّا .. ضعوا مزيدًا من الأعلاف والمياه أمام الأبقار .. وأرسلوا فى طلب الطبيب البيطرى ، لتحديد مدى الإصابات هنا ، قبل أن تنتشر العدوى ..

سأله مساعده فى حيرة :

إنها مجرّد إصابة عادية يا سيّد (كوسكا) لا تستحق كل هذا التوتر والقلق .

هزّ (كوسكا) رأسه ، وهو يقول :

ليست الإصابة ما يقلقنى يا رجل ، ولكنه غياب (أمين) .

المفترض أن يصل الآن ، مصطحبًا صديقه (باسل) ، ولست أدرى لماذا أشعر بالقلق من أجله .

ابتسم المساعد قائلاً :

إنه قلق الأبوة يا سيّد (كوسكا) .. اطمئن .. سيصل السيّد (أمين) مع صديقه فى خير حال بإذن الله .

لم يكد يتم عبارته ، حتى فوجئ بسيارتين تقتحمان المزرعة ، وتحطمان سورها فى عنف ، ثم تنقضان عليه ، فصاح مساعده فى ارتياع :

سيدى .. ما هذا بالضبط ؟

قبل أن يجيبه (كوسكا) ، توقفت السيارتان أمامهما ، وقفز منهما عدد من الرجال ، على رأسهم رجل نحيل ، حاد النظرات ، عرف فيه على الفور ذلك الإرهابى الدولى (ماركوس) ، الذى رفع مسدسه الآلى فى وجه (كوسكا) ، وسأله فى خشونة ، وبلكنة أجنبية واضحة :

أين طائرتك الخاصة ؟

ارتجف (كوسكا) وهو يقول :

إنها ليست هنا يا سيد (ماركوس) .

سأله (ماركوس) فى غلظة :

أين هى إذن ؟ فى رحلة خاصة ؟!

أجابه (كوسكا) :

هذا صحيح .. لقد استقلها (أمين) ابنى إلى العاصمة ، لاستقبال صديق له وإحضاره إلى هنا .

ابتسم (ماركوس) ابتسامة صفراء مقيتة ، وهو يقول :

يبدو أن هذه المهمة لم ترق له ، فحول الطائرة إلى مركبة إنقاذ ، واشترك فى تهريب أحد أعداء الدولة .

شحب وجه (كوسكا) فى شدة وهو يقول :

أعداء الدولة ؟! مستحيل يا سيد (ماركوس) .. ليست لابنى أية اهتمامات سياسية أو .

قاطعه (ماركوس) بصيحة غاضبة :

اصمت يا رجل .. لقد أخطأ ابنك فى حق السيد (أدموند) ، وهو لا يغفر هذا أبدًا .. وسيقدم عينة من غضبه .

وبإشارة من يده ارتفعت فوهات مدافع رجاله الآلية نحو أبقار المزرعة ، وانطلقت الرصاصات تحصدها بلا رحمة ، فصرخ المساعد فى هلع ، وهو يحاول منع تلك المذبحة :

لماذا ؟ لماذا ؟

ولكن (ماركوس) ألصق فوهة المسدس بصدغه قائلاً :

اصمت يا هذا ، أو تلحق بالأبقار .

وأمسك (كوسكا) يد مساعده ، وجذبه إليه ، وهو يقول فى عصبية :

لا تتدخل يا رجل .. هؤلاء القوم لا يعرفون الرحمة .

اكتفى الرجال بعدد من الأبقار ، التى افترشت أرض المزرعة ، وسط بحر من الدماء ، وعادوا إلى سيارتهم ، فى حين قال (ماركوس) فى خشونة :

إنها مجرد عينة يا سيد (كوسكا) .. سنجلس هنا فى انتظار وصول الطائرة ، ولو حاول رجالك التدخل حينذاك ، ستجد جثة ابنك طريقها وسط الأبقار النافقة .. هل تفهم ؟

لم يجب (كوسكا) بسبب تلك الغصة فى حلقه ، ولكنه كان يدرك أن (ماركوس) يعنى كل ما يقول ..

يعنيه تمامًا ..

وأن ابنه (أمين) فى خطر هذه المرة ..

خطر بالغ للغاية .

★ ★ ★

اخترقت الرصاصات جسم الطائرة الصغيرة وعبرت إحداها على قيد سنتيمتر واحد من أذن (توماس) ، الذى صرخ :

أسرع يا رجل .. اهرب منهم .

انحرف (بوكا) بالطائرة فى سرعة ، وهو يقول فى اضطراب شديد :

فلتعشم خيرًا يا سيدى .. طائرتنا ليست صالحة للمناورة ، وهى تواجه هليكوبتر حربية يقودها محترف ..

أسرع (باسل) يقول :

انخفض يا (بوكا) .. انخفض بالطائرة إلى أقل ارتفاع ممكن .

أطاعه (بوكا) فى آلية ، وهو يقول :

ولكن هناك قمم الأشجار .

قفز (باسل) يلتقط المسدس الذى سقط من (توماس) قائلاً :

أعلم هذا .

كانت الهليكوبتر تنقض مرة أخرى ، عندما صوب (باسل) المسدس إلى واجهتها ، وأطلق النار .. كانت إصابته محكمة

دقيقة ، حتى إنها أفزعت قائد الهليكوبتر ، فانحرف بحركة حادة عنيفة ، ليتفادى الرصاصات ، التى أصاب بعضها زجاج النافذة ، وهو يهتف :

ـ أى مجنون هذا ؟ أيهاجم هليكوبتر حربية بمسدس واحد ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتطمت مروحة الهليكوبتر العلوية بقمة إحدى الأشجار ، مع ذلك الميل المباغت ، فتحطمت فى عنف ، وصرخ الرجل : لقد خدعنى هذا الـ ..

قبل أن يتم عبارته انقلبت الهليكوبتر ، وراحت ترتطم بالأشجار ، وهى تهوى بينها فى تخبط شديد ، فى حين صاح (توماس) مبهورًا :

مستحيل ! ماذا فعلت يا فتى ؟ إنك رائع بحق .

غمغم (باسل) :

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

قال (توماس) فى حيرة :

ما الذى تقوله ؟

أجابه (أمين) مبتسمًا يقول :

إن الله سبحانه وتعالى سدَّد خطاه .

تطلَّع (توماس) إلى (باسل) فى انبهار وتمتم :

ـ يا لك من فتى عربى !

اعتدل (باسل) والتفت إلى (بوكا) قائلاً :

والآن انطلق بأقصى سرعة يا رجل ، وقدنا إلى أقرب معسكر حربى .

تنحنح (بوكا) فى توتر شديد وهو يقول :

أعتقد أن هذا مستحيل عمليًا يا سيد (باسل) .

سأله (باسل) فى قلق شاركه إياه الجميع :

لماذا تقول هذا يا (بوكا) ؟

أشار (بوكا) إلى العدادات أمامه وهو يقول :

إحدى الرصاصات أصابت خزان الوقود .. ولم تعد لدينا قطرة واحدة منه .

اتسعت عينا (أمين) فى هلع ، وهو يهتف :

ولكننا وسط الأدغال .

هز (بوكا) كتفيه فى يأس وقال :

ليس لدى ما أفعله .

هتف (توماس) :

ـ تحدثوا بالإنجليزية .. لست أفهم شيئًا !

ترجم له (باسل) فحوى الحديث ، فامتقع وجهه فى شدة وقال :

وما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟

أجابه (باسل) فى ضيق :

إنه أوضح مما يمكن تفسيره يا سيد (توماس) .. لقد نفد

وقود الطائرة ، وهى تنزلق الآن كأنها طائرة شراعية عادية ، وتهوى فى قلب الأدغال ، وكل ما يفعله الطيار هو أنه يبذل قصارى جهده للعثور على مكان صالح للهبوط ، وسط هذه الأدغال الكثيفة .

ازداد امتقاع وشحوب وجه (توماس) ، واحتضن حقيبته الصغيرة فى شدة ، ثم دفعها إلى (باسل) فجأة قائلاً :

خذ هذه .

سأله (باسل) فى دهشة :

وما هى بالضبط ؟

أجابه فى توتر شديد :

إنها تحوى كل الوثائق والأوراق التى تدين (أدموند) وتكفى لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى .. احتفظ بها .. أنا أثق بك أكثر من نفسى .

تطلع إليه (باسل) فى دهشة بالغة ، وهو يسترجع ذكرى مواقف أخرى شبيهة ، وهم بقول شىء ما ، عندما هتف (بوكا) فجأة فى ذعر :

لا فائدة .. لا يوجد مكان صالح للهبوط .

ومع آخر حروف كلماته ، ارتطمت الطائرة بقمم الأشجار ، و ..

وكانت كارثة ..

★ ★ ★

كان السقوط قاسيًا ومروعًا وعنيفًا ، والطائرة ترتطم بالأشجار ويتحطم جناحاها ، وتتخبط يمينًا ويسارًا وهى تهوى لتصطدم أخيرًا بالأرض فى عنف ، ويتحطم ذيلها تمامًا ، ثم تستقر وسط عاصفة من الدخان والأتربة ..

ولدقائق طويلة ، بدا الأمر وكأن كل ركاب الطائرة قد لقوا مصرعهم مع السقوط ، ثم لم يلبث باب الطائرة أن اندفع خارجًا ، وبرز منه (باسل) ، وهو يجر (أمين) ، وقد تمزق زيه وسالت الدماء من بعض أجزاء فى ذراعه وساقه ..

وبعدها ظهر (بوكا) ، بجرح فى رأسه ، وهو يهتف :

ـ هل أنقذت السيد (أمين) ؟

أجابه (باسل) على الفور :

اطمئن .. إنه فاقد الوعى فحسب ، مع بعض الرضوض والكدمات .

تنهد (بوكا) فى ارتياح هاتفًا :

حمدًا لله .

صاح به (باسل) :

أحضر السيد (توماس) من الداخل ..

عقد (بوكا) حاجبيه وهو يقول فى حدة :

هل تريد منى أن أنقذ الرجل ، الذى جلب الشؤم لرحلتنا ؟

أجابه (باسل) فى صرامة :

بل أنا آمرك بهذا .. هيا يا رجل .. لا تجعل الغضب والتوتر يفقدانك آدميتك .

همهم (بوكا) بكلمات ساخطة ، ولكنه غاب قليلا داخل الطائرة ، وعاد يحمل جسد (توماس) ، الذى بدا فاقد الوعى بدوره ، فى حين التوى ساقاه على نحو بشع ، وقال (بوكا) فى عصبية :

لقد أصيب بكسر فى ساقه .

أجابه (باسل) : احمله إذن إلى جذع الشجرة البعيدة ، وأرقده إلى جوارها فى رفق ، وأحضر لنا بعض الأخشاب الجافة ؛ لنصنع له جبيرة .

ذهب (بوكا) بالرجل إلى جذع الشجرة ، وأرقده فى حذر ، قبل أن يسأل (باسل) :

هل ستقوم بعمل الطبيب ؟

أجابه (باسل) وهو يحاول إفاقة (أمين) :

لقد تلقيت بعض دروس الإسعافات الأولية فيما مضى .

فتح (أمين) عينيه ، وهتف فى ألم وانفعال :

ماذا حدث ؟ أين نحن ؟

هدأ (باسل) من روعه وهو يقول :

اطمئن لقد نجونا جميعًا تقريبًا ، فيما عدا السيد (توماس) ، الذى أصيب بكسر فى ساقه .

اعتدل (أمين) وهتف :

هل تعنى أننا نجونا من السقوط ؟

أومأ (باسل) برأسه إيجابًا ، وقال :

نعم يا صديقى .. بفضل الله (سبحانه وتعالى) ورعايته ، أدى تخبط الطائرة بين الأشجار ، إلى التخفيف من صدمة السقوط .

قالها واتجه نحو (توماس) ، فلحق به (أمين) وسأله :

هل ستصنع جبيرة لساقه ؟

غمغم (باسل) :

ـ يمكنك أن تقول هذا .. ومن حسن حظه أن الكسر لم يكن فى منطقة الفخذ ، وإلا لكانت حالته سيئة للغاية

وفى نفس اللحظات ، التى بدأ فيها يصنع الجبيرة البدائية لساق (توماس) ، بالأخشاب التى أحضرها (بوكا) ، كان (ماركوس) يتلقى خبر سقوط الطائرة ، عبر جهاز لاسلكى ، وعيناه تتألقان جذلا وهو يقول :

إذن فقد سقطت تلك البطة الصغيرة ! عظيم .. عظيم .. قل لى يا رجل .. هل حددتم موضع السقوط ؟

استمع إلى محدثه بضع لحظات فى انتباه شديد ، قبل أن يفتر ثغره عن ابتسامة شرسة ويقول :

ـ كلا .. اتركوا هذه المهمة لى .. إننى أحب وضع اللمسات الأخيرة بنفسى ..

وأنهى الاتصال وهو يلتفت إلى (كوسكا) بابتسامة ساخرة متشفية قائلاً :

- انتهت المشكلة إلى حد كبير يا سيد (كوسكا) .. لقد سقطت الطائرة الخاصة .

شهق (كوسكا) وهتف فى لوعة :

ابنى .. (أمين) .. هل أصابه مكروه ؟

ابتسم (ماركوس) ساخرًا ، وقال وهو يتجه إلى سيارته :

ما الذى تتوقعه مع حادث سقوط طائرة ؟

اتسعت عينا الرجل فى هلع وارتياع ، ثم لم تلبث كل هذه المشاعر أن انزاحت جانبًا مع كل الغضب الذى غمر ملامحه وهو يصرخ :

أيها القاتل ..

وانقض على (ماركوس) فى ثورة ، ولكن هذا الأخير استدار يواجهه فى سرعة وخفة ، ولكمه فى أنفه ، ثم هوى بكعب مسدسه على رأسه ، فأسقطه فاقد الوعى ، واندفع مساعده إليه هاتفًا :

- ماذا فعلت بالسيد (كوسكا) ؟

هز (ماركوس) كتفيه فى لامبالاة وقال :

- إنه حسن الحظ .. لقد أفقدته الوعى فحسب ، وهذا لأننى رائق المزاج الآن ، بعد أن وصلنى خبر سقوط الطائرة ، ولولا هذا لنسفت رأسه برصاصات مسدسى هذا .

قالها وقهقه ضاحكًا فى انسجام وهو يثب إلى سيارته هاتفًا :

هيا يا رجل .

وغادروا المزرعة بصخب يفوق ما أحدثوه فى اقتحامهم إياها ، وتركوا خلفهم مذبحة رهيبة ، ورجلا انفطر قلبه على ابنه الذى هوت به الطائرة وسط الخطر .. فى قلب الأدغال .

★ ★ ★

تأوه (توماس جيفرى) وهو يستعيد وعيه ، وتصبب عرق غزير على وجهه ، وهو يتلفت حوله ، هاتفًا :

هل .. هل نجونا ؟

ربت (باسل) على كتفه وهو يقول :

نعم يا سيد (توماس) .. شاء الله (العلى القدير) أن تنجو من السقوط ، ولكنك مصاب بكسر فى ساقك .

هتف (توماس) فى هلع :

والحقيبة ؟! ماذا عن الحقيبة ؟

ناوله (باسل) إياها قائلاً : اطمئن ها هى ذى .

حاول أن يتحرك لالتقاطها فى لهفة ولكن ساقه آلمته ، فتأوه بصوت مرتفع ، ودفع (باسل) الحقيبة بين ذراعيه قائلاً :

لا تبذل جهدًا كبيرًا .

احتضن (توماس) الحقيبة ، وفحص ما بها فى اهتمام ، قبل أن يعيدها إلى (باسل) قائلاً فى توتر :

خذها وأكمل المهمة .

غمغم (باسل) فى حرج :

سيد (توماس) .. لست أعرف شيئاً عن محتويات هذه الحقيبة .
لوح بذراعيه قائلاً :
وثائق .. كلها وثائق وأدلة ، تكفى لإعدام هذا الخائن (أدموند) .. خذها وابذل قصارى جهدك لتسليمها إلى الأمم المتحدة أو الرئيس .. عدنى أن تفعل .. عدنى بالله عليك .
تساءل (باسل) فى أعماقه :
لماذا يثق به الجميع ، على هذا النحو العجيب ؟ ولكنه أخفى تساؤله فى داخله ، وهو يقول سأبذل قصارى جهدى يا سيد (توماس) .
وهنا قال (بوكا) :
والآن ، وبعد هذه المشاورات .. كيف يمكننا الخروج من هذا المأزق ؟ لقد أرسلت عشرات الإشارات اللاسلكية لتحديد موقعنا ، وما من مجيب .
أجابه (باسل) :
سنعبر الأدغال إلى أقرب مكان مأهول .
هتف (أمين) :
نعبر ماذا ؟! ما أيسر القول وأصعب الفعل يا (باسل) .. ألا تعلم ما يقولونه عن أدغال بلادى ؟
إنها مقبرة المغامرين والتائهين .. كثيرون هم من حاولوا اجتيازها ، وقلة نادرة من بقوا على قيد الحياة ، بعد أن فقدوا عقولهم داخلها .

قال (باسل) :
اسمع يا (أمين) .. لست أدرى ما يقولونه عن أدغالكم بالفعل ، ولكننا لن نتوقف هنا ، فى انتظار من سيرسلهم (أدموند) هذا للتيقن من مصرعنا ، أو القضاء على ما تبقى منا .. الحل الوحيد أمامنا هو أن نعبر الأدغال ، و ...
أدهشته تلك النظرة المذعورة فى عينى (أمين) ، فبتر عبارته بغتة ، واستدار يتطلع إلى ما يراه هذا الأخير ، ثم اتسعت عيناه بدوره وهو يحدق فى ذلك المخلوق الضخم ، الذى راح يتطلع إليهم فى حذر وحشى ..
الغوريلا السوداء الرهيبة ..

★ ★ ★

٣ ـ الوحـــوش ..

سرت قشعريرة باردة فى أجساد الجميع ، وهم يحدقون فى الغوريلا السوداء المخيفة ، التى حدجتهم بدورها بنظرة باردة قاسية قبل أن يتمتم (أمين) بصوت مرتجف مرتعش :

ربّاه .. إنها ستفترسنا جميعًا بلا رحمة .

أشار إليه (باسل) بالتزام الهدوء وهو يقول :

ـ الغوريلا ليست حيوانًا مفترسًا يا صديقى .. إنها فى المعتاد من آكلات العشب ، على الرغم من مظهرها المخيف .

قال (بوكا) فى عصبية :

وهل تبدو لك كذلك ؟ هل تؤكد أنها لن تهاجمنا ؟

أجابه (باسل) : من الواضح أننا هبطنا فى أرضها ، وهى تسعى لتأكيد سيادتها ، وإرهابنا ، ودفعنا إلى مغادرة المكان .

لم يكد يتم عبارته ، حتى أطلقت الغوريلا زمجرة مخيفة ، ودقت صدرها بقبضتيها فى قوة ، فارتجف (أمين) رعبًا ، وشهق (توماس) ، فى حين قفز (بوكا) يختطف المسدس هاتفًا فى ذعر :

ـ دع نظرياتك هذه جانبًا يا سيد (باسل) .. لن تفهمها الغوريلا .

أمسكه (باسل) فى سرعة هاتفًا :

لا تطلق النار عليها .

ورفع يده فى اللحظة الأخيرة ، وسبابته تضغط على الزناد ، فانطلق الرصاص عاليًا وأصاب غصن الشجرة ، التى تقف أسفلها الغوريلا ، فسقط على رأسها ، وجعلها تتراجع مذعورة ، وتطلق زمجرة أخرى ، ثم تعدو مبتعدة داخل الأدغال ..

وفى غضب صاح (باسل) :

ماذا فعلت يا (بوكا) ؟

هتف (بوكا) :

لقد أبعدتها .. ألم تر ما حدث ؟

صاح (باسل) : بل لقد أعلنت عن وجودنا بوسيلة واضحة ومباشرة وصريحة .. من المؤكد أن أى مخلوق يمكنه سماع دوى الطلقة فى الأدغال .

فهم (أمين) ما يعنيه (باسل) على الفور ، فامتقع وجهه وهو يقول :

ـ ربّاه ! لو أن بعض رجال (أدموند) هنا ..

أسرع (باسل) يقول فى انفعال :

فليكن .. لقد حدث ما حدث .. دعونا نبتعد عن هنا بسرعة .. هذا هو أملنا الوحيد .

قال (توماس) مرتجفًا :

وماذا عنى أنا ؟

تطلع إليه الثلاثة فى أسف وحيرة ، ثم قال (باسل) فى حزم :

- حملك ومحاولة نقلك يؤثران سلبيًا على إصابتك يا سيد (توماس) .. ولكن هناك وسيلة جيدة لحمايتك .

وأشار إلى (بوكا) قائلاً :

ساعدنى .

تعاونا لينقلاه فى حذر إلى منطقة كثيفة الأغصان ، وأخفاه (باسل) وسطها فى اهتمام وعناية ، ثم ناوله المسدس ، قائلاً :

نحن نعرف موقعك ، وسنعود لالتقاطك ، عندما ننجح فى عبور الأدغال .. وتلك الأعشاب المحيطة بك صالحة للأكل ، وهذا المسدس سيكفل لك شيئًا من الحماية .

أومأ برأسه مستسلمًا فى شحوب ثم قال :

اللاسلكى .. أحضروا جهاز اللاسلكى من الطائرة .

أحضر له (بوكا) ما أراد ، وهو يغمغم فى سخط :

وفيم سينفعك هذا ؟

تجاهل (توماس) هذا القول تمامًا ، وهو يقول (لباسل) فى انفعال :

الحقيبة .. حافظ عليها وعلى الوثائق .. هذا وحده يجعل لموتى فائدة .

أجابه (باسل) فى حزم :

اطمئن يا سيد (توماس) .. لقد وعدتك .

وهنا اندفع (أمين) نحوهما قائلاً فى توتر :

هناك صوت سيارات تقترب .

ثم أشار أمامه مستطردًا :

- (بوكا) خذ السيد (أمين) وانطلقا عبر الأدغال ، فى خط مستقيم وسألحق بكما بعد قليل .

سأله (أمين) فى قلق :

ولماذا لا تصحبنا ؟

صمت (باسل) لحظة ثم قال فى حزم :

- ينبغى أولاً أن أعد حفل استقبال هؤلاء المجرمين ، الذين يطاردوننا .

وبدا لهم قوله غامضًا ..

غامضًا للغاية ..

★ ★ ★

لم يكد دوى الرصاصة يتردد فى الأدغال ، حتى أشار (ماركوس) لرجاله وهتف فى حزم :

- توقفوا .

توقفت السيارتان على الفور ، وأرهف هو سمعه لحظات فى اهتمام بالغ ، قبل أن يقول فى حزم :

هذا الاتجاه .

انطلقت السيارتان مرة أخرى حيث أشار ، وقال أحد الرجال فى قلق :

هذا الصوت يأتى على مقربة من مخزننا الرئيسى .

تمتم (ماركوس) فى توتر :

أعلم هذا .. ولكنها رصاصة منفردة .. الأرجح أن أحد ركاب الطائرة قد نجا ، وواجه أحد حيوانات الأدغال .

سأله الرجل فى دهشة :
هل يمكن أن ينجو من السقوط ؟
قال (ماركوس) فى برود :
كل شىء محتمل .
لم تمض دقائق على قوله هذا ، حتى بلغت السيارتان موضع الطائرة ، وقال (ماركوس) لرجاله فى حزم :
- افحصوا الحطام جيدًا .
أحاط الرجال بجسم الطائرة ، وراحوا يفحصونها بمنتهى الدقة ، فى حين فحص (ماركوس) المنطقة نفسها فى خبرة وحنكة قبل أن يرفع عينيه إلى الأمام قائلاً :
- عجبًا !
لقد اتجهوا مباشرة إلى حيث مخزننا الرئيسى .
ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :
هل تعمدوا هذا أم ؟
أتى أحد رجاله فى اللحظة نفسها قائلاً :
لم نعثر على أية جثث أيها الزعيم .. واللاسلكى مفقود ، كما أن خزان الوقود فارغ تمامًا .
تمتم (ماركوس) فى غضب :
- إذن فقد نجوا جميعًا ، وخلو خزان الوقود أنقذهم من انفجار الطائرة ، وهم يحملون جهاز اللاسلكى الآن ، ويتجهون إلى المخزن الرئيسى .

قال الرجل :
ومعهم مسدس أو بندقية .
ازداد انعقاد حاجبى (ماركوس) فى شدة ، ثم هتف فى صرامة :
هيا يا رجال .
قفز الجميع إلى السيارتين وصاح هو :
إلى المخزن الرئيسى مباشرة .
سأله الرجل ، وهم ينطلقون إلى حيث أشار :
ماذا تتوقع أيها الزعيم ؟
أجابه (ماركوس) فى حزم :
- لقد أخطئوا فى اختيار طريقهم ، ولكن هذا يضعهم على أية حال ، بين المطرقة والسندان ، فإما أن نلحق بهم نقتنصهم نحن ، أو يصلوا إلى المخزن ، فيتكفل بهم حراسه هناك ، و ..
بتر عبارته فجأة ، وهو يتطلع إلى نقطة ما ، وهتف :
توقفوا .
ثم انتزع بندقيته بسرعة ، فسأله أحد رجاله :
ماذا هناك ؟
أشار إلى الأمام ، قائلاً :
إنه ذلك العربى الذى قالوا : إنه كان داخل الطائرة .
وصوب بندقيته فى إحكام شديد إلى حيث بدا ذلك الزى واضحًا ، وسط الأدغال ، واستطرد فى سخرية :

ـ لقد اشتقت بالفعل للصيد .

قالها ، وضغط الزناد ، و ..

وأطلق النار على (باسل) .

★ ★ ★

لم يكد السيد (كوسكا) يستعيد وعيه ، فى المستشفى الملحق بمزرعته ، حتى هتف فى هلع وارتياع :

(أمين) . أنقذوا ابنى (أمين) .

هرع إليه مساعده ، يهدئ من روعه ، وهو يقول :

اهدأ يا سيد (كوسكا) اهدأ .

هبَّ (كوسكا) جالسًا على طرف فراشه وهو يقول :

ـ ماذا أصاب ابنى ؟ لقد سقطت به الطائرة .. ولو نجا من السقوط سيقتله (ماركوس) السفاح .. ماذا نفعل ؟ .. ماذا نفعل ؟

قال مساعده فى قلق : يمكننا أن نرسل حملة من رجالنا ، للبحث عن السيد (أمين) وإنقاذه ، لو أنه ما زال على قيد الحياة .

هز رأسه فى قوة وهو يقول :

ـ (أدموند) وزبانيته لن يسمحوا لنا بهذا .. سيتصدون لحملتنا بكل قوتهم ، وربما قتلوا رجالنا عن آخرهم .

قال المساعد فى مرارة :

وماذا لدينا لنفعله ، فى مواجهة كل هذا الشر ياسيد (كوسكا) ؟

هتف (كوسكا) فى انفعال :

ـ نبلغ الرئيس .. كلنا نعلم أنه لن يرضى أبدًا بأفعال (أدموند) ولا بوجود مخزن لتجارة السلاح فى قلب أدغالنا .

قال المساعد فى حيرة :

ولكن كيف نصل إلى السيد الرئيس بهذه السرعة ؟

أجابه (كوسكا) فى حماس :

نطلب مقابلة عاجلة معه .

هز المساعد رأسه ، وقال :

ـ هذا سيستغرق يومًا كاملاً على الأقل لمراجعة إجراءات الأمن ، وعمل التحريات اللازمة عنا ، وربما تم إسناد هذه المهمة للسيد (أدموند) نفسه .

اتسعت عينا (كوسكا) فى هلع عندما ذكر مساعده هذه النقطة الأخيرة ، ثم لم يلبث هلعه هذا أن استحال إلى الغضب ، وهو يقول :

ولكننى لن أترك ابنى تحت رحمتهم هكذا .

قلب مساعده كفيه فى حيرة ، وهو يقول :

وماذا بيدنا لنفعله ؟

انعقد حاجبا (كوسكا) فى شدة ، وهو يقول :

هناك حل آخر ، لم يخطر ببال (أدموند) و (ماركوس) قط .. حل حاسم وقوى .

ومع قوله ، بدت ملامحه شديدة الصرامة ..

وشديدة الحزم ..

سدَّد (ماركوس) رصاصته فى إحكام شديد ، وأدرك منذ اللحظة الأولى أنه أصاب هدفه فى مقتل ، فهتف فى ظفر :

أصبته يا رجال .

ولكن الطريقة التى سقط بها الهدف ، أثارت الكثير من قلقه ، فلوح بيده قائلاً :

ولكن دعونا ننطلق إليه .

انطلقت السيارتان نحو البقعة ، التى أصاب (ماركوس) عندها هدفه ، وما إن بلغاها ، حتى قفز هذا الأخير من سيارته ، وأسرع يفحص المكان ، قبل أن يصيح فى سخط شديد :

- إنه هدف زائف .. لقد وضع ذلك العربى زيه فوق غصن جاف ، ليلفت انتباهنا إليه .

ارتفع حاجبا أحد الرجال فى دهشة وهو يقول :

ولكن لماذا ؟

تراجع (ماركوس) وأدار عينيه حوله فى قلق وهو يقول :

لست أدرى .. لقد أراد أن يجذبنا إلى هذا المكان بالذات ، أو ..

قبل أن يتم عبارته ، قاطعه أحد رجاله ، هاتفًا :

الإطارات أيها الزعيم .. لقد تلفت كلها .

استدار (ماركوس) فى حدة إلى إطارات السيارتين ، وانعقد حاجباه فى غضب هادر ، عندما رأى أشواك النباتات الحادة ، التى فرشها (باسل) فى المنطقة والتى اخترقت الإطارات وأتلفتها كلها ، وصاح ثائرًا :

ذلك العربى فعل بنا هذا .. الويل له .

وأشار بيده .. مستطردًا :

دعونا ننطلق خلفه يا رجال .

سأله أحدهم فى حيرة :

فى أى اتجاه ؟

صمت لحظات ، وهو يهرش ذقنه بسبابته فى عصبية ، ثم أشار إلى اتجاه المخزن ، وقال فى حزم :

هذا الاتجاه .

وفى نفس اللحظة ، التى انطلقوا فيها على أقدامهم ، لاستكمال المطاردة ، كان (أمين) يسأل (بوكا) فى قلق شديد ، وهما ينطلقان ، عبر الأدغال :

دوى الرصاصات الذى سمعناه يقلقنى .. أتعتقد أنهم ظفروا بصديقى (باسل) ؟

هزّ (بوكا) رأسه نفيًا ، وقال :

كلا .. لست أعتقد هذا .. صديقك (باسل) هذا ثعلب حقيقى .. وليس من السهل أن يُظفر به .

سأله (أمين) متوترًا :

كيف تفسر صوت الطلقات إذن ؟

فتح (بوكا) فمه ليجيب ، ثم أطبقه فجأة ، مع انعقاد حاجبيه ، وجذب (أمين) إلى منطقة متشابكة الأغصان ، قائلاً فى صوت حازم خافت :

- لا تنطق بكلمة واحدة :

انكمش (بوكا) فى مكانه فى صمت ، وإلى جواره (أمين) ، الذى حبس أنفاسه فى شدة ، وأرهف سمعه ، ليستمع إلى صوت الأغصان الخافت ، وهى تتكسر تحت قدمى شخص يقترب ، ثم لم يلبث الشخص نفسه أن لاح أمامهما ، فاندفع (بوكا) نحوه ، وانقض عليه فى عنف ، وتعلق بعنقه فقبض ذلك الشخص على ياقة (بوكا) وجذبه فى قوة ، فأداره فى الهواء ، وألقاه أرضًا ، واستعد للانقضاض عليه قبل أن يهتف فى دهشة :

أهو أنت يا (بوكا) ؟!

لم يتمالك (أمين) نفسه ، فاندفع من بين الأشجار ، هاتفًا :

- (باسل) .. صديقى العزيز .. لقد خدعتنى بهذا الزى الذى ترتديه .. إنه يشبه زى رجال الجيش .

ابتسم (باسل) وهو يقول :

إنه كذلك يا صديقى .. كنت أرتديه فى أثناء تدريبات الدفاع الوطنى ، وهو صالح للمناطق الوعرة ، وكنت أحتفظ به فى حقيبتى نهض (بوكا) ، وتأوه مرة ، قبل أن يسأله :

وأين زيك ؟

ابتسم (باسل) وقال :

صنعت به فخًا للمجرمين ، الذين يطاردوننا .

ثم جذب صديقه ، وهو يستطرد :

وبهذه المناسبة ، لابد لنا أن نتحرك بسرعة كبيرة ، فقد أفسدت سيارتيهم ، ولكنهم أكثر خبرة منا بهذه الأدغال .

هتف (أمين) :

من قال هذا ؟ هذه الأدغال هى موطنى الأصلى ، وموطن آبائى وأجدادى .

ابتسم (باسل) وهو يقول :

قدنا وسطها إذن .

نفخ (أمين) صدره فى اعتداد ، وقال :

- اتبعونى .

بدأ ركبهم الصغير يتقدم فى بطء ، عبر الأدغال الكثيفة ، وهم يتجاوزون بعض الأغصان ، ويقفزون فوق الجذور الضخمة ، ويدورون حول الجذوع ، حتى بلغوا منطقة شديدة التشابك ، فغمغم (أمين) :

فى هذه الظروف نتسلق الأشجار ، ونعبرها إلى الجانب الآخر ، الذى يكون - فى المعتاد - قليل الكثافة .

قال (باسل) فى مرح :

فليكن يا صديقى .. نحن رهن إشارتك .

رفع (بوكا) حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

عجبًا ! كيف يمكنك أن تمزح ، فى موقف كهذا يا سيد (باسل) ؟

ضحك (باسل) وهو يقول :

وفيم يفيد الحزن يا صديقى ؟
تسلق (بوكا) الشجرة إلى جواره ، وهو يقول :
إنه لن يفيد ولكن ..
قاطعته فجأة شهقة (أمين) وهو يهتف :
انظروا .
استدار الاثنان إلى حيث يشير ، واتسعت عيونهما فى شدة ، فقد كانت أمامها مفاجأة ..
مفاجأة مدهشة ..

★ ★ ★

٤ ـ الرمـــح ..

حبس (توماس) أنفاسه ، وانكمش فى مكمنه ، وهو يراقب رجال (ماركوس) فى أثناء فحصهم الطائرة المحطمة ، وما إن ابتعدوا حتى تنفس الصعداء ، وهتف فى خفوت :
حمدًا لله .. تصورت لحظة أنهم سيعثرون على ، ويمزقوننى إربًا .
مضت دقائق على انصرافهم ، ثم انتفض جسده في عنف ، مع دوى رصاصاتهم ، وتشبث بجهاز اللاسلكى ، هاتفًا :
يا لهم من سفاحين !
وفجأة ، استدار إلى جهاز الإرسال فى انفعال ، وحدق فيه لحظة ، قبل أن يقول فى توتر :
ـ لماذا لا أحاول ؟ من يدرى ؟
راح يضبط الموجة ، معتصرًا ذاكرته ، وأمسك بوق الجهاز ، قائلا :
ـ هنا (توماس جيفرى) مندوب الأمم المتحدة .. أجب .. هنا (توماس جيفرى) ..
ظل يكرر النداء عدة مرات ، دون أن يتلقى جوابًا ، ولكن فجأة ، تناهى إلى مسامعه صوت أقدام تتحرك ، على مقربة منه ، فتوقف عن التكرار ، وأغلق الجهاز ، وعاد يحبس أنفاسه ، وينكمش فى مكمنه ، وهو يتمتم :

- رباه .. ما الذى جلبته لنفسى ؟

كان وقع الأقدام يتجه إليه مباشرة ، فسرت فى جسده قشعريرة باردة ، وتمنى من أعماقه ألا يكشف القادم مخبأه ، و ... وفجأة ، أطل عليه وجه غير مألوف ..

وجه زنجى ، من قبائل الأدغال البدائية ، بتلك الصبغات على أنفه وجبهته ، يتطلع إليه بنظرة صامتة ..

وشهق (توماس) فى ارتياع ، وهو يهتف :

لا .. لا .. النجدة .. النجدة ..

وردد ذلك الجزء فى الأدغال استغاثته ، ولكن ..

ما من مجيب ..

★ ★ ★

مضت دقيقة كاملة ، و (باسل) ورفيقاه يحدقون فى ذلك المشهد المدهش أمامهم ، قبل أن يغمغم (بوكا) فى ذهول :

- إنه مخزن أسلحة .. بل جيش بأكمله .. مدافع ميدان ، وعربات مصفحة ودبابات ، وطائرات هليكوبتر مقاتلة ، وقنابل وأسلحة خفيفة .. إنها ترسانة كاملة .

عقد (باسل) حاجبيه ، وقال :

يبدو أننا وقعنا على المخزن الرئيسى يا رفاق .

قال (أمين) فى توتر شديد :

دعونا نبتعد إذن .. لقد ألقينا أنفسنا بين فكى الأسد .

أمسك (باسل) ذراعه فى قوة ، وهو يقول :

- التراجع الآن مستحيل .. الأشرار خلفنا ، وسيتجهون حتمًا إلى هنا ، وسنصطدم بهم مع تراجعنا .

قال (أمين) بعصبية :

والتقدم أيضًا مستحيل ، لأن هذه الترسانة فى مواجهتنا .

تدخل (بوكا) ، قائلاً :

لم لا ندور حول المكان ؟

أشار (باسل) إلى المنطقة المجاورة ، وهو يقول :

- لأنهم أحسنوا اختيار موقع وكرهم ، بحيث تحيط به المستنقعات العميقة من الجانبين ، وتحيطه الأشجار الكثيفة من الأمام والخلف .

وصمت لحظة مفكرًا ، قبل أن يستطرد :

ولكنّ هناك ممرًا حتمًا لعبور كل هذه الآليات القتالية الضخمة .

قال (بوكا) فى توتر :

عظيم .. ما رأيك لو قضينا العمر كله فى البحث عن هذا الممر ؟

تنهد (باسل) ، وقال :

لو أنك ترفض الفكرة ، فليس أمامنا سوى حل واحد .

سأله (أمين) فى لهفة :

ما هو ؟

أشار (باسل) إلى مخزن الأسلحة ، وأجاب :

أن نهاجم هذا المكان ، ونستولى على طائرة هليكوبتر ، تساعدنا على الفرار .

حدق الاثنان فى وجهه فى ذهول ، قبل أن يقول (أمين) فى حدة :

- هل تمزح فى مثل هذه الظروف يا (باسل) ؟

هز (باسل) رأسه نفيًا ، وقال :

- مطلقًا .. إننى أتحدث بواقعية شديدة .. من الواضح أننا الآن فى مؤخرة المخزن ، والطائرات على مسافة عشرة أمتار منا ، ويقوم على حراستها رجل واحد ، يحمل مدفعًا آليًا ، وهو لا يتوقع هجومنا بالتأكيد ، ولو أننا باغتناه ، وأفقدناه الوعي ، قبل أن ينجح فى إنذار الآخرين وتنبيههم ، فسيمكننا (بإذن الله) الاستيلاء على إحدى الطائرات ، والفرار بها من المكان كله .

وعلى الرغم من جنون الفكرة ، إلا أنها ، وفى هذه الظروف بالذات ، بدت كآخر أمل فى النجاة ، فتبادل (أمين) و (بوكا) نظرة متوترة ، قبل أن يسأل الأول :

وماذا سنفعل بالضبط ؟

ابتسم (باسل) وهو يقول :

سأشرح لكما خطتى .

كانت الخطة بسيطة للغاية ، ولقد وضعوها موضع التنفيذ على الفور ، فتسلل (باسل) عبر الأغصان الكثيفة فى خفة ، وخلفه (أمين) و (بوكا) وهمس (باسل) للأخير :

- سننطلق فى آن واحد .. أنت و (أمين) تتجهان إلى الهليكوبتر الأولى ، وسألحق بكما بعد سقوط الحارس .

وتوقف لحظة ليعيد دراسة المكان ، ثم هتف :

الآن .

وانطلق يعدو بكل قوته ، نحو حارس الطائرات ، الذى شعر بوقع الأقدام التى تتجه إليه ، فاستدار بمدفعه فى سرعة ، ولم يكد بصره يقع على (باسل) حتى ارتفع حاجباه فى دهشة ، ورفع فوهة مدفعه ، هاتفًا :

من أين أتيت أيها الـ ..

ولكن (باسل) قفز بكل قوته ، وقطع الأمتار المتبقية بوثبة واحدة ، وركل المدفع الآلى من يد الرجل ، قائلاً :

- مفاجأة .. أليس كذلك ؟!

ثم هوى بقبضته اليمنى على فك الرجل ، وأعقب لكمته بأخرى فى معدته ، ثم شبك أصابعه ، وضم قبضتيه ، وهوى بهما مجتمعتين على مؤخرة عنق الرجل ، الذى سقط كجوال من الرمال ، دون أن يصدر منه أدنى صوت ..

وفى نفس الوقت الذى دار فيه هذا القتال السريع الخاطف ، كان (بوكا) و (أمين) قد بلغا الهليكوبتر ، وقفزا داخلها ، واختبر (بوكا) أزرارها وعصا قيادتها فى سرعة ، حتى رأى (باسل) يعدو نحوه ، وهو يقول :

- أدر المحركات بسرعة .. هيا .

ووثب بدوره داخل الهليكوبتر ، وهو يحمل المدفع الآلى الذى انتزعه من الرجل .. و ..

وفجأة ، ظهر (ماركوس) ورجاله ، وهتف هو فى صرامة :

أوقفوهم يا رجال .. أريدهم أحياء .

اندفع الرجال نحو الهليكوبتر ، وهم يحملون مدافعهم الآلية ، وهتف (أمين) فى توتر شديد :

ارتفع بالهليكوبتر يا (بوكا) .. ارتفع .

صاح (بوكا) فى انهيار :

مستحيل يا سيد (أمين) .. مستحيل !

سأله (باسل) فى عصبية :

لماذا مستحيل ! أجذب عصا القيادة ، واضغط أزرار المحرك ، وسترتفع الهليكوبتر على الفور .

قال (بوكا) فى مرارة يائسة :

لقد فعلت كل هذا ، ولكن الطائرة لم ترتفع ، لأن خزانها خال من الوقود تمامًا .

انهار الأمل بغتة فى قلب (أمين) فشحب وجهه ، وهو ينكمش فى مقعده ، فى حين رفع (باسل) المدفع الآلى ، وهتف :

ـ فى هذه الحالة لا يصبح أمامنا حل آخر .

وقفز خارج الهليكوبتر ، ليشتبك مع (ماركوس) ورجاله ، فى قتال عنيف ، ولكنه لم يكد يفعل ، حتى وجد فوهات المدافع الآلية كلها مصوبة إليه ، وسمع (ماركوس) يقول فى سخرية :

انتهى الأمر يا فتى .. ليس لديك أدنى أمل فى النجاح .

كان (ماركوس) محقًا ، حتى إن (باسل) خفض فوهة مدفعه ، وهو يقول فى حنق :

ـ حسن يا رجل .. لقد ربحت المعركة .

سمع من خلفه صوتًا يقول بغتة :

كان هذا أمرًا متوقعًا .

استدار (باسل) إلى القادم الجديد ، ثم ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ..

فقد كان ذلك القادم هو الجنرال ..

الجنرال (أدموند) بنفسه ..

★ ★ ★

امتقع وجه (بوكا) فى شدة وهو يحدق فى وجه (أدموند) وتمتم فى خفوت أقرب إلى الهمس :

السفاح !

شحب وجه (أمين) بدوره ، وهو يقول :

(أدموند) نفسه .. مستحيل .

أما (باسل) فقد عقد ساعديه أمام صدره ، بعد أن ألقى مدفعه ، وتطلع إلى (أدموند) فى هدوء عجيب وهو يقول :

إذن فأنت الجنرال (أدموند) أخطر رجل فى الدولة كلها .

أجابه (أدموند) :

نعم يا فتى .. ولكنك لن تتمتع برؤيتى طويلاً ، لو أنك لم تجب عن أسئلتى .

سأله (باسل) فى هدوء :

أية أسئلة ؟

انعقد حاجبا (أدموند) فى شراسة ، وهو يقول :

أين (توماس) ؟ وأين الوثائق التى كان يحملها ؟

قال (باسل) : من توماس هذا ؟ صاح (أدموند) فى غضب :

هل تسخر منى أيها العربى ؟ ألا تدرك ما يمكننى أن أفعله بك ؟

هزَّ (باسل) كتفه فى لامبالاة ، وقال :

افعل ما يحلو لك ، ولكنك لن تحصل منى على حرف واحد .. لقد وعدت الرجل ، ولن أحنث بوعدى قط .

هتف (أدموند) فى استنكار :

وعد ؟! أى قول هذا يا فتى ؟ هل تموت من أجل وعد قطعته على نفسك ؟

أجابه (باسل) فى حزم حاسم :

بالطبع .. العربى لا يحنث بوعده قط .

قال (ماركوس) :

- دعنى أقتلعه يا جنرال ، وسيدلى صديقاه باعتراف مفصل على الفور .

تبادل (أدموند) نظرة متحدية مع (باسل) ، ثم لوّح بكفه ، قائلاً :

- افعل يا رجل .. إنه يستحق هذا .

برقت عينا (ماركوس) فى وحشية ، وهو يقول :

أشكرك يا جنرال .. أشكرك كثيرًا .

وارتجف جسدا (أمين) و (بوكا) فى عنف ، عندما ألصق (ماركوس) مسدسه بصدغ (باسل) ، قائلاً :

قل وداعًا لهذه الدنيا ، أيها الفتى العربى .

كان يحتاج إلى ثانية واحدة ، ليعتصر الزناد ، وينسف رأس (باسل) ..

ولكنه لم يحصل عليها ..

لقد اخترق صدره بغتة رمح طويل ، برز من ظهره ، فى موضع القلب تمامًا فجحظت عيناه ، وهوى جثة هامدة على الفور ..

وفى اللحظة الثانية ، كان جيش من القبائل الإفريقية البدائية ينقض على المخزن ، ويمطر حراسه بالرماح والسهام ، على نحو مباغت عنيف ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من المدافع الآلية ، التى يحملها رجال (أدموند) ، إلا أنهم انهزموا شر هزيمة ، أمام ذلك الجيش البدائى ، فيما عدا (أدموند) نفسه ، الذى انطلق يعدو مبتعدًا ، وانتزع مسدسًا صارخًا :

لا .. ابتعدوا عنى .. أنا (أدموند) .. الجنرال (أدموند) .

ولكن (باسل) لحق به بقفزة سريعة ، وجذبه إليه ، قائلاً :
لا تذكر هذا كثيرًا ، فقد أفل نجمك .

استدار (أدموند) ليواجهه ، وهو يحمل مسدسه ، ولكن (باسل) أطاح بالمسدس بضربة قوية محكمة فى يسراه ، ثم هوى على فك (أدموند) بلكمة كالقنبلة بيمناه ، وهو يستطرد :

ـ ولكل شيء نهاية .

تراجع (أدموند) مع الضربة ، ثم انقض مرة ثانية على (باسل) ، صارخًا :

لا يمكنك أن تفعل هذا بى .. أنا الجنرال (أدموند) .. أعظم رجل فى الدولة .

أمسك (باسل) معصمه فى خفة ، ولوى ذراعه خلف ظهره فى حركة سريعة ، وهو يقول :

ـ العظمة لله وحده أيها المكابر ، أما البشر فالزوال هو مصيرهم .

ولكن (أدموند) انتزع من جيبه فجأة قنبلة يدوية ، جذب فتيلها بأسنانه ، وهو يصرخ كالمجنون :

فليكن .. لو أننى سأموت ، فلن أذوق الموت وحدى .

ولكن (باسل) انتزع منه القنبلة فى قوة ، وألقاها بكل قوته نحو المستنقع ، الذى يحيط بالمخزن ، قائلاً ومن سيمنحك الفرصة لتفعل ؟

انفجرت القنبلة فى قلب المستنقع بدوى مكتوم ، وانهار (أدموند) ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! مستحيل ! أنا رجل الدولة القوى .. أنا الأقوى .

دفعه (باسل) أمامه ، وهو يقول :

لم تعد كذلك يا رجل .. لقد تخلصت من الحقيبة ، ولكننى أحمل فى جيبى كمية من الوثائق والأدلة ، تكفى لإعدامك كخائن لدولتك .

وهنا ارتفع صوت يهتف :

رائع يا فتى .. كنت أعلم أنك أهل لها .

التفت (باسل) بسرعة إلى مصدر الصوت ، وأدهشه أن يجد (توماس) أمامه ، فوق محفة مريحة ، بين عدد من البدائيين ، فصاح به :

سيد (توماس) ؟! ماذا تفعل هنا ؟

أجابه (توماس) فى سعادة وهو يشير إلى البدائيين .

هؤلاء الأبطال أنقذونى ، وحملونى إلى هنا .. صدقنى يا فتى .. إنهم أكثر أهل المنطقة تحضرًا .

ظهر (أمين) ، وهو يهتف فى سعادة وزهو :

إنهم أهلى يا (باسل) .. قبيلة والدى .. التى نشأ فيها ، وينتسب إليها .

رفع (باسل) حاجبيه ، وهو يهتف :

حقًا ؟!

جاء (كوسكا) من خلف ابنه ، وأحاط كتفه بذراعه فى حنان وفخر ، وهو يقول :

ـ نعم أيها العربى .. هؤلاء قومى .. لقد لجأت إليهم ، عندما شعرت باليأس من كل هذا .. وهأنت ذا ترى ما فعلوه .. لقد حررونا جميعًا .. فعلوا ما عجز عنه جيشنا .. انتزعوا الشر من جذوره .

وأضاف (بوكا) فى سعادة :

ـ الأعظم أنهم اتصلوا بالرئيس مباشرة ، وأبلغوه بالأمر كله ، وهناك فرقة من الحرس الجمهورى فى طريقها إلى هنا الآن .

انهار (أدموند) تمامًا ، وهو يستمع إلى كل هذا ، وراح يردد فى مرارة .

ـ مستحيل ! مستحيل أن يحدث لى كل هذا .. أنا (أدموند) .. أنا الأقوى .. أنا كل شىء فى هذا المكان .

مط (كوسكا) شفتيه ، وهو يقول :

مسكين .. لقد أصيب بالجنون .

ولكن (أدموند) صرخ :

لا .. لست مجنونًا .. أنا الجنرال (أدموند) أنا أقوى رجل فى البلاد .

وظل يردد هذه الصرخات ، حتى وصل رجال الحرس

الجمهورى ، وأحاطوا معصميه بالأغلال ، ليعلنوا انتهاء عصر الجنرال (أدموند) ..

عصر السفاح ..

★ ★ ★

صافح (أمين) صديقه (باسل) فى حرارة شديدة ، فى مطار العاصمة ، وهو يقول :

ـ أرجو أن تكون مزرعتنا قد راقت لك يا (باسل) .. صدقنى .. زيارتك لنا كانت أفضل ما أصابنا هذا العام .. لقد حررتنا من خوف ثقيل ، وقضيت على الخائن ، وفتحت أبواب الأمل من جديد .

أجابه (باسل) :

ـ وهى أفضل رحلاتى أيضًا يا صديقى .. لقد التقيت بك خلالها ، وزرت مزرعتكم ، وقابلت رئيس الجمهورية نفسه ، وحصلت منه على وسام الشجاعة .. إنها رحلة رائعة بالفعل .

ابتسم (أمين) ، وهو يقول :

ـ عد إلينا مرة أخرى يا (باسل) ، بعد عام واحد ، وستجد أن أشياء كثيرة قد تغيرت ، بعد ما فعلت .

قال (باسل) ، وهو يبادله ابتسامته :

ـ إنها مشيئة الله يا صديقى .. قدر الله ، وما شاء فعل .

وعندما حلقت طائرة (باسل) ، عائدة به إلى وطنه ، كانت

عينا صديقه (أمين) مغرورقتين بالدموع ، وهو يودع صديقه العربى ، الذى كان له أكبر الأثر ، فى القضاء على هؤلاء الوحوش ، الذين هددوا طويلاً أمن وطنه ..

وحوش الأدغال ..

الحقيقيين .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

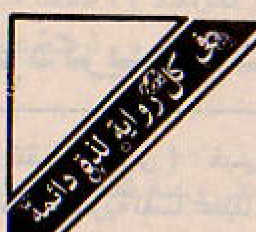


رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق



سلسلة روايات

رجل المستحيل

روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

المواجهة الأولى

قصة العدد

بقلم

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ـ ذكريـــــات ..

التقط (قدرى) : خبير التزييف والتزوير فى المخابرات العامة المصرية نفسًا عميقًا ، وهو يحرّك أصابعه فى الهواء ؛ ليكسبها الخفة والمرونة اللازمتين ، قبل أن يلتقط مفكًا دقيقًا من أمامه ، ثم ينحنى ليحكم رباط مسمار صغير للغاية ، فى آلة تصوير إليكترونية جديدة ، وهو يغمغم :

ـ هذا عيب الأجهزة الحديثة .. أى خطأ بسيط يفسد الأمور كلها .

انتهى من إصلاح آلة التصوير فى سرعة ومهارة مدهشتين ، ثم راح يثبّتها فى موضعها ، ويوجّهها نحو بطاقة من بطاقات الهوية ، الخاصة بجهاز (الموساد) الإسرائيلى ، والتى يدّعون أنها غير قابلة للتزوير ، قبل أن ينقل صورتها إلى شاشة الكمبيوتر ، ويعمل على تكبيرها ، وهو يفحص كل سنتيمتر فيها باهتمام بالغ ، و ..

وفجأة ، سمع تلك الطرقات ، على باب معمله الصغير ، فمطّ شفتيه ، قائلاً :

ـ ادخل .

كان منهمكًا فى فحص بطاقة (الموساد) ، عندما سمع الباب يُفتح ، ووقع أقدام يقترب منه فى هدوء ، فرفع عينيه إلى صاحبها ، قائلاً :

ـ تُرى ما الذى ..

قبل أن يتمّ عبارته ، وقع بصره على وجه القادم ، فتهلّلت أساريره ، وهتف فى سعادة غامرة ، وهو يهبّ من مقعده فى حماسة :

ـ (أدهم) ؟! حمدًا لله على سلامتك .

صافحه (أدهم صبرى) فى حرارة ، وهو يقول :

ـ كيف حالك يا صديقى .. مضت فترة طويلة ، منذ التقينا آخر مرة .

ربّت (قدرى) على كتفيه فى سعادة بالغة ، قائلاً بابتسامة عريضة :

ـ أنا هنا دائمًا يا رجل .. أنت الذى لم يعد يستقرّ فى (مصر) إلا لمامًا .

ابتسم (أدهم) ، وهو يجذب مقعدًا ، ويجلس قائلاً :

ـ أنت تعلم حتميات الأمور يا صديقى ؛ فالصراع لا ينتهى أبدًا ، مع أجهزة المخابرات الأخرى ، ومنظمات الجاسوسية ، وحتى بعض المنظمات الإجرامية ، التى وجدت فى التجسّس وسرقة المعلومات مجالاً خصبًا ، ووسيلة للثراء الفاحش ،

بغضّ النظر عما يؤدى إليه هذا من كوارث وحروب دموية رهيبة .

ربَت (قدرى) على كتفه مرة أخرى ، مغمغمًا :

- كان الله (سبحانه وتعالى) فى عونكم جميعًا .

ألقى (أدهم) نظرة على شاشة الكمبيوتر ، قبل أن يسأله :

- إنها واحدة من بطاقات (الموساد) .. أليس كذلك ؟!

أومأ (قدرى) برأسه ، قائلاً :

- بلى .. إننى أفحصها جيّدًا ، تمهيدًا لصنع نسخ مطابقة منها .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

- يقولون : إنها غير قابلة للتزوير أو التقليد .

قهقه (قدرى) ضاحكًا ، وهو يجيب :

- لا تصدّق كل ما تسمعه يا صديقى .. كل شىء قابل للتقليد .. المهم أن تمتلك المهارة والتكنولوجيا اللازمتين .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا :

- ثم إنه من المحتّم أن نبذل قصارى جهدنا لتقليدها ، حتى نستفيد بهذا فى عمليات قادمة .. أليس كذلك ؟!

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

عاد (قدرى) إلى فحص الهوية ، وهو يسأله :

- كيف كانت مواجهتك الأخيرة مع (الموساد) ؟!

أجابه (أدهم) بابتسامة هادئة :

- جيّدة .

كان (قدرى) يدرك جيّدًا أن (أدهم) لن يفصح عن تفاصيل مهمته أبدًا ، حتى مع قوة صداقتهما وارتباطهما ، لذا فقد ابتسم ، وهو يواصل فحص الهوية فى اهتمام ، قائلاً :

- من المؤكد أنها كانت تختلف تمامًا عن مواجهتك الأولى معهم ، عندما التحقت بالمخابرات العامة[*] .

تردّد (أدهم) لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلاً :

- الواقع أنها لم تكن مواجهتى الأولى معهم .

اتسعت ابتسامة (قدرى) ، وهو يقول :

- آه .. فهمت .. أنت تقصد أن تلك المواجهة الأولى كانت أيام عملك ، فى القوات الخاصة ، قبل انضمامك رسميًا إلى جهاز المخابرات[**] ، أليس كذلك ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، قبل أن يهزّ كتفيه ، ويبتسم ، قائلاً :

- الواقع أن تلك أيضًا ليست مواجهتى الأولى مع (الموساد) .

(*) راجع قصة (خيط اللهب) .. المغامرة رقم ٣٢ ، من سلسلة (رجل المستحيل) .

(**) راجع قصة (الخطوة الأولى) .. المغامرة رقم ٣١ ، من سلسلة (رجل المستحيل) .

توقف (قدرى) عن عمله ، والتفت إليه فى دهشة ، قائلاً :

ـ ليست مواجهتك الأولى مع (الموساد) ؟! متى كانت تلك المواجهة الأولى إذن ؟!

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ قبل ذلك بكثير .

تضاعفت دهشة (قدرى) ، وهو يحدّق فى وجهه ، ثم لم يلبث أن مال نحوه ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ قل لى يا رجل : أهناك شىء لا أعلمه فى هذا الشأن ؟!

أطلق (أدهم) ضحكة قصيرة ، قبل أن يجيب :

ـ الواقع أن أحدًا لا يعلمه سواى .

أزاح (قدرى) هوية (الموساد) بعيدًا ، وهو يعتدل ليواجهه فى لهفة وفضول ، متسائلاً :

ـ أهو شىء يمكنك أن ترويه لى ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات أخرى ، وهو يتطلّع إلى عينى (قدرى) مباشرة ، وبدا من الواضح أنه يدرس الأمر فى رأسه جيّدًا ، قبل أن يستعيد ابتسامته ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا صديقى .. من يمكننى أن أئتمنه على ذكرياتى سواك .

هتف (قدرى) فى حماسة :

ـ عظيم .. كلى آذان مصغية .

أجابه (أدهم) :

ـ فليكن يا صديقى ، ولكننى واثق من أن ما سأخبرك به سيدهشك حتمًا .

سأله (قدرى) فى لهفة :

ـ هل كانت المواجهة عنيفة إلى هذا الحد ؟!

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ليست هذه هى المشكلة .. إنها الفترة ، التى حدثت فيها هذه المواجهة .

سأله (قدرى) فى فضول شديد :

ـ ولماذا ؟!

نهض (أدهم) من مقعده ، وراح يتحرّك فى معمل (قدرى) الصغير فى هدوء ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أن والدى (رحمه اللّه) قد أخضعنى لتجربة خاصة منذ طفولتى ، عندما قرّر أن يصنع منى رجل مخابرات مثاليًا ، فقد بدأ يدرّبنى على أعمال المخابرات ، منذ كنت فى الثالثة من عمرى ، وكان هدفه أن أجيد مهارات متعددة بلا حدود ، عندما أبلغ الخامسة والعشرين من عمرى(*) ، ولأن إجادة عدد من اللغات الحية ، كان أحد أهداف التدريب ، فقد اعتاد والدى

(*) راجع قصة (ملائكة الجحيم) .. العدد رقم ٣٠ ، من سلسلة (رجل المستحيل) .

أن يصحبنى معه ، فى رحلاته المتعدّدة ، إلى دول العالم المختلفة ، كوسيلة للاندماج مع تلك المجتمعات ، واكتساب لهجاتها المحلية ، ومعرفة عاداتها وتقاليدها .

ثم صمت لحظة ، شرد بصره خلالها ، وكأنما يستعيد ذكرياته البعيدة ، قبل أن يتابع :

ـ وفى تلك المرة ، سافرت بصحبته إلى (باريس) .

وتراقصت على شفتيه ابتسامة شاردة ، وهو يكمل :

ـ كنت حينذاك فى السابعة عشرة من عمرى .

هتف (قدرى) :

ـ يا إلهى ! هل حدثت مواجهتك الأولى مع (الموساد) ، وأنت بعد فى ذلك العمر .

التفت إليه (أدهم) ، وأشار بسبّابته ، وهو يبتسم مجيبًا :

ـ بالضبط .

اتسعت عينا (قدرى) عن آخرهما ، وهو يحدّق فيه بذهول ، قبل أن يهتف بكل حماسة ولهفة الدنيا ، وهو يقفز من مقعده :

ـ لا يمكننى الانتظار أكثر .. قصّ على ما حدث يا (أدهم) بالله عليك .

بدت عينا (أدهم) شاردتين بضع لحظات ، بعد أن هتف (قدرى) بعبارته ، وكأنما يستعيد كل تلك التفاصيل ، ثم لم يلبث أن استعاد ابتسامته ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

قالها ، وعاد إلى مقعده المواجه لصديقه (قدرى) ، وأخذ يروى قصة مواجهته الأولى مع (الموساد) .. وبكل التفاصيل .

★ ★ ★

« ها هى ذى (باريس) يا (أدهم) .. »

نطق (صبرى) ، رجل المخابرات المصرى العبارة ، وهو يربّت على كتف ابنه (أدهم) ، وسيارة السفارة المصرية تنطلق بهما من المطار ، فى طريقها إلى مبنى السفارة ، فى قلب العاصمة الفرنسية . فأجابه ابنه فى هدوء رصين ، يفوق عمره بعدة سنوات :

ـ إننى أحفظها عن ظهر قلب .

ابتسم (صبرى) ، وهو يقول :

ـ تحفظها من الناحية النظرية فحسب يا ولدى ، فقد شاهدت عنها عشرات الأفلام التسجيلية والروائية ، وتحفظ خريطتها عن ظهر قلب .. أسماء الشوارع ، والميادين ، وحتى المتاجر الشهيرة ، ولقد اجتزت الاختبارات المتقدّمة للغة الفرنسية بنجاح مدهش ، ولكن كل هذا يحتاج إلى ما نطلق عليه اسم (التدريب العملى) ، وهذا يعنى أن تنطلق فى شوارع (باريس) الحقيقية ، وأن تحيا فيها كما يحيا أهلها .. تتحدّث بلسانهم ،

وتنظر بعيونهم ، وتسمع بآذانهم .. هذا وحده يجعلك قادرًا على القول بأنك تحفظ (باريس) عن ظهر قلب .. هل تفهم ما أعنيه ؟!

تطلّع الشاب إلى المدينة ، عبر نافذة السيارة ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد يا أبى .. بالتأكيد .

ابتسم والده ، وهو يربّت على كتفه مرة أخرى ، ثم استرخى فى مقعده ، قائلاً فى حزم ، وكأنما يصدر أوامره إلى أحد رجاله :

ـ عندما نبلغ السفارة ، سنفترق عند مدخلها ، فسأدخلها أنا للقيام بعملى مع الملحق العسكرى ، أما أنت ، فانطلق فى قلب (باريس) ، ونفذ ما أخبرتك به .

سأله (أدهم) فى رصانة :

ـ ومتى ينبغى أن أعود ؟!

أجابه فى حزم :

ـ سنستقل القطار إلى (مارسيليا) صباح الغد .

أومأ (أدهم) برأسه متفهمًا ، وعاد يتطلّع إلى المدينة فى اهتمام ، فتابع والده :

ـ المهم ألا تتورّط فى أية مشكلات .

غمغم (أدهم) :

ـ بالتأكيد .

لم يتبادلا كلمة إضافية ، حتى بلغت السيارة مبنى السفارة المصرية ، فأشار (صبرى) إلى السائق بالتوقُّف ، ثم التفت إلى ابنه ، قائلاً :

ـ تذكَّر .. القطار سينطلق إلى (مارسيليا) فى الخامسة من صباح الغد .

ابتسم (أدهم) ، وأومأ برأسه متفهمًا ، ثم دسّ كفيه فى جيب سترته الجلدية ، وغادر السيارة ، وانطلق بخطوات واسعة سريعة فى شوارع العاصمة الفرنسية ..

(باريس) .

كان يشعر بشغف شديد ، ولهفة غير مسبوقة ، وهو يجوّل فى تلك الشوارع والطرقات ، التى يحفظ مساراتها وأسمائها عن ظهر قلب ، دون أن يراها ولو لمرة واحدة ..

وبعقلية نادرة مدهشة ، راح يستبدل كل ما حفظه من معلومات نظرية بما يملأ به عقله من معلومات حية جديدة ، وهو يتحرّك فى سرعة عبر العاصمة الفرنسية ، وكأنما يرغب فى التهام أكبر قدر ممكن منها ، قبل أن يضطر إلى العودة ، خاصة وأن الشمس قد بدأت رحلة المغيب بالفعل ، لتضاعف من روعة وجمال المشهد ..

وأخيرًا ، ومع أضواء الغروب الأخيرة ، وصل إلى ما تمنى رؤيته ، منذ هبطت الطائرة بوالده وبه فى (باريس) ..

برج (إيفل) (*) ..

وفى انبهار ، راح يملأ عينيه وعقله وكيانه كله بذلك المشهد الفريد للبرج ، والشمس تحتضر فى الأفق من خلفه ، وأخذ عقله يحصى الساعات القليلة المتبقية ، على موعد رحيلهم إلى (مارسيليا) ، ويتساءل عما إذا كان الوقت سيسمح له بمشاهدة كل ما حلم برؤيته فى (باريس) ، أم أنه سيضطر إلى تركها ، قبل أن يشبع كيانه منها ..

وكرد فعل تلقائى لتدريباته الطويلة ، راح عقله يدرس ويحفظ كل ما حوله ، وانطلقت أذناه تلتقطان كل ما يمر به من أحاديث ، ليتشرَّب اللهجات الفرنسية ، ويهضمها ، ويزيد بها خبراته العميقة ، على الرغم من سنوات عمره القليلة ، التى لم تتجاوز الأعوام السبعة عشر بعد ..

كان الأمر يختلف تمامًا عن سماع شرائط اللغة الفرنسية ، أو مشاهدة الأفلام الروائية الطويلة ، أو ..

توقَّفت أفكاره كلها بغتة ، وانشحذت حواسه كلها دفعة

(*) برج (إيفل) : أحد أشهر معالم (باريس) السياحية ، التى يسعى إليها كل زائر للعاصمة الفرنسية ، وهو برج تم صنعه بالكامل من الصلب ، باستثناء قواعده ، ولقد صمَّمه وأشرف على تنفيذه المهندس الفرنسى (ألكسندر جوستاف إيفل) (١٨٣٢ ـ ١٩٢٣م) ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ٣٢٨م وأقيمت عند قمته محطة للأرصاد الجوية ، وأخرى لاسلكية .

واحدة ، عندما تسلَّل إلى أذنيه بلا مقدمات حديث هامس ، يدور بين رجلين ، مرَّا إلى جواره لحظة واحدة ..

وبكل مشاعره ، التفت يلقى عليهما نظرة طويلة عميقة ..

هذا لأن ذلك الحديث الهامس ، الذى التقطت أذناه منه عبارة واحدة ، لم يكن يدور باللغة الفرنسية ، التى قطع كل هذه المسافة ليدرسها ويهضمها ..

بل كان يدور بلغة أخرى تمامًا ..

باللغة العبرية ..

اللغة الرسمية الإسرائيلية ، التى أصرَّ والده على تلقينه إياها ، مؤكدًا أنها اللغة الأولى ، التى لا بد وأن يجيدها كل رجل مخابرات مصرى وعربى ..

ولكن طبيعة اللغة لم تكن تكفى وحدها لإثارة انفعاله على هذا النحو ..

لولا العبارة التى سمع أحد الرجلين يهمس بها لزميله ..

العبارة التى ميَّز منها كلمتين ، تكفيان لجذب كل اهتمامه ..

كلمة (فلسطين) ..

وكلمة (اغتيال) ..

ودون أن يتردَّد لحظة واحدة ، انطلق (أدهم) خلف الرجلين ، دون أن يلقى نظرة إضافية واحدة على برج (إيفل) ، الذى عاش يحلم برؤيته طويلاً ..

شىء ما فى أعماقه ، جعله واثقًا من أن هذين الرجلين يسعيان لاغتيال شخصية فلسطينية ، تحيا فى (باريس) ، أو تزورها فى الوقت الحالى على الأقل .

لذا فقد راح يتبعهما فى اهتمام حذر ، وهما يواصلان حوارهما الهامس ، قبل أن يشير أحدهما لزميله ، الذى انفصل عنه فى سرعة ، وقطع الطريق ، عند منطقة عبور المشاة ، إلى الجانب الآخر ، حيث توقَّف بعض السياح ، لالتقاط صور الغروب مع البرج ..

وأدار (أدهم) بصره بين الرجلين فى توتر ، وهو يتساءل : أيهما ينبغى أن يتتبَّع ؟! ذلك الذى يواصل طريقه ، أم الذى عبر الطريق ؟!

وقبل أن يحار فى اتخاذ قراره طويلاً ، انتبه إلى أن الرجلين يتابعان ببصرهما رجلاً هادئ الملامح ، يرتدى حلة بسيطة ، ويسير فى رصانة واضحة ، عند الجانب الآخر من الطريق ، الذى انتقل إليه الرجل الثانى ..

وبنظرة واحدة ، تعرَّف (أدهم) ذلك الرجل الرصين على الفور ..

لقد شاهد صورته ، فى أحد ملفات والده ، منذ عدة أسابيع ، ويعلم أنه أحد كبار المسئولين ، فى منظمة التحرير الفلسطينية ، الذين تسعى (إسرائيل) للقضاء عليهم ، منذ زمن طويل ، بعد ما تجشَّمته بسببهم من خسائر فادحة ..

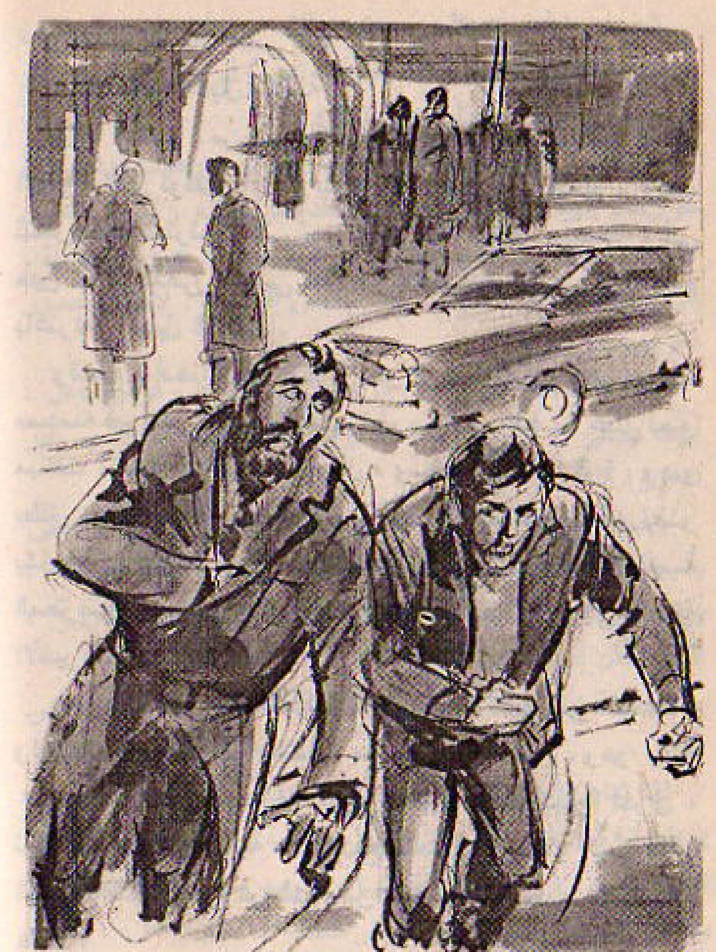
وهنا لم يعد لديه أدنى شك ..

إنها عملية اغتيال منظمة ..

وزاد (أدهم) من سرعة خطواته ، وهو يتحرَّك نحو الرجل الأوَّل ، الذى توقَّف ، وراح يتابع الفلسطينى فى اهتمام ، ويده تندس خلف سترته ، على نحو يوحى بأنه يلتقط مسدسه ، فى حين تحرَّك الثانى ، على الطرف الآخر للطريق ، وكأنه يهمّ باعتراض سبيل الرجل ..

واندفع (أدهم) بكل قوته ، نحو الرجل الأوَّل ، وهو يسحب مسدسه فى حذر ، ثم وثب ليرتطم به فى عنف ، على نحو مباغت ، اختلّ معه توازن الرجل ، وسقط أرضًا فى قوة ، وهو يطلق سبابًا ساخطًا ، لم ينتظر (أدهم) ليسمعه ، وهو يعدو بكل قوته عبر الطريق ، متجاهلاً أبواق السيارات الغاضبة المعترضة ، وصرير إطارات السيارات ، التى توقَّفت فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن ترتطم به .

ومع ذلك الهرج المفاجئ ، استدار المارة كلهم إلى ما يحدث ، وارتفعت حواجبهم فى دهشة ، مع مشهد (أدهم) ، وهو يثب عبر مقدّمة إحدى السيارات ، ويدور حول مقدّمة سيارة أخرى ، توقَّف صاحبها بصعوبة ، ثم يندفع كالصاروخ نحو الإسرائيلى الثانى ، الذى تراجع فى شىء من الدهشة ، وسحب مسدسه ، هاتفًا :



واندفع (أدهم) بكل قوته ، نحو الرجل الأوّل ، وهو يسحب مسدسه فى حذر ، ثم وثب ، ليرتطم به فى عنف ..

ـ ما الذى ..

قبل أن يتمّ عبارته ، كان (أدهم) يثب نحوه كالفهد ، ويكيل له لكمةً كالقنبلة ، أطاحت به مترين إلى الخلف ، قبل أن يسقط على ظهره وسط المارة ..

وقبل حتى أن يستوعب الجميع الأمر ، كان (أدهم) يندفع نحو المسئول الفلسطينى ، هاتفًا :

ـ أسرع يا رجل .. إنهم هنا لاغتيالك .

اتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، وهو يهتف بدهشة بالغة :

ـ اغتيالى أنا ؟!

ولما لم يكن هناك مجال للشرح والتفسير ، فقد جذب (أدهم) يد الرجل ، وهو يعدو بكل قوته ، هاتفًا فى حزم يفوق عمره بسنوات وسنوات :

ـ أسرع أوّلاً ، وسنتحدّث فيما بعد .

انطلق الاثنان يعدوان ، فى شوارع (باريس) ، فى حين هتف أحد الرجلين لزميله بعبارة عبرية ، قبل أن ينطلقا معًا خلفهما ، وكل منهما يسحب مسدسه ، المزوّد بكاتم للصوت ، فى نفس اللحظة التى تحركت فيها سيّارة سوداء كبيرة ، من نهاية الشارع ، لتنطلق بدورها خلف (أدهم) ورفيقه الفلسطينى ..

وانطلقت صرخات بعض المارة فى الشارع ، مع تلك

المطاردة ، فى حين راح عقل (أدهم) يسترجع خريطة (باريس) فى سرعة مدهشة ، ويحدد موقعه الحالى منها ، محاولاً تمييز مبنى بعينه ، كان يحمل علامة خاصة ، فى الخريطة التى حفظها عن ظهر قلب ..

مبنى له مدخل أمامى ، يطل على هذا الشارع ، وآخر خلفى ، أسفل سلمه ، يقود إلى شارع جانبى ضيق ..

وفجأة ، لمحت عيناه المبنى ..

وفى نفس اللحظة ، توقفت تلك السيارة السوداء الكبيرة أمامه ، وانفتح بابها الخلفى بحركة حادة ، وقفز منه رجل ضخم الجثة ، أصلع الرأس ، هتف فى صرامة ، بلغة فرنسية سليمة ، وهو يستل مسدسًا مشابهًا ، مزودًا أيضًا بكاتم للصوت ، ويشير للفلسطينى :

- ابتعد يا ولد ، ولا تورط نفسك فى الأمر .. إننا نريد هذا .

وثب (أدهم) بغتة ، مع الحروف الأخيرة لكلمات الرجل ، وركل المسدس من يده فى قوة ، وهو يهتف :

- خذنا معًا ، أو اتركنا معًا .

وانقضّ الفلسطينى بدوره على الأصلع ، وكال له لكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

- هل سمعت ما قاله الفتى ؟!

كانت اللكمة من القوة ، حتى إنها ألقت الأصلع خلفًا فى

قوة ، فارتطم بالسيارة ، ثم ارتدّ إلى الأمام ، ليستقبله (أدهم) بلكمة أخرى ، جعلته يرتطم هذه المرة بسائق السيارة ، الذى حاول الخروج لنجدته ..

وقبل أن يسقط الاثنان أرضًا ، أو يصل زميلاهما ، انطلق (أدهم) ورفيقه يعدوان عبر الشارع ، والأول يشير إلى ذلك المبنى المتميز ، هاتفًا :

- اتبعنى .

عبرا الشارع بسرعة كبيرة ، وانطلق الرجلان خلفهما ، وأحدهما يصيح بزميله بالعبرية :

- ما دام الفتى مصرًا .. اقتلهما معًا .

وعلى الرغم من وجود كاتم الصوت ، المزودة به مسدسات رجال (الموساد) ، شعر (أدهم) برصاصة تمرق على مسافة سنتيمترات قليلة من أذنه ، وسمع آهة ألم ، أطلقها الفلسطينى ، فهتف ، وهو يحثه على الجرى أكثر وأكثر :

- تماسك يا رجل .. تماسك لثانيتين إضافيتين فحسب .

هتف به الفلسطينى ، وهو يلهث فى قوة :

- لا تقلق نفسك بشأنى .

بلغا مدخل ذلك المنزل المتميز ، فى نفس اللحظة التى أصيب فيها إطاره برصاصة أخرى ، من رصاصات رجال (الموساد) ، فوثبا داخله ، و (أدهم) يهتف :

ـ لا تتجه نحو السلم .. هناك مخرج خلفى .

تبعه الرجل إلى ممر صغير أسفل السلم ، قادهما إلى ذلك الشارع الجانبى الضيق ، ولكن ما إن عبرا إليه ، حتى هتف الفلسطينى :

ـ رباه ! إنه زقاق بمدخل واحد .

انتبه (أدهم) ، فى تلك اللحظة فقط ، إلى أن جدارًا قد أقيم عند الناحية اليمنى للشارع ، ليحوله إلى ممر مغلق ، ذى مدخل واحد ..

وفى نفس اللحظة ، التى انتبه فيها إلى هذا ، التقطت أذناه صرير إطارات السيارة السوداء الكبيرة ، وهى تتوقف عند المدخل الوحيد للشارع ..

وقبل حتى أن يتوقف الصرير ، كان (أدهم) يهتف برفيقه :

ـ إلى الجدار .. أسرع .

كانت هناك عدة صناديق صغيرة ، ملاصقة للجدار ، فوثب الاثنان فوقها ، وقفزا يتعلقان بالجدار ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها راكب السيارة وسائقها منها ، وهتف الأصلع فى غضب ، وهو ينتزع مسدسه ، المزود بكاتم للصوت :

ـ ها هما ذان .

دفع (أدهم) رفيقه فى قوة ، ليتجاوز الجدار ، ويثب إلى الجانب الآخر منه ، ثم استنفر هو عضلات ذراعيه وساعديه ، وجذب جسده إلى أعلى ..

وأطلق الأصلع رصاصات مسدسه ، التى ارتطمت بالجدار ، ثم هتف ، وهو يسدد مسدسه إلى (أدهم) فى إحكام :

ـ فليكن يا فتى .. أنت أردتها .

تحرك (أدهم) فى سرعة ، ودفع جسده إلى أعلى ، وهو يتعلق بقائم خشبى صغير ، و ...

وفجأة .. تحطم القائم الخشبى بلا مقدمات ..

واختل توازن الشاب بغتة ..

ووجد نفسه يسقط أرضًا فى عنف ..

وعلى الرغم من قوة وعنف اصطدامه بالأرض ، وثب (أدهم) واقفًا على قدميه بسرعة مدهشة ..

وارتطمت عيناه بعينى الأصلع ، وفوهة مسدسه المصوبة إليه فى إحكام شديد ، وبابتسامته الصفراء الشامتة الساخرة ، وهو يقول :

ـ وقعت يا فتى .

وضغطت سبابته الزناد ..

بمنتهى الحزم ..

والدقة ..

والإحكام .

★ ★ ★

٢ - الشـــاب ..

انتفض جسد (قدرى) فى عنف ، عندما بلغ (أدهـم) ذلك الجزء من روايته ، واتسعت عيناه عـن آخرهما ، وهـو يهتـف فى انفعال :

- يا رب العالمين !! وكيف نجوت من هذا الأمر يا صديقى ؟! إننى أعلـم أن الإسرائيليين يجيدون التصويب إلى حد كبير ، وخاصة قتلتهم المحترفين !

ابتسم (أدهمِ) وهو يقول :

- هذا ما تؤكده دعاياتهم ، وما توحى به أفلامهم وروايـاتهم يا صديقى ، ولكن دعنى أستعير كلماتك ..

ومال نحوه ، واتسعت ابتسامته ، مع استطرادته :

- لا تصدّق كل ما تسمعه .

قالها ، وأطلق ضحكـة قصيرة ، وهـو يعتدل فـى مجلسـه ، مضيفًا :

- ولكن هذا لايمنع من أن ذلك الأصلع كان يجيد التصويب ، بحكم مهنته وخبراته الطويلة .

سأله (قدرى) فى لهفة :

- كيف عجز عن إصابتك إذن ؟!

هزّ (أدهم) كتفيه ، وشرد ببصره بضع لحظـات ، قبـل أن يدير عينيه إلى (قدرى) ، قائلًا بابتسامة هادئة :

- الحكمة تقول : اسع يا عبد ، وسيعاونك اللّـه (سبحانه وتعالى) .

غمغم (قدرى) فى خشوع :

- ونعم بالله .

ثم عاد يتساءل بنفس اللهفة :

- ولكن كيف ؟!

شرد (أدهم) ببصره بضع لحظات أخـرى ، وكأنمـا يستعيد ذكرياته القديمة ، قبل أن يقول فى حزم :

- سأخبرك .

قالها ، وعاد يواصل قصته كما اعتاد .. بكل التفاصيل ..

★ ★ ★

لم يكن هناك عامل واحد ، يمكن أن يمنع الأصلع من إجادة التصويب ، وإصابة هدفه فى مقتل ..

لقد كـان واحدًا مـن أمهر قتلـة (الموسـاد) المحـترفين ، وأبرعهم فى إصابة الهدف ..

وكان مسدسه مصوبًا إلى ذلك الهدف بإحكام ، وسبّابته تهـمَ باعتصار الزناد ، و (أدهم) محاصر بينه وبين الجدار ، و ...

وفجأة ، اندفع الإسرائيليان الآخران ، عبر المخرج الخلفى للبناية ، إلى ذلك الشارع الضيق ، وأحدهما يهتف فى حدة وحنق :

ـ لقد فرًا من هنا بالتأكيد ..

ومع اندفاعتهما المباغتة ، صنع جسداهما حاجزًا ، يحول بين الأصلع وهدفه ، فصاح فى سخط غاضب :

ـ ابتعدا .. إنكما تفسدان كل شىء ..

ولم ينتظر (أدهم) ، حتى يتمّ الأصلع هتافه ..

بل ولم ينتظر حتى عندما بدأه ..

فما إن اندفع الإسرائيليان إلى الشارع الجانبى ، حتى درس عقله ، الموقف كله ، فى ثانية واحدة ..

ووضع فكرته موضع التنفيذ ، مع اكتمال تلك الثانية .

وكالصاروخ ، اندفع نحو الجدار ، ووثب فوق كومة الصناديق الملاصقة له ، وما إن لامستها قدماه ، حتى وثب مرة أخرى فى خفة مدهشة ، وتعلّق بالجدار ، وقفز إلى الجانب الآخر منه ، والأصلع يندفع نحوه ، ويدفع زميليه بعيدًا ، ليفسح لنفسه الطريق ، وهو يصرخ :

ـ ابتعدا .. إنه يهرب .

ومع صرخته ، أطلق مسدسه رصاصة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وسمع (أدهم) صوت ارتطام الرصاصات الثلاث بالجدار ، وهو يهتف بذلك الفلسطينى :

ـ أسرع بالله عليك .. أسرع .

صرخ الأصلع فى غضب ، عندما التقطت أذناه هذا الهتاف :

ـ يا للسخافة !

ثم استدار إلى الرجلين ، صائحًا :

ـ فليسرع أحدكما خلفه ، ليعد الثانى إلى الشارع الرئيسى ، وسأنطلق أنا مع السيّارة ، لنقطع عليه الطريق ، عند مخرج الجانب الآخر .

همهم الرجلان بكلمات غير مفهومة ، إلا أنه لم يسمعهما ، وهو يعدو نحو السيّارة ، التى انطلقت فور قفزه فيها ..

أما الرجلان ، فقد هتف أحدهما ، وهو يندفع نحو الجدار :

ـ هل رأيت ما فعله ذلك الفتى ؟! إنه ليس عاديًا أبدًا ؟!

أجابه زميله فى خشونة :

ـ إنه مجرّد مراهق ، دفع الخوف مزيدًا من (الأدرينالين)(*) فى عروقه ، فبدا بضع لحظات أشبه بالسوبرمان ، وأراهنك على أنه ينتفض رعبًا وفزعًا الآن !

(*) الأدرينالين : هرمون يتم إنتاجه فى نخاع الغدة الكظرية (فوق الكلوية) ، ويتضاعف إفرازه فى لحظات الخطر والتوتر والانفعال ، فيزيد من ضغط الدم ، وخفقان القلب ، ومعدّل التنفس ، وقوة انقباض العضلات ، على نحو مؤقّت .

هتف الأول فى حنق ، وهو يثب إلى الجدار :

ـ ولكنه أنقذ ذلك الفلسطينى على أية حال .

مطَّ الثانى شفتيه ، وجذب إبرة مسدسه ، وهو يقول فى غضب :

ـ ليس بعد .

وفى نفس اللحظة ، التى انطلق كل منهم فيها إلى هدفه ، كان (أدهم) يعدو مع المسئول الفلسطينى ، عبر شوارع صغيرة ضيقة ، وهو يقول فى توتر :

ـ سينطلقون لحصارنا حتمًا .. هذا أسلوبهم .

التفت إليه الفلسطينى ، قائلاً فى دهشة :

ـ أسلوبهم ؟! وما أدراك أنت بأسلوبهم ؟! هل تعلم من هؤلاء القوم بالضبط ؟!

ساعده (أدهم) على عبور حاجز صغير ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .

هتف الرجل ، وهو يمسك كتفه المصابة فى صعوبة :

ـ أى تأكيد ؟! إنه ليس فيلمًا سينمائيًا يا فتى .. إنك تواجه واقعًا عنيفًا ومخيفًا .. فى مثل عمرك هذا ، قد لا يمكنك استيعاب طبيعة هؤلاء القتلة ، ولكننى أعلم جيدًا أنهم من الـ ...

قاطعه (أدهم) فى حزم :

ـ لست أعتقد أن لدينا الوقت لمناقشة هذا الأمر .

التفت الفلسطينى بسرعة إلى حيث ينظر (أدهم) ، ولمح السيَّارة السوداء الكبيرة تعبر الطريق ، نحوهما مباشرة ، فهتف :

ـ ربَّاه ! لقد عثروا علينا .

تلفَّت (أدهم) حوله ، فى توتر بالغ ، والسيَّارة تقترب فى سرعة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى داخلها ، استلَّ الأصلع مسدسه المزوَّد بكاتم للصوت ، وهو يهتف بالسائق ، فى حدة وغضب :

ـ ها هما ذان .. انطلق نحوهما مباشرة ، وحاول أن تحافظ على توازن السيَّارة ، حتى لا أخطئ التصويب .

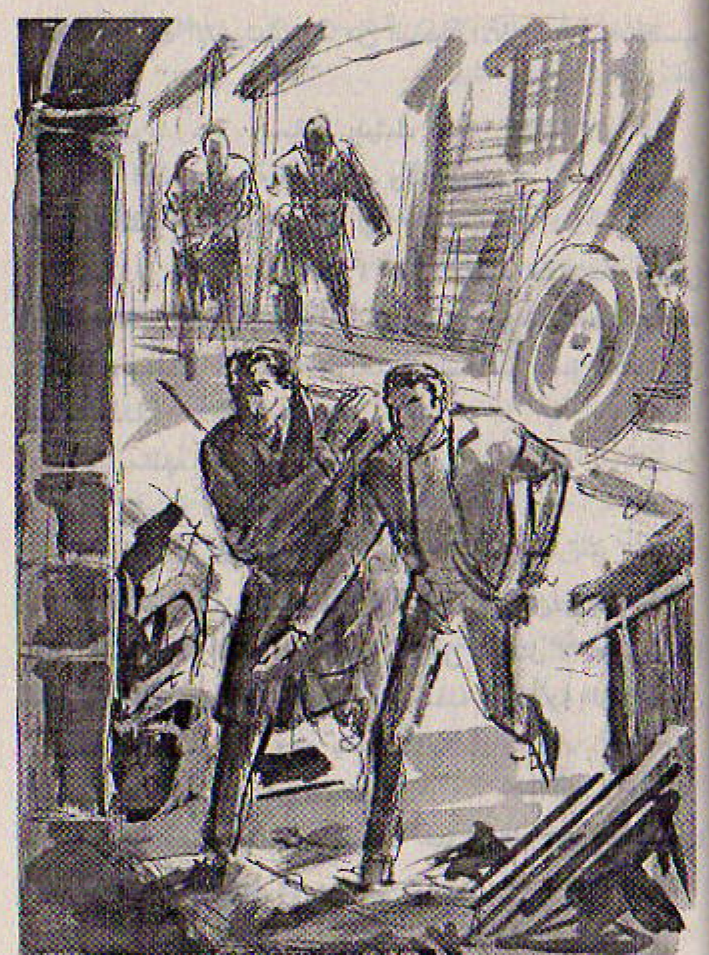
لم يسمع (أدهم) الشاب هذه العبارة ، إلا أنه لم يكد يلمح السيَّارة ، وهى تندفع نحوهما ، حتى جذب زميله الفلسطينى ، هاتفًا :

ـ أيمكنك العدو ؟!

أجابه الرجل ، وهو يمسك كتفه المصابة ، ويعدو إلى جواره :

ـ ألديك اقتراح آخر .

كان الشارع الصغير يضمّ عددًا من البنايات القديمة للغاية ، وقد تراكمت بعض العدد والآلات أمام إحداها ، على نحو يوحى بأنها تخضع لنوع من أعمال الترميم ، و ..



هذا ما تردَّد فى ذهن الشاب ، وهو يحسم أمره ، ويجذب رفيقه إلى تلك البناية تحت الترميم ..

وفجأة ، ظهر الإسرائيليان الآخران ، عند النهاية الأخرى للشارع ..

وارتفع مسدساهما فى سرعة ..

وانطلقت الرصاصات ..

وسقط (أدهم) ورفيقه بين شقى الرحى ..

وأصبحا محاصرين بين الإسرائيليين الأربعة ..

وبسرعة مذهلة ، تلفَّت (أدهم) حوله ..

وفى أعماقه ، تردَّدت تعليمات والده ..

« لا تفقد أعصابك قط ، مهما تعقَّدت الأمور من حولك .. »

« تعلَّم كيف تتخذ قراراتك من واقع الموقف والبيئة المحيطة ، وبمنتهى الدقة .. والسرعة .. »

« الفارق بين النصر والهزيمة قد يكون ثانية واحدة يا (أدهم) .. »

ـ « نعم .. ثانية واحدة .. »

هذا ما تردَّد فى ذهن الشاب ، وهو يحسم أمره ، ويجذب رفيقه إلى تلك البناية تحت الترميم ، هاتفًا :

ـ من هنا .

كانت الرصاصات تتناثر حولهما فى كل اتجاه ، مع قفزات السيَّارة العنيفة ، فوق مخلفات الترميم ..

وصرخ أحد الإسرائيليين ، من الناحية الأخرى ، فى غضب هادر :

ـ توقَّف يا رجل .. سيقتلنا طيشك هذا .

خفض الأصلع فوهة مسدسه ، وهو يهتف :

ـ هل تقترح أن نتركهما يفرّان ؟!

توقَّف الرجل ، وألقى نظرة على البناية القديمة ، التى اختفى داخلها (أدهم) ورفيقه ، ثم التقط من جيبه سيجارًا ، فى هدوء مستفز ، وأشعله ، ونفث دخانه فى عمق ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ لن يمكنهما الفرار من هنا .

هتف الأصلع فى حدة :

ـ ولماذا أيها العبقرى ؟!

نفث الرجل دخان سيجاره مرة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ لقد أخطآ الاختيار ، فهذا المبنى لا يطلّ لاَ على هذا الشارع وحده ، وما تراه أمامك هو مدخله ومخرجه الوحيد .

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ كل ما علينا إذن هو الانتظار ..

ثم أشعل قدّاحته ثانية ، والتمعت عيناه على ضوء ذبالتها المتراقصة ، وهو يكمل فى وحشية عجيبة :

ـ مع قليل من الجهد .

نطقها ، فالتمعت عيون الجميع ، حتى بدءوا أشبه بذئاب مفترسة ، فى قلب الليل ..

ليل (باريس) ..

★ ★ ★

« الواقع يا (صبرى) أننى أعجز عن فهمك تمامًا .. »

نطق الملحق العسكرى المصرى العبارة فى توتر ، وهو يجلس مع (صبرى) فى مكتبه ، داخل مبنى السفارة المصرية ، فى (باريس) ، ولوّح بكفه ، هاتفًا :

ـ كيف تترك ابنك وحده ، فى ليل (باريس) ، وهى أوّل مرة يزور فيها المدينة ؟!

ابتسم (صبرى) ، واسترخى فى مقعده بهدوء ، قائلاً :

ـ لا تقلق بشأن (أدهم) .. إنه يجيد التصرُّف وحده .

قال الملحق العسكرى فى انفعال :

ـ أعلم أنه يجيد الفرنسية ، ولكن (باريس) ليست مشكلة لغة فحسب ، إنها ..

قاطعه (صبرى) فى حزم :

ـ دعه يتعلَّم .

هتف الملحق العسكرى :

ـ يتعلَّم ماذا ؟!

أجابه فى حزم أكثر :

- مواجهة الحياة .

حدّق فيه الملحق العسكرى لحظة بدهشة مستنكرة ، فتابع فى لهجة قوية :

- كلانا يعلم أن الحياة ليست رحلة طريفة ، كما قد تبدو للبعض .. إنها معركة .. معركة يفوز فيها الأقوى والأصلح فحسب .. ونحن نواجه عدوًا شرسًا عنيفًا ، إذا ما واجهته ، فلن يكون هناك مجال للشفقة أو الرحمة ؛ لذا فمن المحتّم أن يتعلم المرء كيف يواجهها ، وكيف ينتصر فى المواجهة ، إذا ما صار القتال حتميًا .

قال الملحق العسكرى :

- أينطبق هذا على فتى فى السابعة عشرة مثله ؟!

صمت (صبرى) بضع لحظات ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

- سيدهشك أن (أدهم) يجتاز الآن مرحلة التدريب الرابعة .

اتسعت عينا الملحق العسكرى بدهشة بالغة ، وهو يهتف :

- كم ؟!

كرّر (صبرى) ، فى شىء من الزهو :

- الرابعة .

تراجع الملحق العسكرى ، مغمغمًا فى دهشة وانبهار :

- مستحيل !

أشار (صبرى) بسبّابته ، قائلاً فى حماسة :

- ابنى قهر المستحيل يا رجل ، واجتاز مرحلة التدريب الأولى ، وهو فى العاشرة من عمره فحسب ، ونجح فى المرحلة الثانية فى الثالثة عشرة ، أما المرحلة الثالثة فـ ...

قاطعه الملحق العسكرى : متسائلاً فى انفعال :

- (صبرى) .. اجتياز المرحلة الرابعة يعنى أن الشخص يجيد الـ ...

جاء دور (صبرى) ليقاطعه ، وهو يقول فى فخر :

- إنه يجيد كل المهارات اللازمة .

اتسعت عينا الملحق العسكرى أكثر ، وهو يقول ، ملوّحًا بيده إلى أعلى :

- وماذا عن الـ ...

قاطعه (صبرى) مرة أخرى ، بنفس الابتسامة الحانية الفخور :

- إنه يبزك فى القفز بالمظلة يا رجل .

هتف الملحق العسكرى :

- ما شاء الله .. ما شاء الله ..

ثم عاد يهزّ رأسه ، مستطردًا :

- ولكن هذا لا يمنع من أنك تتمتّع بقلب فولاذى يا رجل ؛ فلو أننى فى موضعك ، لقتلنى القلق على ابنى .

أشاح (صبرى) بوجهه ، ليتطلّع عبر النافذة ، وهو يقول فى حزم :

ـ إنها الحياة يا رجل .

لم يدر الملحق العسكرى أن هذه اللهجة الحازمة تخفى السبب الحقيقى ، الذى أشاح (صبرى) بوجهه من أجله ..

لقد أراد أن يخفى شعوره القوى بالقلق على ابنه ..

بل بالهلع ..

الشديد ..

★ ★ ★

عضَّ المسئول الفلسطينى شفتيه من فرط الألم ، وهو يمسك كتفه المصابة ، قائلاً فى توتر :

ـ آه .. لهذا لم يتبعونا إلى هنا .. إنه مبنى منعزل تمامًا ، لا سبيل للخروج منه ، سوى عبر مدخله الرئيسى ، ثم إن كل شىء هنا متهالك تمامًا ، حتى إننى أتوقَّع أن تنهار الأرض تحت أقدامنا ، فى أية خطوة تالية .

انعقد حاجبا (أدهم) الشاب ، وهو يغمغم :

ـ هناك وسيلة ما حتمًا ، للخروج من هنا .

تطلَّع إليه الفلسطينى بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يسأله :

ـ أأنت متفائل دائمًا هكذا ؟!

أجابه (أدهم) :

ـ ليس تفاؤلاً يا عماه .. هذا ما علمنى إياه أبى .. ألاَّ أستسلم لليأس قط ، مهما بدت الحلقة محكمة من حولى .

ابتسم الرجل فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـ حكيم هو والدك .

غمغم (أدهم) ، وعقله ما زال يبحث عن وسيلة ، للخروج من تلك المصيدة :

ـ بالتأكيد .

كان الموقف يبدو معقدًا محكمًا بحق ..

المبنى متهالك بالفعل ، كما يقول رفيقه ..

وكل شىء فيه أقرب إلى الانهيار ، مع أول حركة عنيفة ..

والإسرائيليون الأربعة ينتظرونهما فى الخارج ، و ...

قبل أن تتصل أفكاره ، فوجئ بالفلسطينى يهتف فى حدة محنقة :

ـ ألا يوجد جهاز شرطة فى هذا البلد ؟! لقد أطلقوا علينا النار فى قلب (باريس) !! ألن تهرع الشرطة للتحقيق فى الأمر على الأقل ؟!

قال (أدهم) فى توتر :

ـ من المؤكد أنها قد فعلت ، ولكنها لن تشترك فى المطاردة بالتأكيد ، ولن ..

ـ بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يهتف :

ـ رباه ! الشرطة !

سأله الرجل متوترًا :

ـ ماذا عنها ؟!

هتف (أدهم) فى حماسة :

ـ إنها تهرع إلى موقع الحادث حتمًا .. أليس كذلك ؟!

قال الرجل فى حنق :

ـ هذا ما يفترض .

لوّح (أدهم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ هذا يعنى أنها ستهرع إلى هنا ، لو أن هناك ما يجذب انتباهها بشدّة .

مطّ الفلسطينى شفتيه ، مغمغمًا :

ـ وما الذى يمكن أن يجذب اهتمامها هنا ؟! إنه شارع خلفى صغير ، تكاد مبانيه القديمة تنهار وحدها .

قال (أدهم) فى حزم :

ـ ربما بعض ألسنة اللهب .

بُهِتَ الرجل للجواب ، فحدّق فى وجهه ، متسائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه (أدهم) بنفس الحماسة والحزم :

ـ لو أننا بلغنا سطح المبنى ، ونجحنا فى إشعال بعض النيران هناك ، سيجذب هذا انتباه البعض حتمًا ، ولن تلبث الشرطة أن تهرع إلى هنا ، مع سيارات الإطفاء .

هتف الرجل ، وقد انتقلت إليه عدوى الحماسة :

ـ بالتأكيد .. الفكرة عبقرية بحق ، حتى إننى ..

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وتحوّل حماسه إلى شىء من الذعر ، وهو يقول :

ـ حتى إننى أشتم رائحة الدخان بالفعل .

ومع آخر حروف كلماته ، التقطت أنف (أدهم) الرائحة .. رائحة الدخان ..

وفى الثانية التالية مباشرة ، رأى ألسنة اللهب ، التى تتصاعد من الطابق السفلى ..

لقد سبقه الإسرائيليون هذه المرة !

استخدموا فكرته ؛ للقضاء عليه وعلى رفيقه الفلسطينى ..

أشعلوا النار فى المبنى ، ليضعوهما أمام خيارين لا ثالث لهما ..

إما البقاء ، والموت بألسنة اللهب ..

أو الفرار ، والموت برصاصاتهم ..

وفى توتر بالغ ، نهض المسئول الفلسطينى من مكانه ، وهو يهتف :

ـ يا للأوغاد !

كانت ألسنة اللهب تنتقل فى سرعة ، من طابق إلى آخر ، ملتهمة الأخشاب الجافة القديمة ، ودرجات السلم المتهالكة فى طريقها ..

ولم يعد هناك سبيل للهبوط ، بأى حال من الأحوال ..

وهذا يعنى أنه لم يعد هناك خيار ..

لن يمكنهما حتى الموت برصاصات الإسرائيليين ..

سيموتان حتمًا بألسنة اللهب ..

إلا إذا ...

وفى توتر شديد ، هتف (أدهم) ، وهما يصعدان فى درجات السلم المتهالكة فى سرعة :

ـ الصعود إلى السطح لن يعنى شيئًا .. المبنى أقصر كثيرًا مما حوله ، ولن يمكننا القفز من سطحه إلى أى سطح آخر .

صاح الفلسطينى :

ـ والنيران ستبلغنا بسرعة مخيفة .

هتف (أدهم) :

ـ هذا ما لم نختنق بسحب الدخان أولاً .

قالها ، وسعل فى عنف ، مع سحب الدخان ، التى تتصاعد إلى أعلى ، بكثافة أكبر .

وأكبر .

وأكبر .

وفى شدة ، راح الاثنان يسعلان ، وهما يواصلان الصعود بلا أمل ..

وهتف (أدهم) ، وهو يلتقط منديله من جيبه :

ـ حاول أن تحيط أنفك وفمك بمنديلك يا عماه ، حتى لا تختنق سحب الدخان .

سعل الرجل فى عنف ، وهو يهتف :

ـ لقد فعلت .

وسعل مرة أخرى ، قبل أن يضيف فى مرارة :

ـ دون فائدة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الإسرائيليون الأربعة يراقبون المبنى من الشارع الصغير ، وكبيرهم يقول مبتسمًا ، فى ظفر شامت :

ـ تُرى كم تحتاج ألسنة اللهب ، لتلتهم اثنين من العرب ؟!

قالها ، وراح يقهقه بصوت مرتفع ، وألسنة اللهب تواصل صعودها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

٣ - اللهـــــب ..

« بئر التهوية .. » ..

هتف (أدهم) الشاب بالعبارة ، وهو يعدو مع رفيقه ، فى درجات سلم شارف الانهيار ، فالتفت إليه الرجل ، متسائلاً فى توتر شديد :

- ماذا تقول ؟!

أشار (أدهم) بيده ، هاتفًا :

- تلك المبانى القديمة كانت تعتمد على نظام بسيط للتبريد والتدفئة ، عبر سلسلة من الأنابيب الواسعة ، التى تنتشر فى كل طابق ، والتى ترتبط ببعضها ، عن طريق بئر تهوية ، تمتدّ من السطح إلى قبو المبنى ..

سأله الفلسطينى ، ولفح النيران يبلغه بالفعل :

- ماذا تعنى ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يندفع إلى نهاية الطابق :

- أعنى أننا لو عثرنا على بئر التهوية ، سيمكننا الهبوط عبره إلى القبو ، حيث سينخفض تأثير النيران .

هتف الفلسطينى :

- وحيث سنجد مخرج الطوارئ التقليدى .

قال (أدهم) ، وهو يفحص الجدار فى سرعة :

- بالضبط .

كانت ألسنة اللهب تواصل التهامها لكل ما يعترض طريقها ، بلا رحمة أو هوادة ، وكلاهما يدق الجدار بيده ، بحثًا عن مدخل البئر ، حتى هتف (أدهم) :

- إنها هنا .

ثم اندفع إلى حاجز السلم ، وجذبه فى قوة ..

وأسرع الفلسطينى يعاونه بأقصى قوته ..

وتحطم جزء من الحاجز فى عنف ، اختلّ معه توازنهما ، فسقطا أرضًا ، ولكنهما نهضا يحملانه فى سرعة ، وهتف (أدهم) :

- سنضرب به الجدار ، كما كانوا يفعلون بأبواب القلاع ، فى العصور القديمة ، حتى نصنع فتحة ، يمكننا الهبوط عبرها إلى بئر التهوية .

هتف الفلسطينى فى حماسة :

- هيا بنا .

اندفعا إلى الأمام بأقصى سرعتهما ، حاملين حاجز السلم ، وضربا به الجدار مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..



وقبل أن يتمالك نفسه ، وجد جسده يندفع عبر تلك الفجوة فى الجدار ، إلى بئر التهوية العميقة ..

وفى حنق ، هتف الرجل :

ـ عجبًا ! المبنى كله يوشك على الانهيار ، والجدار يتصدَّف وكأنه حائط من الصلب ، و ...

قبل أن يتمَّ عبارته ، ارتطمَ الحاجز بالجدار مرة أخرى ..

وانهار جزء من الجدار ..

ومع انهياره المباغت ، اختلَّ توازنهما مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، اندفع جسداهما إلى الأمام ، بفعل القصور الذاتى(*) ..

واصطدم الفلسطينى بـ (أدهم) من الخلف فى عنف ، فهتف :

ـ آه .. معذرة .

ولكن جسد (أدهم) قفز إلى الأمام ، دون أن يملك التوقُّف ..

وقبل أن يتمالك نفسه ، وجد جسده يندفع عبر تلك الفجوة فى الجدار ، إلى بئر التهوية العميقة ..

ثم يهوى فيها بغتة ..

وبمنتهى السرعة ..

★ ★ ★

لم يكد البلاغ يصل إلى وحدة الشرطة الرئيسية فى (باريس) ، حتى اندفع أحد الرجال إلى حجرة المفتش (رونيه) ، وهو يهتف :

(*) القصور الذاتى : مصطلح اشتقَّ من قانون (نيوتن) الأوَّل للحركة ، وهو يشير إلى الخاصية ، التى تحاول المحافظة على الجسم الساكن فى حالة سكون ، أو دفع الجسم المتحرك إلى مواصلة حركته فى خط مستقيم .

ـ مبنى يحترق ، فى منطقة الترميمات القديمة .

انعقد حاجبا المفتش (رونيه) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ يحترق ؟! فى هذه اللحظة .

هتف الرجل :

ـ هل نبلغ وحدة الإطفاء ؟!

صاح به المفتش فى عصبية :

ـ وهل تحتاج إلى أمر لتفعل ؟!

انطلق الرجل لتنفيذ الأمر ، وإبلاغ وحدة الإطفاء ، فى حين ازداد انعقاد حاجبى المفتش (رونيه) ، وهو يغمغم :

ـ ما الذى يحدث هنا الليلة ؟! بعضهم يتجاوز حدوده بالتأكيد .. أولًا : إطلاق النيران فى الشارع ، ثم المطاردة غير المفهومة ، وبعدها هذا الحريق .. مم ؟.. نعم .. لقد تجاوز بعضهم حدوده .

استغرق فى التفكير بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن التقط مسدسه الكبير من درج مكتبه ، ودسَّه فى حزامه ، وهو ينهض مستطردًا :

ـ وهذا يحتاج إلى تدخل شخص خبير .

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها بسيارته ، متجهًا نحو موقع الحريق ، كان جسد (أدهم) الشاب يهوى فى بئر التهوية ، و ...

وفجأة ، وثب الفلسطينى إلى الأمام ، واندفعت يده اليمنى تسبقه فى سرعة خرافية ، لتقبض على معصم (أدهم) ..

فى اللحظة الأخيرة ..

وتوقَّف جسد الشاب دفعة واحدة ، وتحرَّك ليرتطم بجدار البئر فى عنف ، والفلسطينى يهتف :

ـ تشبَّث بى جيدًا ..

أمسك (أدهم) اليد الممدودة إليه فى قوة ، قبل أن يدفع ظهره إلى جدار البئر ، ويدفع قدميه فى الجدار المقابل ، ويهتف :

ـ أنا بخير الآن .. يمكنك أن تتركنى .

غمغم الفلسطينى ، وهو يفلت يده :

ـ حمدًا لله .

سأله (أدهم) :

ـ هل يمكنك الهبوط ، بنفس الأسلوب الذى أستخدمه ؟!

تطلَّع إليه الرجل فى توتر ، وتحسَّس كتفه المصابة مرة أخرى ، قبل أن يتمتم فى عصبية :

ـ يبدو أنه ليس لدى خيار يا فتى .

كانت ألسنة اللهب تتجه نحوه مباشرة ، فأسرع يهبط إلى البئر ، ويلصق ظهره وقدميه إلى جدارها ، كما يفعل (أدهم) ، الذى قال :

ـ أعلم أن هذا مؤلم للغاية ، مع إصابة كتفك ، ولكن ليس أمامنا من سبيل سواه ، فحاول أن تحتمل يا عماه ، وسنبلغ القبو بعد قليل .

غمغم الفلسطينى فى عصبية :

ـ ما لم تشوينا النيران أولاً .

لم يعلق (أدهم) على العبارة ، وهو يهبط بهذه الوسيلة المعقدة ، داخل بئر التهوية ، التى بلغت حرارتها حداً لا يطاق ، وامتدت داخلها سحب دخان على نحو كثيف عنيف ، مما جعل العرق يغمر الوجوه ، ولفح النيران يلهب الجلود ، و ...

وفجأة ، غمغم الفلسطينى فى يأس :

ـ يا إلهى ! لم يعد بإمكانى الاستمرار .

قالها ، وتراخت عضلاته دفعة واحدة ..

وهوى جسده ..

وارتطم بجسد (أدهم) فى عنف ..

وبسرعة مخيفة ، هوى جسداهما فى بئر التهوية ، التى بدت بلا قرار ..

وبلا أمل ..

★ ★ ★

« العاشرة والنصف مساءً ، و(أدهم) لم يعد بعد » ..

تمتم الملحق العسكرى المصرى بالعبارة فى توتر ، وهو يلقى نظرة على ساعته ، فالتقط (صبرى) نفساً عميقاً ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول فى حزم ، بذل قصارى جهده ليكتسبه :

ـ لا تقلق نفسك بشأنه .

حدق فيه الملحق العسكرى بدهشة ، قبل أن يقول فى استنكار :

ـ خطأ يا (صبرى) .. خطأ يا رجل .. أعلم أنك ترغب فى أن تمنح ابنك رجولة مبكرة ، وفى أن تجعل منه رجل المخابرات المثالى ، الذى تحلم به أية أجهزة مخابرات فى العالم ، ولكن هذا لا يعنى أن تلقى به فى قلب الخطر ، على هذا النحو .

غمغم (صبرى) ، وهو يراقب فى قلق شديد ، ذلك الوهج الأحمر ، فى سماء (باريس) ، عبر نافذة مبنى السفارة :

ـ (باريس) ليست ساحة حرب يا رجل .

هتف الملحق العسكرى :

ـ ربما كان هذا صحيحاً فى المعتاد ، ولكن ليس فى هذه الليلة .. ألم تسمع خبر إطلاق النيران ، الذى تم بالقرب من البرج ؟! هل ترى ذلك الوهج فى السماء ؟ إنه يعنى حدوث حريق فى مكان ما .. هل تعلم كم حريقاً تشهده (باريس) فى العام كله ؟! هذا لا يتجاوز واحداً أو اثنين ، فما بالك بحدوثه فى نفس ليلة إطلاق النار ؟! ألا يمكن أن يعنى هذا شيئاً ؟!

أجاب (صبرى) فى سرعة :

ـ بالتأكيد ..

ثم استدرك بسرعة ..

ـ ولكنه مجرَّد استنتاج محض ..

لوَّح الملحق العسكرى بيده ، هاتفًا :

ـ حتى ولو افترضنا هذا .. ألا ينبغى أن تشعر بالقلق لتأخُّر ابنك .

أجابه (صبرى) فى توتر :

ـ إنه يعلم أننا سنستقل قطار (مارسيليا) ، فى الخامسة صباحًا .

هتف الملحق العسكرى :

ـ قطار ماذا ؟! أيعنى هذا أنه يمكنه البقاء فى الخارج ، دون أية اتصالات ، حتى الخامسة من صباح الغد ؟!

غمغم (صبرى) ، محاولاً الفرار من هذا الحوار :

ـ لو اضطرته الظروف لهذا .

صاح به الملحق العسكرى ، وقد نفد صبره :

ـ لا يا (صبرى) .. لن يمكننى أن أفهم أسلوب تفكيرك هذا أبدًا .. إنه ابنك يا رجل .. كيف تتركه وحده فى قلب (باريس) ، وأنت تقف هنا ، و ...

التفت إليه (صبرى) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ وماذا لو لم أكن هنا ؟!

بُهتَ الملحق العسكرى للسؤال ، فغمغم :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه (صبرى) ، فى توتر زائد :

ـ لو أنك لم تستوعب الأمر بعد ، فلتعلم أن (أدهم) ليس هنا فى رحلة سياحية ترفيهية .. إنه تدريب محض .. المفترض أن ينغمس فى المجتمع الباريسى ويتعايش معه ، كما لو كان جزءًا منه ، ولكى ينجح هذا التدريب ، لا بد وأن أنسى وجوده وينسى وجودى تمامًا .. لا ينبغى أن يجرى أية اتصالات بى ، إلا كوسيلة أخيرة .. أخيرة جدًّا .. وهذا لأننى لن أكون هنا ، عندما يواجه عملية حقيقية .. لن أتواجد للسعى خلفه وإنقاذه .. لابد أن يعتمد على نفسه تمامًا .

غمغم الملحق العسكرى :

ـ وماذا لو كان بحاجة إلى المال مثلاً ؟!

أجابه فى حزم :

ـ عليه أن يبحث عنه بنفسه .

وبذل جهدًا خرافيًّا ، ليخفى ارتجافة شفتيه ، وهو يتمتم :

ـ هذه مهمته .

حدجه الملحق العسكرى بنظرة تجمع بين الدهشة والإعجاب والانبهار ، قبل أن يتمتم :

ـ لو أن هذا ما تصنعه بابنك حقًّا ، فليست لدى ذرة واحدة من الشك ، فى أنه سيصبح يومًا واحدًا من أخطر رجال المخابرات فى العالم .

غمغم (صبرى) :

ـ ليس هذا ما أسعى إليه يا صديقى .. لست أريده واحدًا من أخطر رجال المخابرات .

ثم أشاح بوجهه ، ليعود إلى النافذة ، ويراقب وهج النيران فى السماء ، متابعًا فى حزم وصرامة :

ـ بل أريده بإذن الله (سبحانه وتعالى) ، أخطر رجل مخابرات .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم أشد :

ـ على الإطلاق .

★ ★ ★

كان السقوط قويًا عنيفًا ..

ولكنه لم يستغرق وقتًا طويلاً ..

فقبل أربعة أمتار من العمق ، كان هناك حاجز خشبى ، وضعه عمال الترميم ..

وارتطم الاثنان بذلك الحاجز ، الذى تحطم فى عنف ، ليواصلا الهبوط لأربعة أمتار أخرى ..

وهناك ارتطما بحاجز خشبى آخر ..

وفى هذه المرة ، كان دوى الارتطام عنيفًا .. للغاية ..

ولكن عبور الحاجز الخشبى الآخر قادهما إلى ممر مائل ، انزلق عليه جسداهما فى عنف ، حتى سقطا بغتة فى القبو ..

وخارج المبنى ، التقطت آذان الإسرائيليين الأربعة صوت الارتطام ، وتحطم الحواجز الخشبية ، فهتف الأصلع فى توتر :

ـ ما هذا ؟!

تبادل أربعتهم نظرة متوترة ، قبل أن يغمغم السائق فى تردُّد :

ـ إنها أجزاء من المبنى القديم ، تنهار بفعل النيران .

أشار إليه قائدهم ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد سمعت صوت ارتطام ، يتصاعد من القبو ، والأجزاء المنهارة لا يمكنها السقوط هناك .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ إلا إذا ..

نطقها ، وهو يسحب مسدسه فى حركة حادة ، فسأله الأصلع فى عصبية :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

تحرك الإسرائيلى فى حذر ، نحو مخرج القبو ، وهو يجيب :

ـ إنه احتمال ضئيل ، ولكن ماذا لو ..

لم يتم عبارته ..

ولكن رفاقه أدركوا ما يعنيه ..

وبإشارة سريعة صامتة ، ودون أن يتبادل أحدهم حرفًا واحدًا ، شأن كل المحترفين ، انفصل الأصلع والسائق عن الآخرين ،

وانطلقا يعدوان إلى الشارع الخلفى ، حيث مخرج الطوارئ للقبو ، فى حين أسرع قائد العملية وزميله إلى مدخله الرئيسى ، والآخر يقول فى حدة :

ـ ظننتك تؤكد : إن للبناية مدخلاً واحدًا .

غمغم القائد فى خشونة :

ـ هذا لا يتضمَّن القبو .

قال الآخر ، فى سخرية عصبية :

ـ حقًا ؟!

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) الشاب ينهض من سقطته ، وهو يشعر بآلام مبرحة ، فى كل عظمة من جسده ، ويمد يده لرفيقه ، قائلاً فى قلق واضح :

ـ أأنت بخير ؟!

التقط الفلسطينى كفه ، وهو يقول :

ـ إننى لم ألق مصرعى والحمد للّه (العلى القدير) ؛ فارتطامنا بتلك الحواجز الخشبية خفّف من عنف السقوط ، ولكن كتفى المصابة لم تعد تصلح للعمل على الأرجح .

كان الدخان الكثيف يغمر القبو ، الذى تلتهم النيران سقفه ، فى طريقها إليه ، وعلى الرغم من هذا رأى (أدهم) فى وضوح الدماء التى تغمر كتف رفيقه ، فقال متوترًا :

ـ أنت تحتاج إلى إسعاف عاجل .

أخرج الرجل منديلاً كبيرًا من جيبه ، وهو يقول :

ـ ستكفى ضمادة الآن .

عاونه (أدهم) على تضميد جرحه ، وهو يقول :

ـ المهم أن نغادر هذا القبو بسرعة ، فالنيران لن تلبث أن تمتدّ إليه عندما تنتهى من التهام الطوابق العليا ، و ...

قبض الفلسطينى على يده بغتة فى قوة ، وهو يضع سبّابته على شفتيه ، متطلعًا إلى مدخل القبو ، فى توتر بالغ ، فبتر (أدهم) عبارته دفعة واحدة ، واستدار يتطلّع إلى المكان بدوره ..

كان هناك ظلاّن كبيران ، ينحدران إلى المكان ، على نحو يوحى بأن هناك رجلين يستعدان للهبوط فى القبو ..

وفى يد كل ظل منهما ، كان هناك ظل لمسدس كبير .. وآلى(*) ..

وكان هذا يعنى أن يعود الحصار إلى صورته الأولى مرة ثانية ..

وأن يعودا إلى الخيار الأوّل ..

ألسنة اللهب ..

أو رصاصات العدو ..

ولم يكن من الممكن أن يسمح (أدهم) الشاب بهذا أبدًا ..

ليس بعد كل ما احتمله ..

(*) المسدسات الآلية : هى مسدسات كبيرة الحجم نسبيًا ، مزوّدة بخزانة رصاصات أشبه بخزانة المدفع الآلى ، ويمكنها إطلاق النار على نحو متواصل ، وبسرعة تقارب سرعة المدافع الرشّاشة .

وكل ما أصابه ..

لذا ، فقد التقط قطعة كبيرة من الخشب ، من أرضية القبو ، وهو يشير إلى رفيقه الفلسطينى ، هامسًا :

ـ انتظرنى هنا .

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى حزم ، والتقط بدوره لوحًا من الخشب ، هامسًا :

ـ مازالت يدى اليمنى تعمل بكفاءة ..

لم يعلق (أدهم) ..

ولم يحاول إثناءه عن عزمه ..

كل ما فعله هو أن تحرك فى حذر ، نحو مدخل القبو ، فى نفس الوقت الذى راح فيه الظلان يهبطان فى حذر زائد بدوريهما ، و ...

وفجأة ، انهار جزء من سقف القبو ..

ومع انهياره ، وعلى الرغم من أن الإسرائيليين لم يكونا قد لمحا (أدهم) ورفيقه بعد ، إلا أن ذلك الانهيار المباغت ، مع ما أحدثه من دوى وغبار ، جعلهما يضغطان زنادى مسدسيهما فى حركة غريزية ، وهما يتراجعان فى سرعة ..

وانطلقت الرصاصات داخل القبو ..

كالمطر ..

وبسرعة مدهشة ، جذب (أدهم) رفيقه ، وانبطح كلاهما أرضًا ، والرصاصات تعبر فوق رأسيهما ، وأزيزها يخترق أذنيهما ..

وفى حدة ، صاح الأصلع بالعبرية :

ـ لن تفلتا .. إنها نهايتكما .

غمغم الفلسطينى :

ـ إنه يقول إن ...

قاطعه (أدهم) :

ـ لقد فهمت .

قال الفلسطينى فى دهشة :

ـ ولكنه نطقها بالعبرية .

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ ليست هذه هى القضية الآن ، فليتحدث بما يحلو له ، ولكن المشكلة أننا محاصران مرة أخرى .

مع آخر حروف عبارته ، انهار جزء آخر من سقف القبو ، وتساقطت النيران من الجزء المنهار ، وراحت تشتعل فى بقايا الأخشاب والحطام ، فهتف الفلسطينى بصوت مكتوم ، وهو يحكم منديله على أنفه وفمه :

ـ ربّاه ! إننى أختنق .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا مفرّ من المواجهة إذن .

هتف الفلسطينى فى عصبية :

ـ وبم سنواجههم ؟! إننا لا نمتلك سوى قطع الخشب القديمة هنا .



كانت الرصاصات قد توقفت ، مع تراجع الإسرائيليين خارج القبو ، فنهض كل منهما فى حزم ..

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ هذا أفضل من البقاء هنا والاختناق بسحب الدخان ، أو الموت بألسنة النار .

صمت الفلسطينى لحظة ، قبل أن يتمتم ، بصوت رجل حسم أمره :

ـ أنت على حق .

ثم أمسك قطعة الخشب فى قوة ، مستطردًا :

ـ هيا بنا .

كانت الرصاصات قد توقَّفت ، مع تراجع الإسرائيليين خارج القبو ، فنهض كل منهما فى حزم ، وقال (أدهم) :

ـ إنهم يتوقَّعون خروجنا فى أية لحظة ، ولكن من المؤكد أن انقضاضتنا ستفاجئهم ، فلن يتوقَّعوا قط أن تبادر الفريسة بهجوم كهذا .

رفع الفلسطينى أحد حاجبيه ، مغمغمًا :

ـ مصطلحاتك أنيقة يا فتى .

غمغم (أدهم) :

ـ هل تعتقد أن الوقت يناسب هذا الإطراء ؟!

هزَّ الفلسطينى رأسه ، مغمغمًا :

ـ إنه ليس إطراءً .

ثم شدَّ قبضته على قطعة الخشب ، مستطردًا :

هيا نواجه تلك المسدسات الإسرائيلية الأربعة .

أشار (أدهم) بسبّابته ووسطاه ، قائلاً :

ـ مسدسان فحسب .

تساءل الفلسطينى فى حيرة :

ـ وكيف تثق بهذا ؟!

أجابه فى سرعة ، وهما يواصلان تقدمهما ، نحو المخرج الخلفى للقبو ، وسط سحب الدخان ولفح النيران :

ـ إنهم من المحترفين ، وليسوا أغبياء بالتأكيد ، ومادام للقبو مخرجان ، فسيقف اثنان منهم عند كل مخرج .

أشار الفلسطينى بإبهامه خلف ظهره ، متمتمًا :

ـ ولكن انهيار السقف أغلق أحد المخرجين .

أجابه فى حزم :

إنهم لا يدركون هذا بعد .

ثم أضاف ، بعد برهة من الصمت :

ـ من حسن حظنا .

كانت النيران تنتشر فى سرعة ، داخل قبو المبنى القديم ، والدخان يتكاثف فى شدة ، إلى حد لا يصلح معه التنفس ، حتى من خلف تلك المناديل الواقية ، لذا فقد حسم الاثنان أمرهما ، وهتف (أدهم) :

ـ الآن ..

قالها ، فانطلقا يقطعان المسافة ، التى تفصلهما عن المخرج ، بأقصى سرعتهما ، ثم اندفعا خارج القبو ، وكلاهما يرفع سلاحه البدائى ، ويطلق صيحة قتالية قوية ، و ...

وفى لمح البصر ، ارتفعت فى وجوههم فوهات مسدسات قوية ..

وكان (أدهم) على خطأ هذه المرة ..

فلم يكن هناك مسدسان فحسب ..

بل أكثر من هذا ..

أكثر بكثير ..

★ ★ ★

٤ ـ ليـلة باريسـيـة ..

تململ (صبرى) فى فراشه ، داخل الملحق السكنى للسفارة المصرية فى (باريس) ، وجافاه النوم تمامًا ، من شدة قلقه على ابنه ، الذى لم يعد بعد ، على الرغم من أن عقارب الساعة تشير إلى الثانية والربع صباحًا ..

وفى توتر بالغ ، نهض يجلس على طرف فراشه ، وتمتم :

ـ تُرى أين أنت يا (أدهم) ؟!

كان يدرك جيدًا أن ابنه ، على الرغم من سنوات عمره السبع عشرة ، ليس مراهقًا عاديًا ..

لقد أخضعه لبرنامج تدريبى خاص للغاية ، منذ كان فى الثالثة من عمره ..

وهو الآن مقاتل صنديد ، لا يشقّ له غبار ..

ولكنه مازال ابنه ..

إنه يعلم قدرته على التعامل مع أصعب الظروف ..

حتى فى قلب (باريس) ، التى يزورها لأوّل مرة ..

إلا أنه لا يستطيع منع نفسه من القلق ..

خاصة وأن (أدهم) لم يحاول الاتصال مرة واحدة ..

أو أن هذا ما ينبغى أن يفعله ..

من المؤكّد أن تأخره فى العودة لا يعود إلى انبهاره بليل (باريس) الساحر ..

هناك سبب آخر حتمًا ..

والسؤال هو : ما السبب ، الذى يمنع شابًا مثله من قضاء ليلته فى فراش ناعم وثير ؟!

ما السبب ؟!

فى نفس اللحظة ، التى طرح فيها (صبرى) سؤاله هذا على نفسه ، كان المفتش الفرنسى (رونيه) يشعل سيجارته ، وهو يحدج (أدهم) ورفيقه بنظرة صارمة ، فى مركز الشرطة ، ويقول فى حدة :

ـ هناك سبب حتمًا لكل هذا ، وقصتكما لم تنجح فى إقناعى قط .

قال الفلسطينى فى صرامة :

ـ ولكنها الحقيقة .

هزّ المفتش رأسه فى عناد ، قائلاً :

ـ الحقيقة دائمًا لا تحتاج إلى كل هذه التعقيدات .. لقد هرعنا إلى حيث مبنى يحترق ، وكان الشارع خاليًا من أى قتلة محترفين ، فمن تتحدّث عنهم روايتكما الطريفة ؟! كما أنّ الشارع الخلفى كان خاليًا أيضًا ، وفجأة ، اندفعتما خارج قبو المبنى المحترق ، وكل منكما يخفى وجهه بمنديل كبير ، كاللصوص

فى أفلام رعاة الأبقار ، ويحمل لوحًا من الخشب ، يهم بتحطيمه على رءوسنا ، لولا أن رفع رجالى مسدساتهم فى وجوههم .

قال (أدهم) ، فى هدوء عجيب ، وبلغة فرنسية سليمة :

ـ كنا نظنكم بعض هؤلاء القتلة المحترفين .

نفث المفتش دخان سيجارته فى حدة ، هاتفًا :

ـ هل سنعود مرة أخرى إلى هذه القصة السخيفة ؟!

تبادل (أدهم) نظرة صامتة مع الفلسطينى ، قبل أن يشير إلى كتف هذا الأخير ، قائلاً :

ـ صديقى مصاب برصاصة فى كتفه ، ويحتاج إلى الإسعاف .

جلس المفتش خلف مكتبه ، وهو يشير بيده ، قائلاً فى صرامة :

ـ ليس الآن .

قال الفلسطينى فى حنق :

ـ ماذا تعنى بأنه ليس الآن ؟!

أجابه المفتش فى حدة :

ـ أعنى أنه من الضرورى أن أحصل على بعض الأجوبة أولاً .

قال أدهم فى غضب :

ـ لست أظن هذا الإجراء قانونيًا ، أو حتى إنسانيًا .

قال المفتش فى صرامة :

ـ يمكنك أن تظن ما يحلو لك .

ثم أشار إلى (أدهم) ، مستطردًا فى حدة :

ـ من أين أنت يا فتى ؟!

أجاب الفلسطينى :

ـ إنه من ...

قاطعه (أدهم) ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ من (ليل) .

انعقد حاجبا المفتش ، وهو يقول فى غضب :

ـ هل تحاول إقناعى بأنك فرنسى ؟!

كانت لهجة (أدهم) ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ إننى كذلك ؟!

ازداد انعقاد حاجبى المفتش ، فى غضب أكثر ، وهو يتطلَّع إليه بضع لحظات ، فى صمت تام ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هل تتصوَّر أن هذا الادعاء سيساعدك على نحو ما ؟!

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى هدوء ، وبلغة فرنسية سليمة :

ـ بل أتصوَّر أننى سأحصل على حقوقى القانونية ، فى كل الأحوال .

قال المفتش فى غضب :

ـ هكذا ؟!

ثم أشار بيده إلى أحد رجاله ، وهو يستطرد :

ـ أين تقيم فى (ليل) إذن ؟!

بدا الاهتمام على ذلك الشرطى ، الذى أشار إليه المفتش ، ولم يغب هذا عن عينى (أدهم) وذهنه ، وهو يجيب فى ثقة :

ـ فى الحى الغربى .. شارع (مونتجولفين) .. رقم (١٧) .

رفع المفتش أحد حاجبيه ، وهو يقول فى خبث :

ـ عظيم .. صف لنا الشارع الذى تقيم فيه إذن .

تضاعف اهتمام الشرطى ، وهو يقترب منهم ، ويرهف سمعه أكثر وأكثر ، إلا أن (أدهم) بدا شديد الثقة ، وهو يقول :

ـ إنه شارع صغير .. يبدأ من منزل الجنرال الشيخ (برونو) ، وينتهى عند تقاطع شارعى (نابليون) و(بوليفار) ، وهو يضم سبع بنايات فحسب ، ومطعم صغير ، و ...

سأله الشرطى فجأة :

ـ أتقصد مطعم العجوز (فيوليت) ، الذى يقدمون فيه شرائح السمك فى الصباح ؟!

كان الفلسطينى يستمع إلى الحوار منذ البداية ، وأدهشه كثيرًا أن انتحل (أدهم) الهوية الفرنسية ، وتساءل عما يحاول حمايته بادعائه هذا ، إلا أنه لم يحاول التدخل فى الأمر ، بأى حال من الأحوال ، ولكن ما إن ألقى الشرطى سؤاله ، حتى هوى قلبه بين قدميه ..

لقد تطرق الأمر إلى تفاصيل صغيرة .. ودقيقة ..

تفاصيل يسعون بها لكشف إدعاء (أدهم) ..

وتساءل الفلسطينى فى قلق عارم : كيف يمكن أن ينجو الشاب من هذا الفخ ؟!

كيف ؟!

وبكل قلقه وتوتره ، تعلقت عيناه بشفتى (أدهم) ، الذى بدا هادئًا واثقًا ، وهو يجيب بالفرنسية :

ـ (فيوليت) وشرائح سمك فى الصباح ؟! يبدو أننا لانتحدث عن المطعم نفسه يا سيدى ، فالمطعم الذى أعرفه يمتلكه (بيرت) وزوجته (برجيت) ، وهو لا يقدم شرائح السمك فى أية وجبة .

انعقد حاجبا المفتش ، وهو يتطلع إلى الشرطى ، الذى ابتسم ، وأشار بإبهامه ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم لوح بيده ، وهو يعود إلى مكتبه ، مستطردًا :

ـ إنه من (ليل) .

ازداد انعقاد حاجبى المفتش ، وهو يتطلع فى شك إلى علامات الانبهار ، التى ارتسمت على وجه الفلسطينى ، الذى لم يلبث أن انتبه إلى الأمر ، فاعتدل فى سرعة ، وتنحنح متمتمًا :

ـ هل اطمأن قلبك ؟!

رمقه المفتش بنظرة شك أخرى ، قبل أن يدير عينيه إلى (أدهم) ، ثم يلتقط سمّاعة هاتفه ، ويناوله إياها ، قائلاً :

ـ يمكنك أن تطمئن والديك إذن .

تجاهل (أدهم) سمّاعة الهاتف ، وهو يقول :

ـ لسنا نمتلك هاتفًا .

سأله المفتش فى حدة :

ـ وماذا عن الأصدقاء ، والجيران ، وذلك المطعم الصغير ؟!

أجابه بنفس الهدوء :

ـ والدىّ يعلمان أننى سأقضى ليلة فى (باريس) ، ولا داعى لإقلاقهما ، فى هذه الساعة .

رمقه المفتش بنظرة أكثر شكًا ، ثم لم يلبث أن أعاد السمّاعة إلى موضعها فى حنق ، قائلاً :

ـ هكذا .

ثم أشاح بوجهه ، وراح يفكر فى عمق ، وهو يحكّ ذقنه بسبّابته ، فقال (أدهم) فى شىء من الصرامة :

ـ دعنى أذكّرك بأن رفيقى مصاب ، و ...

قاطعه المفتش فى حدة :

ـ اصمت .

ثم نهض من خلف مكتبه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ انتظرا هنا .. سأعود إليكما بعد قليل .

واندفع إلى حجرة مجاورة ، لها باب من الزجاج الشفاف ، والتقط سمّاعة هاتفها ، وراح يتحدّث عبره فى انفعال واضح ، جعل الفلسطينى يميل على (أدهم) ، هامسًا :

ـ ما الذى أثار غضبه إلى هذا الحد ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يراقب المفتش فى اهتمام :

ـ إنه ليس غاضبًا فحسب .. إنه يعانى انفعالاً شديدًا .

تساءل الفلسطينى فى حيرة :

ـ ولماذا ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يغمغم :

ـ لست أدرى .. ربما ...

قبل أن يتمّ عبارته ، أنهى المفتش محادثته ، ثم اندفع خارج الحجرة الجانبية ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هيا بنا .

سأله الفلسطينى فى دهشة :

ـ إلى أين ؟!

أجابه فى حدة ، لم يكن لها ما يبررّها :

ـ سنعاين موقع الحادث .

سأله (أدهم) فى حذر :

ـ المبنى المحترق ؟!

أجابه فى حنق عجيب :

ـ بل موضع إطلاق النار .

قالها ، ثم أشار إلى شرطى آخر ، هاتفًا :

ـ (لويس) .. تعال .. ستصحبنى فى هذه المعاينة .

هتف الشرطى القريب :

ـ (لويس) ؟! عجبًا ! كنت أظنك تبغض العمل معه .

غمغم المفتش فى صرامة :

لا دخل للمشاعر الشخصية فى العمل .

صوَّب (لويس) مسدسه إلى (أدهم) والفلسطينى ، وقادهما إلى واحدة من سيارات الشرطة ، من الطراز الأمريكى ، الذى يعزل المقعدين الأماميين عن الأريكة الخلفية للسيارة بشبكة قوية من الصلب ، بحيث تتحوَّل خلفية السيارة إلى سجن محدود ، دفعهما للجلوس فيه ، ثم اتخذ مقعد القيادة ، وهو يسأل المفتش :

ـ إلى أين ؟!

صمت المفتش لحظة ، قبل أن يجيب فى توتر :

ـ سنعود إلى حيث تم إطلاق النار .

غمغم (لويس) :

ـ عظيم ..

ثم انطلق بالسيارة على الفور ..

ولم يتبادل (أدهم) ، ورفيقه حرفًا واحدًا طوال الطريق ..

كان يعلم أن هذا الإجراء قانونى ومألوف تمامًا ..

إلا أن شيئًا ما فى أعماقه ، لم يكن يشعر بالارتياح ..

شىء ما جعله يشعر بتوتر بالغ ، وجعل قلبه يخفق فى قوة ..

وعنف ..

وقلق ..

بلا حدود ..

★ ★ ★

« كم أشعر بالجوع ! »

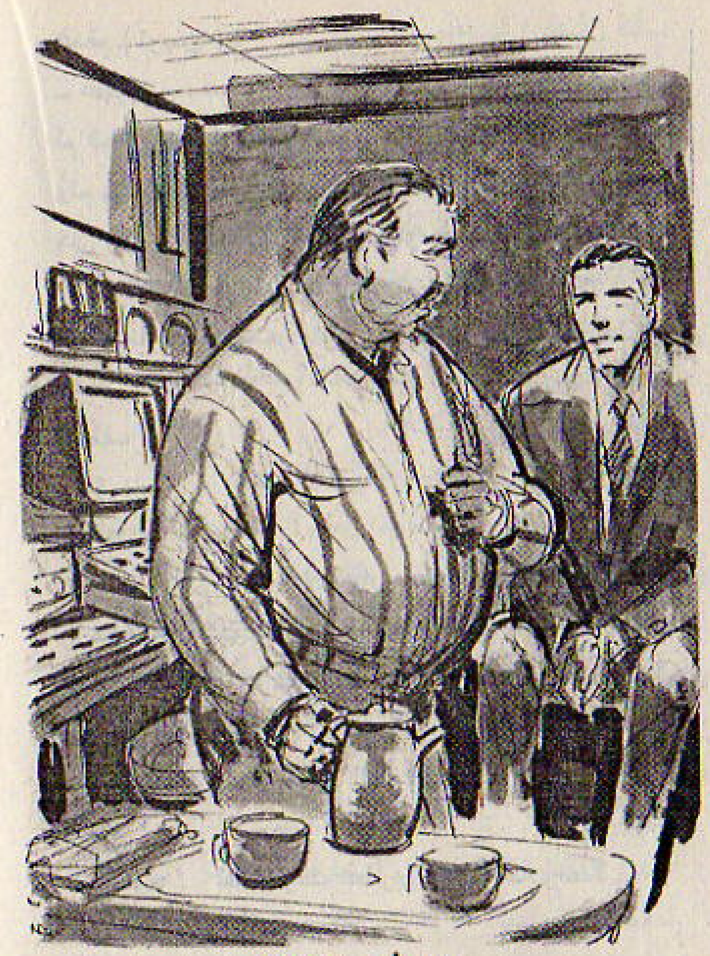
قالها (قدرى) ، وهو يربِّت على كرشه الضخم ، قبل أن ينهض إلى البراد الصغير فى حجرته ، سائلاً (أدهم) :

ـ ما رأيك فى شطيرة من اللحم البارد ؟!

ابتسم (أدهم) ، مجيبًا :

ـ أشكرك .. لقد تناولت إفطارى منذ ساعة واحدة .

قال (قدرى) فى سرعة :



« كم أشعر بالجوع ! »
قالها (قدرى) ، وهو يربّت على كرشه الضخم ..

ـ وأنا أيضًا .

ثم تخضّب وجهه بحمرة الخجل ، وهو يضيف :

ـ ولكنك تعلم أننى أشعر بالجوع ، و ...

قاطعه (أدهم) ، وابتسامته تتسع أكثر :

ـ أعلم .

عاد (قدرى) إلى مقعده ، وراح يلتهم شطائر اللحم البارد فى نهم ، وهو يسأل (أدهم) بشغف :

ـ ألا تبدو لك هذه النهاية تقليدية للغاية ، مع عنف الأحداث منذ البداية !!

سأله (أدهم) :

ـ أية نهاية ؟!

توقف (قدرى) عن الأكل ، وهو يسأل :

ـ ألم يطلق المفتش سراحكما بعدها ؟!

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا بابتسامة هادئة ، فهتف (قدرى) :

ـ لا تقل لى : إن الإسرائيليين أعدوا كمينًا لسيارة الشرطة !!

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

ـ لم يكونوا بحاجة إلى هذا ؟!

التقى حاجبا (قدرى) فى حيرة ، وهو يغمغم :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجاب (أدهم) فى هدوء :

ـ يعنى أن الأمور لم تمر بهذه البساطة يا صديقى .

أزاح (قدرى) شطيرة اللحم جانبًا ، وهو يسأل فى لهفة كبيرة :

ـ ماذا حدث إذن ؟!

اتسعت ابتسامة (أدهم) أكثر ، وهو يقول :

ـ سأخبرك .

ثم عاد يروى ..

بالتفصيل ..

★ ★ ★

على الرغم من أن سيارة الشرطة كانت تتجه بالفعل نحو تلك البقعة ، التى حاول عندها الإسرائيليون اغتيال المسئول الفلسطينى ، إلا أن (أدهم) لم يشعر بالارتياح قط ..

شىء ما جعله يتوتَّر فى مجلسه ، على الأريكة الخلفية للسيَّارة ، على نحو شعر به رفيقه ، فمال على أذنه يهمس :

ـ ماذا هناك ؟!

همس (أدهم) ، وهو يلوى معصمه على نحو شديد المرونة ، داخل الأغلال الحديدية ، التى أحاط بها (لويس) معصميه خلف ظهره ، فى محاولة للتخلُّص منها :

ـ لست أدرى .. لست أشعر بالارتياح .. هذا المفتش لا يتصرَّف على نحو طبيعى .

سأله الفلسطينى فى قلق :

ـ كيف ؟!

أجابه (أدهم) :

ـ كان ينبغى أن يتخذ الإجراءات الرسمية منذ البداية ، وأن يسجِّل كل الأسئلة والأجوبة ، كما كان من الضرورى أن يستدعى رجال الإسعاف من أجلك ، ولكنه لم يفعل كل هذا .

سأله الفلسطينى :

ـ وما الذى يعنيه كل هذا فى رأيك ؟!

هز رأسه ، قائلاً :

ـ ربما يعنى أنه رجل مهمل بطبعه .

ثم انعقد حاجباه ، مستطردًا :

ـ أو أنه يتحاشى وجود أية أوراق رسمية ، تشير إلى وجودنا .

اتسعت عينا الفلسطينى ، وهو يهتف :

ـ ربّاه ! أتعلم ما الذى يعنيه هذا ..

ارتفع صوته مع هتافه ، فالتفت إليهما المفتش ، قائلاً فى حدة صارمة عصبية :

ـ اصمتا .
ثم رمق (أدهم) بنظرة غاضبة ، مستطردًا :
ـ أليس من العجيب أن يتحدّث فرنسى مثلك العربية ؟!
هزّ (أدهم) رأسه ، مجيبًا :
ـ إننى لم أتحدّث العربية .
وانعقد حاجبا المفتش فى شدة ..
وكذلك فعل الفلسطينى ..
فقد انتبه بغتة إلى أن (أدهم) على حق ..
حتى وهو يشعر بالتوتر ، لم ينس حذره ودقته لحظة واحدة ..
تمامًا كما لو كان محترفًا ..
بشدة ..
وكان من الواضح أن هذا يحنق المفتش ، الذى نقل بصره بينهما فى توتر بالغ ، قبل أن يلتفت إلى (لويس) ، قائلاً فى صرامة :
ـ انحرف إلى اليمين ، ثم إلى أوّل شارع إلى اليسار .
تبادل (أدهم) ورفيقه نظرة متوترة ، قبل أن يقول الأوّل :
ـ إطلاق النار تم فى الشارع الرئيسى .
صاح به المفتش :
ـ اصمت ..

ولكن (أدهم) لم يصمت .
لقد واصل فى استماتة محاولته للتخلّص من القيود ، وهو يقول :
ـ المفترض أننا هنا لمعاينة الموقع .
صاح به المفتش فى حدة وعصبية زائدتين :
ـ قلت : اصمت .
التفت إليه الشرطى ، وهو يقول فى حيرة ، مطيعًا توجيهات رئيسه :
ـ ولكنهما على حق أيها الرئيس .. لماذا سننحرف إلى ...
قاطعه المفتش فى عصبية أكثر :
ـ نفذ الأوامر فحسب .
غمغم (لويس) فى توتر :
ـ كما تحب أيها الرئيس .
وانحرف إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، فقادهم هذا إلى شارع جديد ، من شوارع (باريس) القديمة ، ينتهى بجدار آخر من الطوب ، فغمغم (لويس) ، وهو يوقف السيارة :
ـ إنه شارع مغلق .
فتح المفتش باب السيارة ، وهو يقول فى توتر :
ـ بالضبط .

تبعه (لويس) خارج السيارة ، وهو يقول فى عصبية :

سيّدى المفتش .. أعلم أنك رئيسى المباشر ، ولكننى أكره أن أساق إلى عمل ما كالأغنام .. أريد أن أعرف لماذا نحن هنا .

التقط (رونيه) نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ أعطنى مسدسك .

اتسعت عينا (لويس) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أعطك ماذا ؟!

أجابه فى حدة :

ـ مسدسك يا رجل .. مسدسك .. ألم تسمعنى ؟!

حدّق (لويس) ، فى وجهه لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ لست أفهم شيئًا .. ما تطلبه ليس قانونيًا .

انعقد حاجبا المفتش فى غضب ، فانتزع (لويس) مسدسه ، وناوله إياه ، مستطردًا :

ـ ولكننى لن أحاول إغضابك .

التقط المفتش المسدس فى عصبية ، وفحص خزانته فى توتر ملحوظ ، جعل (لويس) يسأله فى حذر :

ـ هل تشكّ فى شىء ما ؟!

رفع المفتش عينيه إليه لحظة ، قبل أن يشير بإبهامه إلى السيارة خلفهما ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أنت تعلم أن إهمالك يستفزنى دائمًا ، ولكن ليس إلى الحد الذى يمكن لهذين استغلاله ، وسرقة مسدسك من حزامك ، مع محاولتهما الفرار .

سقطت فك (لويس) السفلى ، من فرط دهشته ، وهو يقول :

ـ ماذا تقول أيها المفتش ؟! ماذا تعنى ؟!

واصل المفتش حديثه العصبى ، وكأنه لم يسمعه :

ـ إهمالك جعلهما يسيطران على الموقف ، وعندما حاولت مقاومتهما ، أطلقا النار عليك ، مما دفعنى إلى قتلهما .

هتف (لويس) :

ـ ماذا تقول يا سيّدى ؟! أهذا ما كنت تتوقّع حدوثه ؟!

رفع المفتش المسدس ، قائلاً فى عصبية شديدة :

ـ بل ما ينبغى حدوثه .

أدرك (لويس) الأمر ، فى تلك اللحظة فقط ، فوثب محاولاً الفرار ..

ولكن المفتش ضغط زناد المسدس بالفعل ..

وانطلقت الرصاصة ..

وفى مشهد مخيف ، أمام عينى (أدهم) ورفيقه ، نسفت الرصاصة رأس (لويس) المسكين ، الذى هوى جثة هامدة فى عنف ..

وبكل انفعاله ، صرخ الفلسطينى :

ـ كنت على حق .. إنه فخ .

ولم يجب (أدهم) .

لقد تجمّدت مشاعره كلها ، وهو يحدّق فى الرجال الأربعة ، الذين برزوا من خلف مجموعة ضخمة من الصناديق ، فور سقوط (لويس) ..

من القتلة الإسرائيليين ..

المحترفين .

★ ★ ★

٥ ـ المواجهة ..

نهض (صبرى) من فراشه ، وألقى نظرة شديدة التوتر على ساعة يده ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحًا ، وغمغم فى عصبية :

ـ لقد تجاوز الأمر حدوده .

قالها ، ويده تلتقط سمّاعة الهاتف المجاور للفراش ، و ...

« مهلاً يا (صبرى) .. »

انطلقت الصيحة فى أعماقه ، فتجمّدت يده الممسكة بسمّاعة الهاتف ..

« لا تفسد كل ما صنعته .. »

« لقد قاتلت لتصنع منه ما صار عليه الآن .. »

« ولا قيمة لكل هذا ، دون تدريب عملى جاد .. »

« ثم إنك لن تبقى إلى الأبد ، لتشعر بالخوف عليه وترعاه .. »

« اتركه يواجه الحياة وحده .. »

« والخطر أيضًا .. »

« اتركه يتعلّم كيف يقاتل .. »

« وكيف ينجو .. »

سرت فى جسده قشعريرة باردة ، كأى أب يشعر بالخوف والقلق على ابنه ..

أو كأى قائد ، يشعر بالقلق على أفضل رجاله ، عندما تتأخرٌ أخباره ..

وفى خطوات بطيئة ، اتجه إلى النافذة ، وتطلّع منها إلى ليل (باريس) ، مغمغمًا :

ـ إنه يعلم أن القطار سيتحرك فى الخامسة .

وصمت بضع لحظات ، ثم كرَّر :

ـ إنه يعلم .

ثم أغلق عينيه ، وبذل جهدًا للسيطرة على انفعاله الجارف .. جهدًا خرافيًا ..

★ ★ ★

ابتسم قائد الإسرائيليين فى ظفر ، وهو يتقدّم نحو المفتش (رونيه) ، قائلاً :

ـ أحسنت يا رجل .. هكذا سيبدو الأمر منطقيًا للغاية .. محاولة فرار ، انتهت بالفشل ، بعد مصرع أحد رجال الشرطة .. صورة مثالية للغاية .

قال المفتش فى عصبية :

ـ المهم أن ينتهى الأمر فى سرعة .

اتسعت ابتسامة الإسرائيلى ، وهو يستلّ مسدسه ، قائلاً :

ـ اطمئن .

ثم أشار إلى رفاقه ، فاستلّ كل منهم مسدسه ، واتجه أربعتهم نحو السيارة ، والأصلع يقول ساخرًا :

ـ يا للعرب ! أرهقانا بالسعى خلفهما طوال الليل ، ثم انتهيا إلى المصير ذاته .

هتف بهم المفتش ، فى هذه اللحظة :

ـ مهلاً :

استدار إليه الأربعة ، فقال فى عصبية :

ـ حتى يصبح الأمر منطقيًا ، لا بد من قتلهما بمسدسى .

رفع قائد الإسرائيليين حاجبيه ، قائلاً :

ـ آه .. أنت على حق ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد فى صرامة :

ـ لو أن أمرك يهمنا .

اتسعت عينا المفتش فى ارتياع ، وتراجع هاتفًا ، وهو يرفع مسدس (لويس) ، الذى يمسك به :

ـ ماذا تعنى ؟!

قبل أن تضغط سبَّابته الزناد ، انطلقت رصاصة صامتة من مسدس الأصلع ، اخترقت منتصف جبهة المفتش ، فجحظت عيناه عن آخرهما ، وهمهمت شفتاه بشىء ما ، قبل أن يسقط كالحجر ، فابتسم السائق فى سخرية ، مغمغمًا :

ـ يا للغبى ! هل تصوَّر أننا سنترك شاهدًا خلفنا ؟!
قلب قائده شفتيه ، متمتمًا :
ـ أحمق .
قالها ، واستدار مع رفاقه مرة أخرى إلى السيارة ، و ..
واتسعت عيونهم فى غضب ذاهل ، والأصلع يصرخ :
ـ ماذا ؟!
فأمام عيون أربعتهم ، كان (أدهم) ورِفيقه يعدوان بكل قوتهما ، نحو ذلك الجدار الحجرى ، وقد تخلصا من قيودهما ، ونجحا فى فتح باب سيارة الشرطة ، الذى لا يمكن ــ عمليًا ــ فتحه من الداخل ..
وهتف السائق :
ـ مستحيل ! كيف فعلا هذا ؟!
صاح قائده ، وهو يرفع فوهة مسدسه فى سرعة ؟!
ـ هل ستسأل ؟!
قالها ، وأطلق رصاصات مسدسه الصامتة ، على نحو انتزع رفاقه من ذهولهم ، فارتفعت فوهات مسدساتهم بدورهم ..
وانطلقت الرصاصات ..
ولكن كومة أخرى من الصناديق حمت (أدهم) ورفيقه ، والثانى يهتف :
ـ التاريخ يعيد نفسه .. سنضطر للقفز فوق جدار حجرى مرة أخرى .

هتف به (أدهم) ، وهو يعاونه على عبور الجدار ، ووقع أقدام الإسرائيليين الأربعة يقترب من موضعهما ، خلف كومة الصناديق ، فى سرعة :
ـ التاريخ لا يعيد نفسه قط .
قفز الفلسطينى إلى الجانب الآخر من الجدار ، وراح يعدو نحو ما بدا له أشبه بمخزن بضائع كبير ، فى حين وثب (أدهم) يتعلق بالجدار ، ثم يدفع جسده إلى أعلاه ، وهو يكمل :
ـ إلا لنتعلَّم مما سبق .
برز الأصلع فى هذه اللحظة ، وهو يهتف :
ـ ها هو ذا .
ثم أطلق رصاصته ..
ولكن (أدهم) وثب فى خفة ، وتجاوز الرصاصة ، فصاح الأصلع فى حنق :
ـ لقد أفلتا .
أجابه زميله فى حزم :
ـ ليس بعد .
ثم أشار بسبَّابته إلى الجدار ، مستطردًا :
ـ إنهما لم ينجوا ، وإنما صارا سجينين داخل مخزن بضائع ضخم ، وهو لا يحوى ـ بخلاف هذا الجدار ـ سوى مخرج واحد ، عند الشارع الرئيسى ، وهو باب من الصلب بقفل ضخم ،

ورتاج يستحيل تحطيمه ، ولا توجد سوى نوافذ مغلقة بقضبان من الفولاذ .

وتألّقت عيناه ، وهو يضيف في شراسة :

ـ وهذا يعنى أنهما لن يخرجا من هذا المكان على قيد الحياة قط .

تبادل الثلاثة الآخرون نظرة شديدة التوتر ، وتنحنح أحدهم فى عصبية ، ولوّح الثانى بمسدسه ، فى حين قال الثالث ، فى عصبية واضحة :

ـ هلاً أفصحت عما لديك يا (داريل) .

مطّ الإسرائيلى (داريل) شفتيه ، وبدا بوضوح أنه قائد مجموعة الاغتيال ، وهو يشعل سيجاره الضخم وينفث دخانه فى قوة ، ثم يشير بيده ، قائلاً فى حزم صارم ، وهو يتطلّع إلى الأصلع الضخم والسائق :

ـ ابق هنا مع (كاهان) يا (بنيامين) ، وابقيا على حذر متحفّز طوال الوقت ، وإذا ما حاول الفلسطينى أو الفتى الخروج من هنا ، اقتلوهما على الفور ، أما أنا و(إيزاك) ، فسنتعقبهما إلى الداخل .

وداعب مسدسه ، وهو يستطرد فى سخرية شرسة :

ـ ولو سار كل شىء على ما يرام ، فلن تروهما مرة أخرى .. أبدًا .

تبادل الأصلع ابتسامة ساخرة مع السائق (كاهان) ، قبل أن يقول فى ثقة :

ـ إذن فلن نراهما أبدًا يا أدون (داريل) .

أومأ (داريل) برأسه موافقًا ، ثم أشار إلى زميله ، واتجها معًا نحو الجدار ، فهتف الأصلع (بنيامين) خلفهما :

ـ وماذا عن الشرطة الفرنسية ؟! لقد أطلق ذلك المفتش النار فى الشارع .

أشار (داريل) من خلف ظهره ، قائلاً :

ـ اطمئن .. سيتولّى رفاقنا الأمر .

قالها ، وقفز يتعلق بالجدار بدوره ، ثم وثب مع زميله (إيزاك) إلى الجانب الآخر منه ، وكلاهما يستلّ مسدسه المزوّد بكاتم للصوت ، استعدادًا لخوض معركتهما مع (أدهم) ورفيقه الفلسطينى ، غير المسلحين ..

معركتهما الأخيرة .

★ ★ ★

تحسّس (أدهم) إصابة رفيقه الفلسطينى فى اهتمام بالغ ، وهو يقول فى توتر :

ـ الرصاصة اخترقت كتفك الأيسر ، وخرجت منه بالفعل ، ولكنك بحاجة إلى بعض الضمادات والتطهير .

غمغم الفلسطينى :

ـ لا تقلق بشأنى .. يمكننى أن أحتمل لبعض الوقت .

تنهَّد (أدهم) ، وهو يتلفَّت حوله ، قائلاً :

ـ يبدو أنه ليس أمامك سوى هذا ، فنحن داخل مخزن بضائع على الأرجح ، ومن الواضح أنه ليس له مخرج من هذه الناحية ، فبابه من الصلب القوى ، ومغلق بإحكام شديد ، والنوافذ مغلقة بقضبان من الفولاذ ، حتى إنه ليدهشنى أن أمكننا دخوله من الجانب الآخر بهذه البساطة ، بمجرَّد القفز عبر جدار من الطوب .

ابتسم الفلسطينى قائلاً :

ـ من الواضح أنه ليس هناك وطن للقصور والإهمال يا فتى .

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ ليست هذه هى القضية الآن يا عماه .. المشكلة الحقيقية هى أنه ليس لنا من مخرج ، سوى ما أتينا منه ، وهؤلاء الإسرائيليون لن يسمحوا لنا بالعودة منه أبدًا .. بل وسيدهشنى لو لم يتعقبونا إلى الداخل لإكمال مهمتهم .

سأله الفلسطينى فى حذر :

ـ وكيف علمت أنهم إسرائيليون ؟!

هزَّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ومن سواهم يتبادل أحاديثه بالعبرية ، ويسعى لاغتيال أحد مسئولى منظمة التحرير الفلسطينية .

اتسعت عينا الرجل فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ هل تعرَّفتنى ؟! عجبًا ! إن صورتى لم تنشر من قبل قط !!

أجاب (أدهم) فى سرعة :

ـ لم أتعرَّفك شخصيًا ، ولكننى خمنت الأمر ، من لهجتك الفلسطينية ، ومحاولة الإسرائيليين لاغتيالك .. كان استنتاجًا موفَّقًا .. أليس كذلك ؟!

حدَّق الفلسطينى فيه بضع لحظات فى حذر قلق ، قبل أن يسأله :

ـ أنت مصرى .. أليس كذلك ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فسأله الرجل فى حذر أكثر :

ـ كم يبلغ عمرك ؟!

أجابه (أدهم) فى سرعة :

ـ أنا فى السابعة عشرة من عمرى .

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة بالغة ، وهو يقول :

ـ فقط ؟! عجبًا ! إنك تبدو أكبر من هذا ببضع سنوات .

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

ـ هل يوحى تكوينى الجسمانى بهذا :

هزَّ الرجل رأسه ، مغمغمًا ، وهو يشير إلى رأسه :

ـ ليس التكوين الجسماني فحسب ، ولكن عقلك وأسلوبك أيضًا .. إنك .. إنك .

حار لحظة ، وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة ؛ لوصف ما يشعر به ثم لم يلبث أن هتف :

ـ إنك تبدو متميزًا ، بالنسبة للمراهقين فى مثل عمرك .

ابتسم (أدهم) ، وهزَّ كتفيه ، دون أن يجيب ، فمدَّ الرجل يده إليه ليصافحه ، وهو يقول :

ـ اسمى (مازن) ، ويلقبوننى بأبى جـ ...

قاطعه (أدهم) فجأة ، وهو يشير بيده فى حزم هامس :

ـ مهلاً .

ثم تحرَّك على أطراف أصابعه فى خفة ، وألقى نظرة على مدخل المخزن الخلفى ، قبل أن يتراجع ، هاتفًا بصوت خافت :

ـ لقد كنت على حق .. إنهم هنا .

هتف (مازن) :

ـ الإسرائيليون ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ نعم .. الاثنان اللذان حاولا اغتيالك هنا ، وأعتقد أن الآخران يحرسان المخرج الخلفى ؛ لمنعنا من الفرار ، فى حين سيبحث عنا هذان ؛ للقضاء علينا قضاءً مبرمًا .

قال (مازن) فى عصبية :

ـ إننا لا نمتلك أية أسلحة .

صمت (أدهم) لحظة ، وهو يراقب الرجلين ، اللذين راحا يتحركان فى حذر داخل المخزن ، وكل منهما يحمل مسدسه المزوَّد بكاتم للصوت ، ومصباحًا يدويًا قويًا ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ من قال هذا ؟!

ثم تحرَّك فى خفة ، والتقط أحد صناديق البضائع المحيطة بهما ، وراح يحلّ الحبل الذى يلتفّ حوله ، فى سرعة ومهارة ، و(مازن) يراقبه فى دهشة ، قبل أن يسأله :

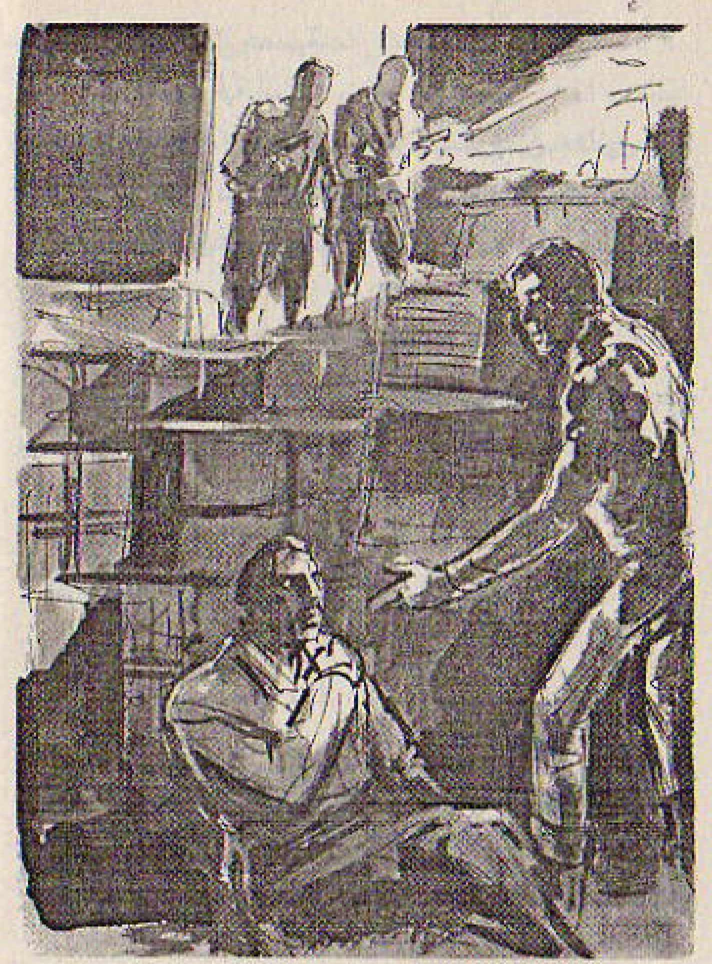
ـ من علَّمك هذا ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، قبل أن يجيب بابتسامة باهتة :

ـ دروس الكشافة(*) .

هزَّ (مازن) رأسه ، قائلاً :

(*) الكشافة : حركة رياضية اجتماعية تربوية ، تقوم على تنظيم الناشئين فى فرق ، تحت إشراف قائد مدرَّب ، يفرض عليهم طاعته ، ويلاحظ سلوكهم ، ويلقنهم مجموعة من المهارات للاعتماد على أنفسهم ، والتعاون مع الآخرين ، والتضحية فى سبيل المجموع ، والحركة الكشفية ليس لها طابع دينى ، أو سياسى ، أو مذهبى ، أو عنصرى ، ولقد أسسها اللورد الانجليزى (بادن باول) (١٨٥٧ ـ ١٩٤١ م) .



صمت (أدهم) لحظة ، وهو يراقب الرجلين ، اللذين راحا يتحركان فى حذر داخل المخزن ..

ـ كلاً .. أنا كشّاف قديم ، وأعلم جيّدًا أن ما تفعله يفوق المهارات الكشفية بكثير .. لقد تم تدريبك على يد خبير .. أليس كذلك ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات أخرى ، ثم تجاهل الأمر كلـه ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى حزم لا يناسب عمره :

ـ اسمعنى جيّدًا يا سيّد (مازن) .. أعلم جيّدًا أنك أحد القادة وأن طبيعتك تستحثك على المقاومة والنضال ، ولكـن إصابتك الحالية تمنعك من التعامل بالقوة اللازمة ، مع هؤلاء القتلة ، لذا فأنا أرجوك أن تبقى هنا ، وتلتزم الصمت والهدوء التامين ، حتى يمكننى التخلُّص منهما .

هتفت (مازن) معترضًا :

ـ هل تعنى أن تواجه قاتلين محترفين وحدك ؟! هذا مستحيل يا فتى .. إننى لن ...

قاطعه (أدهم) فى حزم :

ـ أرجوك يا سيّد (مازن) .. لا وقت لمناقشة هذا ، ولكن تأكد من أننى قادر على مواجهة هذا الأمر .. صدقنى .. امنحنى ثقتك ، وأعدك ألا أخذلك قط .

حدَّق (مازن) فى وجهه بدهشة ، وشعر بقلبه ينتفض فى أعماقه ، مع تلك الرجولة المبكِّرة ، التى تفوح رائحتها بقوة

من ذلك الشاب الوسيم الواقف أمامه ، وهم بالاعتراض مرة أخرى على قيامه بدور سلبي فى الأمر ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه ، أو فى لهجة (أدهم) وأسلوبه ، جعله يغمغم :

ـ لا بأس .

ثم غلبته طبيعته العنيدة ، فاستطرد فى حزم :

ـ ولكننى سأتدخل ، إذا ما حتمت الظروف هذا .

أومأ (أدهم) برأسه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ اتفقنا .

قالها ، ثم تحرك فجأة فى سرعة ونشاط ، ووثب نحو كومة من صناديق البضائع ، وراح يتسلقها فى خفة ، فى نفس الوقت الذى قال فيه (إيزاك) لزميله (داريل) فى توتر ، وهو يدير مصباحه اليدوى فى المكان :

ـ لست أرى أو أسمع شيئًا .. هل تعتقد أنهما نجحا فى الخروج من هنا ؟!

أجابه (داريل) فى حزم ، وهو يدير فوهة مسدسه فى حذر :

ـ مستحيل ! أنا أعرف هذا المكان جيدًا ، ولا يوجد سبيل للخروج ، سوى هذا الذى جاءا منه .

غمغم (إيزاك) :

ـ ألا يدهشك عدم وجود أى حراس ، فى مخزن كبير كهذا ؟! لقد استطعنا الدخول إليه فى سهولة ، وأى لص كان يمكنه فعل هذا أيضًا .

أجابه (داريل) :

ـ كلاَّ .. هذا لا يدهشنى على الإطلاق ؛ لأن كل هذا من إعدادنا نحن .

هتف (إيزاك) بدهشة بالغة :

ـ من إعدادنا نحن ؟!

أومأ (داريل) برأسه إيجابًا ، وهو يقول بشىء من الزهو :

ـ نعم يا رجل .. نحن رشونا طاقم الحراسة ، ليغادر المكان كله الليلة ؛ لأننا كنا نخطِّط للاختباء هنا ، بعد اغتيال ذلك الفلسطينى ، ولولا هذا لوجدت طاقم حراسة فى ذلك الشارع نصف المغلق ، ورجلين من رجال الحراسة داخل المخزن نفسه .

تمتم (إيزاك) ، وقد منحه هذا مزيدًا من الثقة :

ـ رائع .. كم يسعدنى أن يخطِّط الرؤساء الأمر بهذه الدقة .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى أتاه صوت من أعلى ، يقول فى سخرية :

ـ المهم أن يتحوَّل التخطيط إلى تنفيذ ناجح .

كانت العبارة الساخرة باللغة العبرية نفسها ، التى يتحدثان

بها ، فتحرك كلاهما فى سرعة ودهشة وتوتر ، وارتفعت فوهتا مسدسيهما ، و ...

وفجأة ، أحاطت أنشوطة حبل بذراع (داريل) ، ثم التفّت حول ساعده فى قوة ، قبل أن يجذبها (أدهم) بكل قوته ، من فوق مجموعة كبيرة من صناديق البضائع ..

وانطلقت شهقة ألم ودهشة من حنجرة (داريل) ، عندما ارتفعت قدماه بضعة سنتيمترات عن الأرض ، قبل أن يفلت (أدهم) الحبل فجأة ، فيسقط الإسرائيلى ، ويرتطم بالأرض فى عنف ..

أما (إيزاك) ، فقد رفع فوهة مسدسه ، فى توتر لا محدود ، وراح يطلق رصاصاته الصامتة فى عصبية ، نحو قمة الصناديق ، وهو يبحث ببصره وضوء مصباحه اليدوى عن (أدهم) ، الذى اختفى تمامًا ، فى حين راح (داريل) يحلّ الأنشوطة من حول ساعده ، وهو يهتف فى غضب هادر :

ـ هذا الفتى ليس عاديًا ، إنه يتحدّث العبرية ، ويجيد مهارات لا قبل لشاب عادى بها .. إنه ليس مجرّد مراهق مذعور كما تصوّرنا .

هتف (إيزاك) ، وهو يتلفّت حوله ، فى عصبية بالغة .

ـ ألم أقل لك هذا من قبل ؟!

هبّ (داريل) واقفًا ، وهو يقول فى حدة :

ـ ولكنه لن يفلت منا .. أقسم أن اقتله ، قبل أن ينتصف الليل .

غمغم (إيزاك) فى عصبية :

هذا لو عثرنا عليه أولاً .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) يتحرّك فى سرعة ونشاط ، لينتزع واجهة أحد مصابيح الإضاءة ، ويجذب السلك الكهربى من داخله ، وويوصله بسلك آخر طويل ، عثر عليه وسط البضائع ، ثم يجذب إليه عربة معدنية ، من تلك العربات المستخدمة لنقل البضائع ، وراح يوصل بها أحد أطراف السلك ، فى سرعة واهتمام ، وهو يتمتم فى شىء من السخرية :

ـ من المؤكد أن لقاءنا القادم سيكون صدمة لهؤلاء الإسرائيليين .

نطقها ، ثم اعتدل ، وضرب العربة المعدنية بقدمه فى قوة ، لتندفع إلى زاوية من زوايا أكوام صناديق البضائع الكبيرة ، وتمتم :

ـ والآن ، علينا أن نستغل ذلك الغضب الهادر ، الذى أشعلناه فى أعماقهم .

واندفع متجاوزًا العربة ، وقفز عبرها ، و ...

وفجأة ، وجد نفسه وجهًا لوجه ، أمام (داريل) و(إيزاك) ..

ولجزء من الثانية ، ارتسمت دهشة بالغة على وجهى الرجلين ، إلا أنهما تجاوزا تلك الدهشة بسرعة خرافية تناسب محترفين مثلهما ، وارتفعت فوهات مسدسيهما نحو (أدهم) ، فى آن واحد تقريبًا ..

ثم انطلقت الرصاصات الصامتة ..

وبمنتهى الغزارة ..

والعنف .

★ ★ ★

٦ ـ الصـــــدمة ..

كل شىء كان يعتمد على التوقيت الدقيق ، فى هذه المرة ..

فعلى الرغم من أثر المفاجأة ، الذى ارتسم على وجه (أدهم) ، إلا أنه كان يتوقَّع وجود (إيزاك) و(داريل) ، فى ذلك الموقع بالذات ، عندما قفز إليه ، وعندما رسم على وجهه تلك الدهشة الزائفة ..

وعندما ارتفعت فوهات مسدسيهما نحوه ، وثب بكل قوته ، عائدًا إلى موضعه ، وتفادى تلك العربة المعدنية ، وهو يقفز ليتسلَّق كومة الصناديق مرة أخرى ..

وانطلقت رصاصات الرجلين ، بمنتهى الغزارة والعنف ، لتخترق عشرات من صناديق البضائع ، دون أن تصيب رصاصة واحدة منها (أدهم) ..

وبكل الغضب والانفعال ، انطلق الرجلان خلف (أدهم) ، و(داريل) يصرخ :

ـ لن يفلت مرة أخرى أبدًا .

صاح به (إيزاك) ، وهو يدور حول كومة الصناديق الكبيرة :

- أقسم أن أطلق النار عليه ، عندما ..

قبل أن يتمّ عبارته ، فوجئ بالعربة المعدنية أمامه ، وحاول تفادى الاصطدام بها ، إلا أن المسافة التى تفصله عنها لم تسمح له بالتوقُّف المباغت ، فامتدَّت يده تمسك بها بحركة آلية ، و ...

وانطلقت من حلقه صرخة ألم عنيفة ، وجسده كله ينتفض فى قوة ، مع سريان التيار الكهربى فيه ، وطار المسدس من يده ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وارتجفت أطرافه كأوراق خفيفة فى مهب الريح ، ثم دوت فى المكان فرقعة مكتومة ، سقطَ (إيزاك) بعدها أرضًا ، ودخان خفيف يتصاعد من شعره ..

واتسعت عينا (داريل) ، فى توتر بالغ ، وهو يتراجع فى حذر عصبى ، ويتلفّت حوله ، هاتفًا فى غضب ساخط :

- ذلك الفتى ليس عاديًا .. ليس عاديًا أبدًا .

تلفّت حوله فى عصبية بالغة ، وألقى نظرة أخرى على زميله الملقى أرضًا ، ثم لم يلبث أن أطفأ مصباحه اليدوى ، وهو يتمتم :

- مادمت لا أراه ، فلا ينبغى أن يرانى .

سرت فى جسده موجة عارمة من التوتر ، وهو يسير داخل المخزن ، وبين أكوام الصناديق الكبيرة ، بمنتهى الحذر والقلق ، وأذناه تحاولان رصد أية حركة من حوله ..

وفجأة ، التقطت أذناه صوت أنفاس تتردّد ..

أنفاس شخص مرهق أو متعب ، على مسافة ثلاثة أمتار منه فحسب .

وبمنتهى الحذر والحرص ، صوّب (داريل) مسدسه ، نحو مصدر الصوت ، واستعدّ بمصباحه اليدوى ، وقلبه يخفق فى عنف ..

ثم فجأة ، رفع مصباحه ، وأضاءه ، وهو يهتف :

وقعت يا فتى .

انعقد حاجباه فى شدة ، عندما أدرك أنه يصوّب مصباحه إلى (مازن) ، وليس إلى (أدهم) ، إلا أن هذا لم يمنعه من اتخاذ وضع التصويب فى سرعة ، و ...

وفجأة ، وبلا مقدمات هوت على رأسه صاعقة ..

صاعقة بشرية ، تحمل اسم (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

وقبل أن يستوعب عقل (داريل) ، المحترف الأمر ، كانت قبضة (أدهم) الشاب تحطم أنفه بلكمة كالقنبلة ، ثم تندفع قبضته الثانية لتهوى على فكه كمطرقة من الصلب ..

وتراجع (داريل) مع عنف اللكمتين وقوتهما ، واتسعت عيناه فى ألم ودهشة ، وهو يقول :

- لا .. ليس من الممكن أن يفعل شاب فى عمرك هذا بى .

اندفع (مازن) نحوه ، وهو يهتف :

- ما رأيك إذن فى قبضة ناضج ؟

قالها ، وهوى بقبضته على فك الإسرائيلى كصاعقة هائلة ، انتزعته من مكانه ، وألقت به ثلاثة أمتار إلى الخلف ، ليرتطم بكومة من الصناديق ، ثم يسقط أرضًا ، وتهوى كومة الصناديق فوقه فى عنف ..

وفى ظفر ، هتف (مازن) :

- لقد فعلناها يا فتى .

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى (أدهم) ، وهو يستعيد لفة الحبال ، ثم يقيِّد (داريل) و(إيزاك) فى إحكام ، قائلاً :

- لست أحب أن أفسد إحساسك بالظفر يا سيِّد (مازن) ، ولكن المشكلة لم تنته بعد ، فمازال الأصلع ورفيقه ينتظراننا ، عند المخرج الوحيد المتاح للمكان .

انعقد حاجبا (مازن) ، وهو يقول :

- لم أنس هذا يا فتى ، ولكن من حقى أن أسعد بانتصارنا على هذين الوغدين .

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

- بالتأكيد .

ثم التقط مسدسى (داريل) و(إيزاك) ، وناول أحدهما لرفيقه ، قائلاً :

- من المؤكد أنك تجيد إطلاق النار .. أليس كذلك ؟!

ارتسمت ابتسامة عجيبة على شفتى (مازن) ، وهو يجيب :

- تُرى هل سيدهشك أو يحبطك ، لو جاء الجواب بالنفى يا فتى ؟!

ارتفع حاجبا (أدهم) بدهشة حقيقية ، ثم انخفضا وهو يتمتم :

- بل سيدهشنى هذا فحسب يا سيِّدى ، وسيثير فى نفسى عشرات التساؤلات بالتأكيد .

اتسعت ابتسامة (مازن) ، وهو يقول :

- ربما تزول دهشتك لو علمت أننى بالفعل أحد مسئولى جبهة التحرير الفلسطينية ، ولكننى لست ، ولم أكن يومًا من حاملى السلاح ، فسلاحى يختلف تمامًا عما يستخدمه هؤلاء .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

- إننى أحارب بالقلم .

غمغم (أدهم) ، وهو ينظر إليه فى انبهار :

- حقًا ؟!

هزَّ (مازن) كتفيه ، قائلاً :

- نعم .. حقًا يا فتى .. إننى المسئول عن صياغة كل البيانات ، التى تقدم وتشرح قضيتنا للعالم أجمع ، ومن الواضح أن الإسرائيليين قد أدركوا أخيرًا أن القلم لا يقلَّ خطورة عن المدفع ، وإلا ما سعوا لاغتيالى .

وافقه (أدهم) بإيماءة من رأسه ، وقال فى رصانة مدهشة :

ـ أبى يؤمن دائمًا بأن القلم سلاح أمضى من السيف .

تطلع إليه (مازن) لحظة ، على الضوء الخافت ، قبل أن يغمغم فى إعجاب حنون :

ـ كم أتمنى أن ألتقى بأبيك .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟ ربما يحدث هذا ذات يوم .

ثم استعاد حزمه ، وهو يشير إلى مخرج المخزن ، مستطردًا :

ـ ولكن المهم الآن أن نجد وسيلة للخروج من هنا .

لوّح (مازن) بمسدسه ، قائلاً :

ـ على الأقل ، يمكننا أن نحارب ، فى سبيل هذا .

تطلّع (أدهم) لحظة فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ ربما كانت هناك وسيلة أفضل .

نظر (مازن) إلى عينيه مباشرة ، محاولاً قراءة ما يدور فى عقله ، إلا أن وجه (أدهم) بدا له جامدًا ، هادئًا ، غامضًا .. إلى أقصى حد ..

★ ★ ★

ألقى (بنيامين) نظرة متوترة على ساعته ، وهو يلتفت إلى السائق (كاهان) قائلاً فى عصبية زائدة :

ـ لماذا تأخرا إلى هذا الحد ؟! إنها العاشرة مساءً .. كان ينبغى أن ينتهى الأمر قبل هذا بكثير .

قال (كاهان) ، وهو يدخن سيجارته فى توتر مماثل :

ـ المكان مظلم كما تعلم ، ولا يمكنهما إضاءته ، حتى لا يجذبا الانتباه إليهما ، وهذا يعنى أن يستغرقا بعض الوقت ، فى السعى خلف الرجل والفتى .

هزّ (بنيامين) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ ليس إلى هذا الحد .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع صوت (داريل) يأتى من خلف الجدار ، وهو يسعل بشدة ، هاتفًا بصوت مختنق :

ـ أسرعا .. إننا نحتاج إلى مساعدتكما .

هتف الأصلع ، وهو ينتزع مسدسه :

ـ كنت أعلم أن هناك أمرًا غير طبيعى .

أما السائق ، فألقى سيجارته ، واستلّ مسدسه ، هاتفًا :

ـ أسرع يا رجل .. إنهما يحتاجان إلينا .

انطلق الاثنان نحو الجدار ، وقفز الأصلع يتعلّق به ، وهو يهتف :

ـ لو أن ذلك الفلسطينى قد أصابهما بأدنى سوء ، فأقسم أن ..

كان يعبر الجدار ، وهو يهتف بعبارته ، وقبل أن يكملها ، سمع صوتًا من تحته مباشرة ، يقول فى حزم :

ـ هل يزعجك الفلسطينى إلى هذا الحد ؟

هبط الأصلع ببصره إلى ما خلف الجدار مباشرة ، ووقع بصره لحظة على (مازن) ، قبل أن يهوى هذا الأخير على وجهه بلوح من خشب صناديق البضائع ، بكل ما يملك من قوة ..

ودوى فى المكان صوت ارتطام مكتوم ، عندما أصاب اللوح وجه الأصلع ، الذى اختلّ توازنه ، فسقط إلى الجانب الآخر للجدار ، وارتطم بالأرض فى عنف ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها (أدهم) نحو الجدار ، من الاتجاه العكسى ، وقفز فوق كومة أخرى من الصناديق ، على الجانب الآخر ، ليثب منها عبر الجدار ، ويهبط على مسافة متر واحد من (كاهان) ، الذى التفت إليه بمسدسه ، هاتفًا فى عصبية غاضبة :

ـ أيها الـ ...

قبل أن ينطقها ، كان جسد (أدهم) يدور فى الهواء ، بحركة قتالية مدهشة ، ثم تثب قدماه ، لتركلا المسدس من يد الإسرائيلى ، وتضربا وجهه فى اللحظة ذاتها ..

ومع دوى صوت ارتطام مكتوم آخر ، هبّ (كاهان) من سقطته ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! لا يمكنك أن تهزمنى أيها الفتى .. إننى ..

ولم يمنحه (أدهم) الفرصة لإتمام هذه العبارة أيضًا ..

لقد وثب مرة أخرى بقدميه معًا ، فركل أنف (كاهان) وفكه

ركلتين سريعتين متعاقبتين ، دفعتا الرجل فى عنف ، ليرتطم ظهره بالجدار فى قوة ، وعندما ارتدّ عنه ، استقبلته لكمة (أدهم) فى أنفه مباشرة ، ليهوى هذه المرة فاقد النطق ..

ومن أعلى الجدار ، ارتفع صوت تصفيق حار ، يمتزج بصوت (مازن) ، وهو يقول :

ـ رائع يا فتى .. لولا أننى رأيت هذا بنفسى لما صدّقته .. لقد هزمت محترفًا يفوقك حجمًا بمرتين على الأقل ، وقلّدت صوت آخر بدقة ومهارة مذهلتين .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ كان هذا من قبيل المصادفة .

هتف (مازن) ، وهو يهبط إلى حيث يقف (أدهم) :

ـ مصادفة ؟! محال يا فتى .. صحيح أننى لست مقاتلاً ، ولكن هذا لا يمنعنى من تمييز المحترفين ، عندما ألتقى بهم ، وتقليد صوت ذلك الإسرائيلى ، لم يكن من أعمال الهواة .

ثم تطلّع إلى عينى (أدهم) مباشرة ، مستطردًا :

ـ ومازلت أصرّ على أنك تخفى شيئًا .

بدت له ابتسامة (أدهم) غامضة ، وهو يقول :

ـ وهل يمكن لمن فى مثل عمرى أن يخفى شيئًا ؟!

تطلّع (مازن) إلى عينيه لحظة ، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة عالية مجلجلة ..



فركل أنف (كاهان) ونكه ركلتين سريعتين متعاقبتين ، دفعتا الرجل فى عنف ، ليرتطم ظهره بالجدار فى قوة ..

ضحكة جاوبها (أدهم) بابتسامة هادئة ، على الرغم من أنها قد ترددت فى المكان كله ، حاملة كل دهشة وانفعال (مازن) ..

وكل إعجابه ..

بلا حدود ..

★ ★ ★

امتدت يد (مازن) تصافح (أدهم) ، بكل تقدير وإعجاب ، أمام مبنى السفارة السورية فى (باريس) ، وهو يقول :

ـ أشكرك كثيرًا يا فتى .. لقد أنقذت حياتى ، وغيَّرت الكثير من نظرتى للأمور ، ولا يمكنك أن تتصوَّركم أتمنى أن نلتقى ثانية ، فى ظروف أفضل .

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

ـ صدقنى يا سيِّد (مازن) .. أنا أيضًا أتمنى هذا .

ثم سأله فى اهتمام :

أأنت واثق من أنك ستجد الأمان هنا ؟!

أومأ (مازن) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بكل تأكيد .. (سوريا) هى وطنى الثانى بعد (فلسطين) ، فأنا أقيم بها منذ زمن طويل ، ولى فيها عشرات الأصدقاء ، وعلى رأسهم الملحق العسكرى بالسفارة هنا .

بدا الارتياح على وجه (أدهم) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. أعتقد أن هذا يعنى أن نفترق هنا .

غمغم (مازن) :

ـ للأسف !

ثم تنهّد ، وهو يصافح (أدهم) ثانية ، قائلاً :

ـ لن أنسى هذه الليلة ما حييت ، وأتمنى من كل قلبى أن تنقل تحياتى إلى والدك ، الذى لم ألتق به قط .. أخبره أن لديه أفضل ابن فى الدنيا كلها .

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

ـ سأحاول .

تصافحا للمرة الثالثة ، ثم افترقا عند هذه النقطة ، ودسّ (أدهم) كفيه فى جيبى سترته الرياضية البسيطة ، وهو ينطلق فى شوارع (باريس) ..

ولكن بروح مختلفة تمامًا ..

الآن فقط ، لم تعد (باريس) مجرّد حلم راوده ، منذ سنوات عديدة ..

لقد صارت أيضًا حلبة لأوّل مواجهة حقيقية له مع (الموساد) ..

وأوّل انتصاراته ، فى هذا العالم الغامض المثير ..

الآن فقط يشعر بأن تدريباته لم تعد مجرّد نظريات ، ومحاولات للفهم والاستيعاب وحفظ المعلومات ..

لقد خاض تجربة فعلية مع العدو ..

والنصر ..

وياله من شعور !!

شعور سيطر على كيانه كله ، وجرف أمامه كل المشاعر الأخرى ، حتى إنه تجاوز برج (إيفل) ، الذى طالما حلم برؤيته ، دون أن يلقى عليه نظرة واحدة ، من فرط نشوته ..

وفى محطة قطار (باريس) ، كان القلق يعصف بنفس (صبرى) ، وهو يتطلّع إلى ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الخامسة إلا خمس دقائق ..

خمس دقائق فحسب ، وينطلق القطار فى رحلته إلى (مارسيليا) ..

ولم يظهر (أدهم) بعد ..

وعلى الرغم من كل النظريات التى يؤمن بها ، والتى عمل كثيرًا لتحقيقها ، راح قلبه يرتجف فى صدره ..

أين ابنه إذن ؟!

أين ؟!

وانطلق عقرب الدقائق يعدو كجواد جامح ..

ولم تتبق سوى أربع دقائق ..

ثلاث ..

اثنتان ..

دقيقة واحدة ..

وانطلقت صفارة القطار ..

لقد حان موعد تحرُّكه ..

ولم يظهر (أدهم) بعد ..

وهوى قلب (صبرى) بين قدميه ، عندما تحرَّك القطار بالفعل ، و ...

وفجأة ، ظهر (أدهم) ..

ظهر عند مدخل الرصيف ، وانطلق يعدو بكل قوته نحو القطار .

وبكل لهفة الدنيا ، تابعه (صبرى) ببصره ، ثم اندفع إلى باب القطار ، ومدّ يده ، هاتفًا :

ـ هنا يا (أدهم) ..

وقفز (أدهم) ..

والتقطته يد والده ..

وجذبه إلى داخل القطار ..

ودون أن يتبادلا كلمة واحدة ، التقت عيونهما طويلاً ..

ثم اتجه (صبرى) مع ابنه إلى مقعديهما ، وجلسا متجاورين ..

وبعد برهة من الصمت ، قال (صبرى) ، وقد نجح أخيرًا فى السيطرة على انفعالاته :

ـ حمدًا لله على سلامتك .

ابتسم (أدهم) ، وهو يسترخى فى مقعده ، قائلاً :

ـ أشكرك يا أبى .

تردَّد (صبرى) لحظة ، ثم سأله :

ـ هل راقت لك (باريس) ؟!

أسبل (أدهم) جفنيه ، وهو يقول :

ـ من المؤكَّد أنها تجربة فريدة ، لن أنساها أبدًا .

ابتسم (صبرى) فى ارتياح ، قائلاً :

ـ ستكون هناك تجارب أخرى فى المستقبل ، فمازالت هناك مهارات شتى لاكتسابها ، وبلاد أخرى لتزورها ، وتمتزج بشعوبها وعاداتها وتقاليدها . المهم أن تكون قد ابتعدت عن المتاعب هذه المرة .

صمت (أدهم) بضع لحظات ، فتح خلالها عينيه ، ثم عاد يسبلهما فى استرخاء ، قائلاً :

ـ لم يكن هناك ما يستوجب القلق .

قالها ، وابتسامته تتسع أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

« إذن فوالدك (رحمه الله) لم يعلم بأمر تلك المواجهة ، قط .. »

هتف (قدرى) بالعبارة ، فى مزيج من الدهشة واللهفة ، فابتسم (أدهم) ، وهو ينهض ، قائلاً :

ـ قلت لك : إن أحدًا لم يعلم بهذا قط ..

ثم اعتدل ، وشرد بصره لحظة ، قبل أن يستطرد :

ـ الواقع أننى لم أجد حينذاك مبررًا لبث القلق فى نفس والدى (رحمه الله) برواية أمر كهذا ، واكتفيت بشعورى الداخلى بالظفر والزهو ، لانتصارى على أربعة من قتلة (الموساد) المحترفين ، فى مواجهتى الأولى مع الإسرائيليين .. كان هذا ، ومازال يكفينى تمامًا .

وهزّ كتفيه ، وهو يستعيد ابتسامته ، مستطردًا :

ـ ثم تذكّر أن والدى قد دربنى على أن أهم عامل فى عملنا هذا هو السرية .. السرية المطلقة .

غمغم (قدرى) بابتسامة عريضة ، وهو يشعر بالزهو والفخر ؛ لأنه الشخص الوحيد ، فى العالم أجمع ، الذى شارك (أدهم) سر مواجهته الأولى مع الإسرائيليين :

ـ بالتأكيد يا صديقى .. بالتأكيد .

لوّح (أدهم) بيده ، وهو يتجه إلى الباب ، قائلاً :

ـ والآن هيا .. عد إلى عملك يا صديقى ، فأنا أحب ، فى مواجهتى القادمة مع (الموساد) ، أن أحمل واحدة من بطاقات هوياتهم ، التى يدّعون أنها غير قابلة للتزوير .

لوّح (قدرى) بيده بدوره ، وهو يقول فى حسم :

ـ ستحملها بإذن الله يا صديقى .. هذا وعد .

قالها ، وقد امتلأت نفسه بالثقة والحماسة ، وعاد يفحص تلك الهوية الإسرائيلية ، وفى أعماقه يتردّد مبدأ قديم ، قام بتعديله على الفور ..

فكل شىء فى الدنيا يمكن صنعه إذا ما امتلك المرء التكنولوجيا اللازمة ، والمهارة ، والإيمان ، والإرادة اللازمة للصمود والتحدّى ..

كل الإرادة .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)